

طريق العمدة



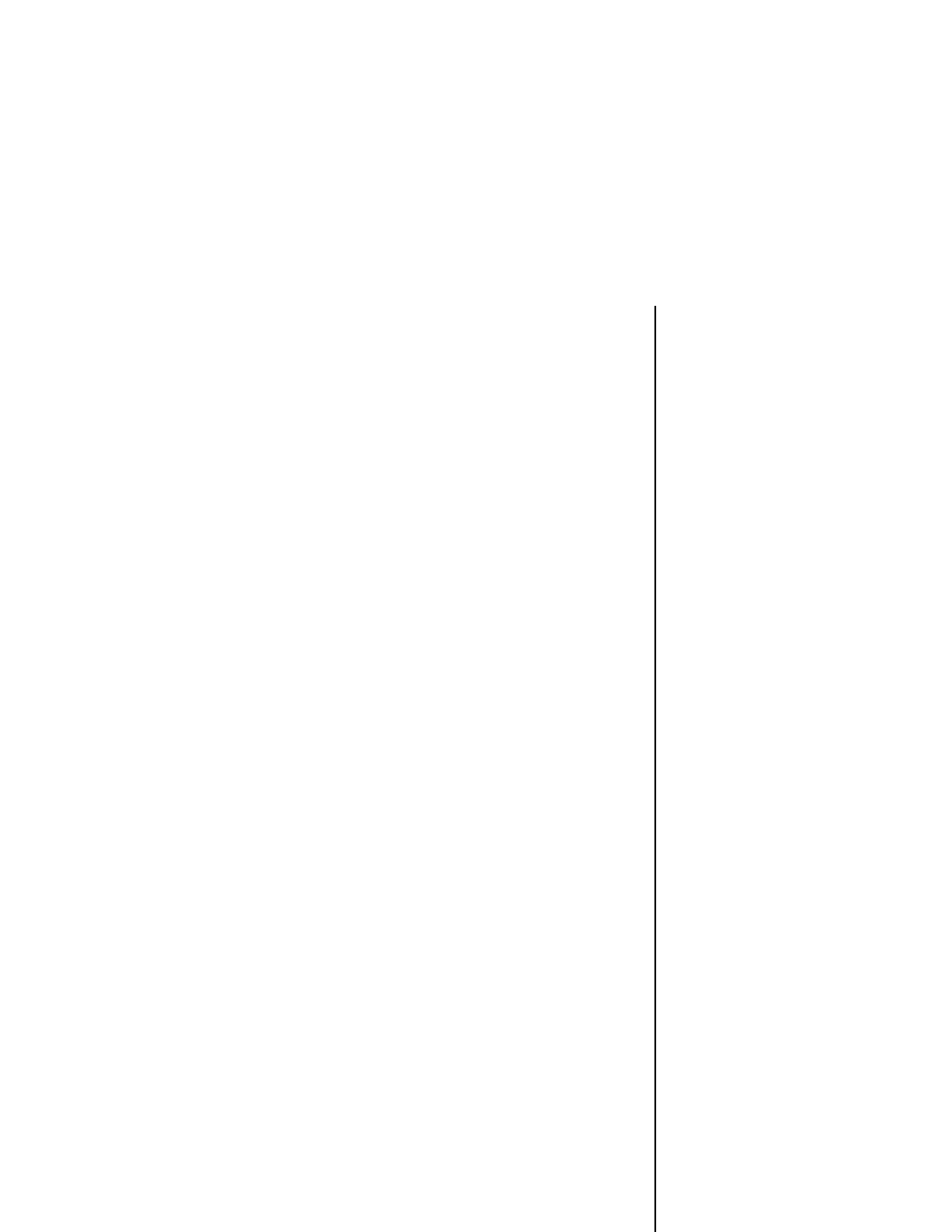
يوسف السباعي

يوسف السباعي

طريق العودة

يطلب من : مكتبة مصر بالفجالة

٣ شارع كامل صدقي



الإهداء

إلى صديقي صاحب هذه القصة ..
مع الاعتذار عن طريقة ختامها ...
إنه ختام واقعي ... استعرتة من حياة غيره ...
لأختتم به قصته ... وأحل به مشكلته .
أطال الله عمره .. وأبقى حياته .

يوسف السباعي

الفصل الأول

طريق العودة

في خريف عام ١٩٤٨ ، وقبيل المعارك الحاسمة التي انتهت بها عمليات القتال الأولى في فلسطين .

والقطار ينزلت ببطء من محطة القاهرة .. وهو قد جلس وحيدا في الديوان .. مدد ساقيه على المقعد المواجه وقذف بالبيرييه الكاكي فاستقر فوق الرف الشبكي .. وبدأ يفك توكة الحزام وأزرار السترة .. وأطلق من صدره زفرة راحة واسترخاء ..

لم يطل من النافذة كبقية الركاب ولا لوح بيده لأحد .. لأنه لم يكن هناك من يطل عليه أو يلوح له .. لقد أوصله سائق العربة البيك أب .. ووضع له الأمتعة فوق الرف .. ثم رفع يده بالتحية وانصرف ..

لم تكن هناك مظاهر وداع .. لقد انتهى منها في البيت .. وحتى هناك لم يكن الوداع وداعا بكل مظاهره .. كان وداعا إلى حين .. فما كانت الفرقة لتطول .. ولو أحس أنها ستطول لما منح وداعه حرارة أشد أو لهفة أكبر . لقد كان في حالة تبدل لا تسمح له بالإفراط في مظاهر الشعور أيا كان نوعه .. لا فرح ولا ضيق ولا حزن ولا غضب ..

كان أشبه بالمتنهي من شوط سباق .. استلقى في نهايته .. لا يريد أكثر من أن يلتقط أنفاسه .. ويخرجها في هدوء وطمأنينة .. غير مكروب ولا لاهث .. هاتئا باسترخائه واستقراره .. وإلقاء أعبائه وانتهاء متاعبه .

وانساب القطار تحت سقيفة المحطة وانحسر ظلها عن نوافذه .. وألقت الشمس أشعتها على ساقيه .. وتواترت أمام عينيه الأشجار والأسوار والدور العالية والعربات المتسابقة في الشارع الممتد جواره .. وخلف القطار وراءه عمارة غمرة العالية .. وأخذت ضجة المدينة تتباعد .. ومناظرها تتلاشى ولم يعد يمر به سوى أكشاك سكة الحديد السوداء .. وعرباتها المتناثرة هنا وهناك .. وبدأت الحقول الخضراء تلوح لعينه .. في مساحات شاسعة لا تقف في سبيلها سوى أشباح أكواخ سود تقطع خط الأفق الذي يرسمه التقاء فسحة السماء الزرقاء ببسطة الأرض الخضراء .. وأحس براحة أكثر ..

لقد ألقى المدينة وراء ظهره .. بكل ما فيها من متاعب ومشاكل .. أجل .. مشاكل .. ليس يدري كيف تراكمت وتعقدت حتى .. أحس في النهاية أنها قد أمسكت بخناق وأحاطت بعنقه .. فكتمت أنفاسه .. وحطمت أعصابه ..

لقد استطاع أن يخلق له اسما ويوجد له كيانا كمهندس معماري .. قلما أتيتح لشاب في مثل حدائته وفي مثل وضعه .. إن طبيعته الفنانة الخالصة .. لم تستطع أن تقبع في نطاق الوظيفة الضيق ولم تتحمل مواهبه أن تقيد إلى مركز محدود الإنتاج .. ولم تلبث قدراته أن تسربت إلى نطاق أوسع وميدان أكثر تحورا ..

كان فنانا بطبيعته .. كانت هندسة الإنشاء والتعمير في دمه وفي كيانه .. وعندما تخرج في كلية الهندسة والتحق بالجيش وتسلم عمله كضابط لأشغال إحدى المناطق العسكرية .. أخذ ينظر إلى الثكنات العسكرية في ضيق . شيء ما لا بد أن يحدثه في هذه الثكنات الكئيبة المقبضة .. شيء يكسبها بعض الجمال والرونق .. ويمنحها بعض النور . ليس مفروضا على الجنود أن

يسكنوا في قبور ضخمة مظلمة سميكة الجدران .. ليس مفروضا عليهم أن يحرّموا نعمة الجمال والضوء ..

شيء جديد لا بد أن يدخل على هندسة البناء العسكرى .. كما دخل على كل أنواع الأبنية في عالمنا المتحضر .. فلم يقل أحد إن هذا النوع المقبض من الأبنية ذات الأقبية والأعمدة السميكة .. المأخوذ عن أبنية ثكنات الإنجليز والمعروفة من القرون الوسطى .. قد أضحت فرضا لازما للعسكرية .

وبدأ في حدود سلطاته .. يفعل أشياء جميلة .. لم يجعل عمله مقصورا على فرشاة الجير وتسليك البكابورتات وإصلاح النور في الثكنات .. بل بدأ يقيم إضافات جديدة .. هنا وهناك .. يصلح واجهة .. أو يعدل مدخلا ..

ول تزعج أعماله تلك أحد الرعوس المهيمنة على رياضة الأشغال العسكرية فقد كانت بطبيعة سلطاته المحدودة ... ضيقة النطاق .. لا تعدى مظاهر الإصلاح والترميم .. التي يمكن التجاوز فيها عن عبث المهندسين الجدد وحماسهم ..

حتى أوكل إليه .. أن يضع تصميمًا لأحد الأبنية الجديدة المنشأة في منطقته .

وعنها .. وبدأ الرسم ..

لقد كانت فرصته الأولى ليحطم النماذج العتيقة الكئيبة التي فرضت على المنشآت العسكرية .

وظهر البناء الجديد .. فبدأت مشاكله ..

المشكلة الأولى هي إصرار المدير على أن يفتح شبكا بحريا في مكتبه . وإصراره هو على ألا ينشأ الشباك لأنه سيثوه واجهة المبنى .. وانتصر هو في النهاية .. وكان على المدير أن يبحث له عن حجرة بحرية أخرى أو يحتمل حجراته بلا شبك بحرى .

والمشكلة الثانية .. هي ثورة رؤسائه على هذا الشباك الذى أقامه .. وعلى
خروجه عن تقاليد الأبنية العسكرية ..
وانتهت المشكلة بأن ظل البناء كما هو ..

وظل هو يصمم ويشيد بطريقته التى يوحى بها إليه شيطان فنه ..
وأخيرا طفح الكيل .. أو بلغ السيل — كما يقول الفصحاء — الزنى ،
وأحس المسئولون عن الأشغال العسكرية أن زمام الأبنية إن استمر فى يد هذا
الأحمق الصغير .. سيطيح بتقاليدهم .. وكان عليهم أن يصدروا أمرا عسكريا
يحتم عدم الخروج عن التصميمات الموروثة عن الأجداد .. والاكتفاء بالأقبية
والأعمدة الضخمة .. وكفى الله المهندسين شر المعمار ..
وكان على المهندس الصغير أن يبحث له عن عمل آخر غير التنظيم والبناء
.. فنقل إلى سلاح المهندسين ليثبت مظهر نبوغه فى الغازات السامة والألغام
والأسلاك الشائكة ..

ولكنه كان يجب أن يرسم .. وأن يصمم .. وأن يجلس ليرقب .. هذا
الشيء الذى وضعه على الورق .. وقد تجسد .. واستقام .. وعلا وأضحى
فيلا جميلة .. أو عمارة شاهقة .

وأنشأ له مكتبا خاصا للرسم .. وبدأ يجاهد فى السوق .. لم يترك مناقصة
أو مسابقة إلا اشترك فيها .. وكان لا بد أن يفوز .. لأنه فنان .. ولأنه يهوى
مهنته .

ولمع اسمه .. على حدائته .. وزاد ربحه على قصر اشتغاله بالمهنة الحرة وزاد
الإقبال على مكتبه .. زيادة وضعت فى مصاف القدامى من المهندسين
المعماريين .

وهنا ارتكب غلظته الكبرى .

فقد بدأ يدخل فى عمليات المناولة وتجاوز عمله من التصميم إلى التنفيذ ..

و لم ينجح ..

لا يدري له ..

قد تكون حاجته إلى عبقرية المقاتل . وعبقرية المقاتل .. شيء آخر غير
عبقرية الفنان .. بل هي قد تحتاج من الصفات إلى نقيضها .. فالفنان عماده
الخيال ..

والمقاتل .. عماده الواقع .. الفنان يخلق في الهواء .. والمقاتل يبنى على
الأرض .. الفنان يحتاج في خلقه إلى السكينة والهدوء .. والمقاتل يحتاج .. إلى
الصياح والضجيج .. الفنان لا بد أن يسرح .. والمقاتل إذا سرح ضاع ماله
.. ودك صرحه ..

وقد تكون حاجته .. إلى التجربة الطويلة .. وإلى معرفة الناس وممارسة
التعامل معهم .. وفهم عاداتهم وأخلاقهم .. لقد خرج من المدرسة إلى
الشكنات إلى المكتب ، مليئا بحسن الظن وطيب الفهم .. لم يمارس الخداع ..
ولا المماثلة .. وخير المقاتلين ما نشأ .. في الصفوف .. وتدرج من عامل ..
إلى ريس .. إلى أسطى .. إلى ملاحظ .. إلى صبي مقاتل .. إلى مقاتل .
ففى تدرجه هذا سيمارس كل أنواع السفالات المتوقعة .. بين جميع
الطبقات .. وعندما يمارسها الناس معه .. لن يؤخذ بها .. فهو يتوقعها قبل أن
تحدث .. بل أكثر من هذا سيدخلها في حسابه .. فهو يعرف جيدا .. أن
العمال قد يتخلون عنه بسهولة وأن الأسطوات قد يتعاقدون معه ومع غيره ..
ثم يذهبون إلى ثالث .. كل هذا يجب أن يدخل في حساب العملية ..

هكذا يجب أن يكون المقاتل .. ولم يكن هو كذلك ..

وقد تكون حاجته إلى رأس المال .. فلا بد أن يستند المقاتل إلى رصيد
محترم .. يجرى به عملياته العديدة ، ويظهر بمظهر الرجل القوي القادر على
كسب الثقة .. ولا يلجئه إلى الجرى وراء العميل .. واستحلاب نقوده ..

قد يكون هذا أو يكون غيره ..

المهم أنه فشل في عمله كمقاول .. فشلا ذريعا وجد نفسه فجأة ..
متورطا في بضع عمليات متوقفة .. دون أن تكون لديه القدرة على دفعها
والاستمرار فيها ..

وأحس أن كل من حوله يريدون نقودا .. يوميات عمال .. وأثمان خامات
.. والعملاء لا يريدون دفعا .. لأنهم دفعوا الأقساط المستحقة .. بل ودفع
بعضهم زيادة عليها .. وهم يتعجلون أبنيتهم ويهددون بتنفيذ الغرامات
الموجودة في العقود .. وبعضهم يهدد بالشكوى إلى القضاء .. بل إن أحدهم
قد أرسل إليه إعلانا على يد محضر ..

لم يعد إذا .. فنانا .. يمارس عمليات الخيال والجمال .. بل أضحي يمارس
عمليات الحياة .. في بؤرة الواقع .. غريقا في المونة والأخشاب والأدوات
الصحية .. والبلاط .. والمسلح .. مشدودا من عنقه إلى التجارين ..
والمبيضين والسباكين ..

وباتت حياته سلسلة من المشاكل والمنغصات .. وباتت معاملاته قائمة على
سلسلة من المماطلات .. العمال يماطلونه .. وهو يماطل العملاء ..
واستدان ولم يفلح الدين في فض مشاكله وفك أزمته .. وتعذرت عليه
الحياة .. العادية .. لم يعد مرتبه يكفى لسد حاجاته . والوفاء بديونه .. لم يعد
يملك أجر البيت أو مصاريف مدرسة ابنته .. أو سد قسط العربة ..
وكان لا بد من عملية تصفية .. ليس فقط لأعماله الحرة .. ولكتبه .. بل
لحياته .. ولنزله ..

ولم يكن هناك منفذ له .. إلا .. أن ينقل إلى إحدى وحدات الميدان ..
أجل .. ذلك هو الباب المفتوح أمامه لكي ينقذ نفسه من تلك الشبكة
المعقدة التي أحاطت بحياته .. ولكي يخرج من حالة اليأس القاتل التي دفعها

في نفسه سلسلة أعمال الفشل التي منى بها .. وسلسلة الحيبة والخذلان التي أصيب بها من كل من تعامل معه ..

كانت عملية تصفية وهروب واستجمام ..

بدأها ببيع عربته .. وتصفية أعماله على أساس تحويلها إلى دين واحد يمكنه سداده على أقساط يوفرها من مرتبه المضاعف الذي سيستولى عليه في الميدان .. ومن عمليات التوفير التي سيجريها في حياته بعد أن يترك بيته .. ومن المبلغ الذي سيحصل عليه من إيجار البيت ..

وهكذا استطاع أن يدبر أمره .. ويرتب حياته خارجا من كل ما كان يحيط به .. صفر اليدين .. إلا من زوجه .. وابنته .. ومركز قائد إحدى سرايا المهندسين في العريش ..

وأحس بالقطار يتهادى .. فتهادى في تفكيره .. وتمهل في شروده .. وتنقل بصره من النافذة على أعمدة التلغراف ثم قوائم السور المتتالية . فأشجار التوت الجرداء .. فلافته « بنا » حتى انتهى إلى مبنى المحطة القديم القذر .. وبدأ كعادته يضع له التصميم الواجب .. إنه يستطيع ببعض التعديلات أن يخلقه خلقا جديدا ..

هذه الواجهة يجب أن تزال .. ويجب أن يوضع هناك عمود يحمل السقف .. وفي الجانب الأيمن لا ضرورة لهذا الكشك القذر .. و .. و .. وصفر القطار وغاب المبنى عن عينيه .. وتلاشت معه أصوات الباعة .. سميط وجبنة .. وكازوزة . وانبسبت مرة أخرى أمام عينيه الصفحة الخضراء ..

لقد ترك مديحة زوجته مع ابنته نادية .. في بيت أبيها .. وهو لا يحس الآن بألم الفرقة .. أو ضيق الوحشة .. لقد أبغض حياته .. بكل ما فيها .. لا يعنى بالطبع أنه أبغض مديحة .. فهي مخلوقة طيبة يمكن احتمالها كزوجة .. رغم بعد الشقة في أفكارهما وذوقيهما .

لم يكن هناك أى تطابق بين شخصيتيهما .. وهو لا يدري إذا كان هذا ضرورة للزواج .. أم لا .. هناك أشياء كثيرة لا تفهمها منه .. وهو لا يجد هناك ضرورة لإفهامها .. فهي تؤدي واجبها له ولا بنته .. بلا حاجة إلى أن تدخل في أعماقه ..

وهو لم يحاول أيضا أن يفهم ما في أعماقها .. قد يكون لأنه لم يكن لديه وقت لهذا .. أو لأنه لا يعتقد أن هناك شيئا في أعماقها .. وابنته لطيفة .. لقد أحبها أكثر مما اعتقد أنه يمكن أن يحب أى إنسان .. وعندما ولدت .. لم يحس لها شيئا .. كانت مخلوقا غريبا عنه .. كأنه قطعة أثاث أو إحدى القطط التي تعودت زوجته ملاحظتها والعناية بها .. وقد أخذ على نفسه هذا .. وساءه تبلى شعوره الأبوى .. ولكن الزمن أراحه .. فلم تكذب نادية .. تعى ما حولها .. ولم تكذب تبتسم له .. حتى أحس بشيء يجذبه نحوها .. وبرغبة في حملها والتحديث فيها .. ومر بها العام تلو العام .. وقد بلغت الآن السادسة والمفروض أن تدخل المدرسة في أكتوبر هذا العام أى بعد بضعة أسابيع ..

لقد مرضت وهى فى الثالثة بالتيفوئيد .. وروعت أمها بمرضها وروع الجميع .. ولكنه كان أقلهم ارتياحا .. ربما لأنه لم يحس خطورة المرض عليها .. هو يحبها ما فى ذلك شك .. ومع ذلك .. فهو يحس الآن بحال « زهقان » من الدنيا .. بكل ما فيها .. ومن فيها .. ولو خير أن يبدأ حياته من جديد .. لما تزوج .. ولما أنجب .. إنه وحده يستطيع أن يكون أكثر شجاعة فى مجابهة مشاكل الحياة .. فلم يكن يفرضه من أزمته إلا تفكيره فى زوجته وابنته .. لقد كان يحس أنهما عبئان على كتفه ..

وما زال هذا الأحساس يملكه حتى الآن .. إنه لا يستطيع أن يحس بشعور المغامر المتحرر .. لقد فر من حياته فى القاهرة .. ولكن عليه أن يرتبها

في العريش .. ثم يدبر أمر مستقبله على أساس إعادتها مرة أخرى في القاهرة ..
وتشاءب وتمطى .. وأطلق من صدره زفرة .. ثم استرخى .. لماذا يتعب
نفسه في كل هذا الآن ؟.

لقد تخلص من شبكة المشاكل وقذفها وراء ظهره .. وهو يجلس الآن
مسترخيا مرتاحا .. وعندما يصل إلى العريش سيكون استرخاؤه أتم وراحته
أكمل .. لقد قالوا له .. إن له بيتا لطيفا .. وهو لا شك بعيد عن خطوط القتال
.. وما فيها من مضايقات ومنغصات ..

وسيرسل لإحضار مديحة ونادية لقضاء فترة قبل دخول المدرسة .. إذا
وجد البيت لائقا والجو ملائما .. وإذا زالت من نفسه حالة الزهقان التي يحس
بها نحو الدنيا كلها .. وإذا عاودته الوحشة إلى كليهما ..
وتشاءب ثانية وتمطى ..

وأحس بفتور النوم يسرى في أوصاله .. وأسند رأسه على مسند المقعد
وأغمض عينيه .. وراح في إغفاءة ..

الفصل الثاني

خطايا

لم توقظ إبراهيم .. وقفة القطار في الزقازيق .. وكان من المحتمل إلا توقظه
وقفته في الإسماعيلية .. لولا ضجة أحدثها رفيق جديد .. في الديوان .. تعمد
بها أن يوقظه ..

هتف الرفيق الجديد في حماس :

— من ؟ .. إبراهيم شكري .. ماذا أتى بك هنا ؟!

وفتح إبراهيم عينيه .. ولم يبد عليه حماس .. مساو لحماس الجانب الآخر
.. لأن الحماس لم يكن في طبعه .. ولأن حالة النوم والزهقان السابق للنوم
كانت تمنعه من كل محاولة لافتعال الحماس ..

خفض ساقيه .. وأقام جسده الطويل الرفيع .. ومد يده مبتسما .. مرحبا
وهو يقول في لهجة منحها النوم كثيرا من استرخائه :

— أهلا مراد .. كيف حالك ؟.

— كيف حالك أنت .. ما الذي أتى بك هنا ؟.

— نقلت إلى العريش ..

— مدهش .. سنخدم سويا مرة أخرى .. أتذكر عندما كنت ضابطا
مستجدا في الأشغال ..

— عندما سرقت منى الخشب ؟ ..

واندفع الاثنان في فقهة عالية ..

كان إبراهيم يذكر الحادثة جيدا .. بل ذكرها .. قبل أن يذكره بها مراد ..
ذكرها بمجرد أن رآه .. فقد كان شخصه مقرونا بها في ذهنه دائما .. كانت
نموذجا لاستهتاره وجرأته ..

إنه يذكر أول لقاء لهما في مكتبه .. في كوبرى القبة عندما زاره ببذلة
الشغل البنية الشبيهة ببذلة العمال وقد تلوثت يداه بالشحم والهباب .. ووقف
أمامه بجسده القصير وكتفيه العريضتين كأنه مصارع أو حمال أثقال .
وحياه ببساطة كأن بينهما قديم معرفة وسابق ود .. ورد عليه إبراهيم تحيته
بيرود وقد خيل إليه أنه من عمال الصيانة ..

واستطرد مراد في حديثه بلا مقدمات قائلا :

— لقد استلمت ثلاث دبابات جديدة .. ونريد لها جراجا .. بسرعة ..

ونظر إليه إبراهيم في غيظ :

— من أنت أولا ؟

وضحك مراد ضحكة بدت منها طيبته وأجاب :

— لقد ظننتك تعرفنى .. لأنى أعرفك .. أنا الملازم أول محمود مراد ..

ضابط إمداد آلاى الدبابات ..

— أهلا وسهلا ..

— لقد استلمنا ثلاث دبابات من الجيش الإنجليزى ونريد أن نقيم لها جراجا

في الأرض الكائنة بجوار الميس ..

— اكتبوا خطايا للمصلحة ..

— ليس هناك وقت للخطاب ..

واستمر إبراهيم .. يشرح له بيرود ما يجب عمله ..

— والمصلحة ستحول لنا الخطاب إذا وافقت .. ثم ستجرى مقايسة ..

— لماذا كل هذه الإجراءات المعقدة ؟ ..

- ثم ترفع المقايسة إلى المصلحة .. وعندما توافق عليها .. يكتب إلينا ..
ثم ..
- إننا نريد الجراج حالا .. لا يمكن أن نترك الدبابات تبيت في الطل ..
حتى تجرى أنت مقايستك ..
— هذه هي الأصول ..
— الأصول ألا تترك الدبابات في الخارج .
— إذا أقم أنت لها جراجا بمعرفتك ..
— سأفعل ..
— لماذا إذا أتيت إلي ما دمت قادرا ؟ ..
— كنت حسن الظن بك .. الضابط الذي قبلك كان يفعل لنا كل ما نريد
بمجرد أن نطلبه ..
— كانت فوضى ..
— متشكر ..
— العفو ..
- وخرج مراد غاضبا .. وكان إبراهيم يعرف أنه يستطيع أن يقيم له الجراج
لو أراد .. فلديه من الخامات الوفرة .. ما يستطيع أن يفعل به أكثر من هذا ..
ولكن طريقة دخول مراد عليه .. ولهجة كلامه لم تعجبه ..
ففضل أن يتبع معه الأصول .. ولا يفعل له شيئا .. حتى يعود إلى رجائه
مرة أخرى ..
ولم يعد إليه مراد .. وفي صباح اليوم التالي .. وهو في طريقه إلى مكتبه ..
وجد الجراج مقاما بالعروق الخشبية والسقف الصاج .. وقد أوت الدبابات
الثلاث إليه ..
وذهل إبراهيم ..

وزاد ذهوله عندما دخل إلى ثكناته فإذا بكوم العروق الخشبية المرصوص
بجوار المخازن والملاصق لجدار الفرسان قد تناقص إلى النصف وإذا بالخنزنجي
يقبل عليه مرتجفا لينبهه إلى أن جنود الفرسان قد سطوا على الخشب خلال
الليل ..

وثارت ثائثرته .. فقد أدرك أن ضابط الفرسان قد نفذ تصميمه .. وأخذ
الخشب والصاج وبنى الجراج خلال الليل عنوة واقتدارا ..
واندفع في ثورته إلى رياسة الفرسان .. ليشكو حادث السرقة
والاعتداء ..

وفي طريقة صادف مراد فحياه ضاحكا ..

— صباح الخير ..

— صباح الخير ..

— الجراج عجبك ..

— هذه بلطجة ..

— لتكن .. المهم أن الجراج قد عمل والدبابات لم تبت في العراء ..

— سأهدمه .

— إياك .. لقد أمرت الجنود أن يضرخوا كل من يقترب منه من عمال

الأشغال ..

— لا بد أن نستعيد الأخشاب ..

— ولماذا لا تضع بها المقايسة المطلوبة .. سأسلمك الخطاب الذي تريده

.. وتتخذ أنت إجراءاتك على أقل من مهلك ..

ووضع يده في ذراعه ثم سحبه إلى مكتبه ضاحكا وأردف يقول ..

— تعال .. نشرب فنجانا من القهوة .. ونتفاهم ..

ولم يملك إبراهيم إلا أن يضحك ويسير معه قائلا :

(طريق العودة)

— نحن لا نعيش في ثكنات .. إننا نعيش وسط عصابات .. هذه أول مرة
أسمع فيها .. عن مثل هذا النصب ..
— لأنك مستجد .. عندما تقدم ستسمع كثيرا ..
— هذه آخر مرة أسمع فيها بمثل هذه السرقة ..
— عبيط .. لقد وفرت عليك نقل الأخشاب .. وإقامة الجراج .. ووفرت
عليك الأخذ والعطا بيننا وبين المصلحة .. احمد ربنا ..
وكان مراد على حق .. لقد كان ما فعل .. هو خير طريقة لإقامة الجراج ..
وكانت تلك هي طريقته الدائمة في الحياة .. كان جسورا مندفا ..
مستهترا .. لا يقيم وزنا للشكليات الخلقية أو القيم الموضوعية .. المهم أن يصل
إلى ما يريد .. بأسرع السبل وأيسر الوسائل ..
وقد صادفه بعد ذلك .. في عدة مناسبات .. كانت إحداها معركة في
أتوبيس .. ضرب فيها السائق والكمسارى لأنه لم يقف في المحطة .. رغم خلو
الأتوبيس ووجود ركاب على المحطة ..
ومرة أخرى .. على باب إحدى صالات عماد الدين محاطا بزحام .. بعد
أن أغلق الصالة ..

وثالثة .. ورابعة .. كلها مناسبات تهور وعراك وجرأة واستهتار .
وسمع عنه أنه ضرب أربعة جنود من الجنود الاستراليين أيام الحرب .. حتى
أفقدهم وعيهم .. لأنهم سكرورا وحاولوا اغتصاب إحدى الفتيات في
الطريق ..

و لم يكن هناك سبيل إلى أن تقوم بين الاثنين علاقة وطيدة .. فقد كان
التناقض في خلقهما على أتمه .. ولم تستطع الأقدار أن تجمع بينهما إلا في
ظروف عمل متقطعة كانت تتباعد وتتقارب حسب حاجات العمل ..
حتى انقطعت العلاقة تماما بعد أن نقل هو إلى سلاح المهندسين وسافرت

معظم وحدات الفرسان إلى الحدود الشرقية عندما نشب القتال في فلسطين ..

وعندما لقيه اليوم في القطار .. لم يجد شيئاً به قد تغير .. نفس الجسد العريض القوى .. والقوام الربعة .. والقميص المفتوح الذى يبرز منه شعر صدره المشعث .. والأكام المشمرة التى تكشف عن عضلات ساعديه .. وشاربه الأصفر المنكوش تحت أنفه كأنه شواشى الذرة .. أو كأنه فيونكة صفراء في وجه قطة .. وصوته المرتفع وضحكته العالية الصافية .. وإقباله المندفح الحار المتحمس بسبب وبلا سبب ..

كان تماما .. كما أقبل عليه في مكتبه .. يطلب إنشاء الجراج بسرعة .. لم يتغير به شيء سوى .. اتساع في جبهته نتج عن تساقط بضع شعرات من مقدمة رأسه كانت — مع النحول البادى في مؤخرتها — إيذانا ببدء الصلع ..

ونظر مراد إلى إبراهيم مدققاً ثم قال :

— لم تتغير في شيء .. ما زالت بك نفس النحافة والهدوء ..

— ولا تغيرت أنت .. ما زال بك نفس التحدى والبلطجة ..

— لا .. لقد خشعت كثيراً .. كبرنا يا إبراهيم .. السن عليها معول ..

مضى على بضعة أشهر لم أضرب فيها أحداً .. إلا بواب البيت الذى أنزل فيه في الإسماعيلية .. فقد رقعته علقه طيبة .. على الريق ..

.. لماذا ؟

— ابن هرمه .. مضى على ثلاث ليال .. أغمض عيني في الساعة الثالثة

صباحاً لأفتحهما في الثالثة والنصف .. على صوت صراخ مزعج .. يطرد

النوم من عيني .. وعندما سألت في الصباح علمت أنه بواب العمارة يؤذن

الفجر .. وقد حاولت نصحه .. بالكف عن الأذان بهذه الطريقة المفزعة فقال

لى إنه رجل مؤمن .. وإنه حر فى أن يؤذن كما يشاء .. حاولت أخذه بالحسنى

.. وقلت له إنه حر في أن يؤذن كما يشاء ولكنه ليس حرا في أن يزعم الناس كما يشاء .. وأفهمته أن مهنته بواب وليس مؤذنا .. وقلت له إنه يستطيع إذا حرقه الأذان أن يؤذن في سره .. ولم يرتدع بالطبع .. وفي الليلة الثالثة ازداد أذانه علوا .. وتحديا .. كأنما قد توهم نفسه بلالا بين الكفار .. وهبطت من فراشي بالجلباب .. ورقعته علقه طيبة .. وأفهمته أنه يستطيع أن يتدين .. ويؤذن .. ويجاهد في سبيل الله طول أيام الشهر .. عدا الثلاثة أيام التي أقضيها في الإسماعيلية ..

— ثلاثة أيام؟ .. ألا تحصل إلا على ثلاثة أيام إجازة فقط في الشهر؟

— سبعة .. ثلاثة في القاهرة .. وثلاثة في الإسماعيلية ويوم حرية ..

— ولماذا تقطع الإجازة هكذا؟

— ثلاثة أيام في القاهرة .. للعائلة .. وثلاثة أيام في الإسماعيلية للرفق .. بنت

جميلة عبارة عن لوز مقشر .. ويوم الحرية .. خبص منفرد .. تفارنج وسكر وعربة على ما قسم ..

وبدا مراد في حديثه بسيطا طبيعيا .. كأن المفروض أن تكون للإنسان

عائلة ورفيقة ..

ولم تعجب طريقته في الحديث إبراهيم .. وبدت له انحلالا شائنا .. فقد

كان إبراهيم يحترم نظم المجتمع وشرائعه .. ومبادئه .. وقبوده الخلقية .. كان

يعرف أن الزواج ارتباط أو عقد لا يجب الإخلال به .. ويعرف أن لزوجته

حقوقا عليه يجب صيانتها .. أولها ألا يشرك في حياته غيرها .. وأن يؤدي لها

كل واجب نحوها .. على الوجه الأكمل بقدر ما تمنحه له ظروفه في الحياة ..

وهو يعرف أن هناك زللا .. وأن هناك خطايا .. فهو لم يبلغ به البله إلى حد

تصور الحياة بلا خطايا ..

يعرف أن الرجل يتعرض لشتى الإغراءات في مختلف أدوار حياته .. ولكنه يعرف أيضا أن مقاومة الإغراء واجبة .. وأن إرادة الإنسان يجب أن تقوم بدورها في صد الإغراء .. وصيانة الإنسان من الزلل .. وصدّه عن الخطايا .. وهو يعرف أيضا أن بعض الناس .. لا تقوى إرادتهم على المقاومة .. فيغرقون في الزلل .. والحياة مليئة بالملذنين من كل نوع ..

ولكن الشيء الذى لا يعرفه .. وإن عرفه فهو لا يقره .. هو اتخاذ الزلل قاعدة .. ومباشرة الخطيئة .. على أنها حق طبيعى .. لا داعى لمقاومته ولا ضرورة لصدّه ..

لقد كرهه في مراد اعترافه برفيقته الجميلة وتحديثه عنها بتلك السهولة .. وبنفس الطريقة التى يتحدث بها عن زوجته .. دون أن تكون بينهما صداقة وطيدة تسمح بإفشاء أسرارها بمثل هذه السرعة والسهولة ..
ثلاثة أيام للعائلة .. وثلاثة أيام للرفق .. ويوم للسكر والعريضة ..
هذه وقاحة ..

ومع ذلك .. فقد كان على إبراهيم أن يسلم بها .. ويصمت عنها ..

فما كان لديه من الرغبة والجهد .. ما يدفعه إلى القيام بدور الواعظ .. وما كان يعتقد أنه حتى لو كانت لديه الرغبة والجهد يستطيع أن يدل هذا المخلوق .. ويغير طباعه المستهتره ..

ولم يعلق إبراهيم على قول صاحبه بكلمة .. ولكن مراد لم يخف عليه .. عدم تحمسه .. لحديثه عن الرفق والسكر والعريضة ..

ولم يملك إلا أن يضحك قائلا في شبه اعتذار :

— إذا لم أفعل هذا .. قضى على ..

— وإذا فعلته قضى على مستقبلك ..

- أنا أعرف كيف أفرق بين أوقات العبث وأوقات العمل .. لا أظننى جعلت إحداها تطغى على الأخرى أبدا . إني أعرف حق عملى ..
- وحق زوجتك؟! ..
- أنا لم أقصر في حقها ..
- والرفق؟! ..
- لا دخل لها به .. إنه حقى أنا ..
- أتعرف هى هذا ؟
- تعرف أحيانا .. وتجهل أحيانا ..
- وعندما تعرف ؟
- تغضب ..
- وعندما تغضب ؟
- أرضيها .. أو أتركها حتى ترضى .. هذه هى الحياة .. وهذا هو الزواج ..
- ولم يعجب هذا الكلام إبراهيم .. ولم يعلق عليه ..
- وهز كتفيه كأنما يقول : (لكم دينكم ولى دين) .. وأراد أن يحول دفة الحديث إلى اتجاه آخر فتساءل :
- كيف الحياة فى الميدان؟! ..
- إما ضرب .. أو نوم ..
- وأيهما أمتع؟! ..
- فى رأى أنا .. الضرب .. إن به حركة وحياة ..
- .. وموت؟! ..
- بالنسبة لى لم أجره .. لقد منحته للآخرين ..

— وكيف وجدت منحه ؟ ..
— ممتع عندما تحس أنك تتأثر لمظلوم .. أو تأخذ حق مهضوم الحق ..
ومد إبراهيم ساقيه .. وأغمض عينيه ..
وأحس بما يشبه الغثيان .. ومرة أخرى كره الحديث .. ولم يجد وسيلة
لتجنبه إلا النوم .. أو التظاهر به .. إنه يبغض العنف ويكره الخطأ .. فما باله
بالقتل ..
واستمر القطار يشق طريقه بين رمال الصحراء .. كأنه أفعى تنساب ..

الفصل الثالث

إحساس بالاستقرار

أخذ القطار يقترب من وقفته الأخيرة في محطة العريش .. وبدا البحر ممتدا على اليسار .. في زرقة رائعة .. تتخلل أشجار النخيل الممتدة على طول الشاطئ ..

وأحس إبراهيم بشيء من الانتعاش من زرقة البحر ونسماته الرطبة . ومن خضرة النخيل التي تقطع الرمال الصفراء المترامية على طول الطريق .. وداخل نفسه إحساس المنتهى إلى رحلة استجمام بعد طول مشقة وجهد .. وشعر كأنه مقبل على مصيف هادئ ناء .. حتى توقف القطار في المحطة ولاح لعينيه مظهرها العسكري .. وحجب اللون الكاكي .. الذي بدا في الأبنية المحيطة .. وفي الرمال .. وفي العربات البيك أب ولوريات النقل الرابضة على الرصيف .. وفي ثياب الجنود الذين يملأون ساحتها ويتشرون حولها .. حجب الكاكي في كل مظاهر العسكرية الغالبة .. ما سبق أن لاح لعينيه من زرقة البحر وخضرة النخيل .. ودفع في نفسه إحساسا جديدا — لأول مرة — بأنه لم يهزب تماما من المتاعب .. وأن نقله من القاهرة إلى العريش لا يمكن أن يكون — كما أدخل في روعه — عملية استجمام خالصة .. ألغى بها متاعبه .. ليستلقى في خمول واسترخاء .. بعيدا عن مشاكل المقاولات والعملاء والديون التي أخذت بخناقة ..

إنه سيكون مسئولاً عن عمل .. في ميدان قتال .. حقيقة أنه لن يكون في

الخطوط الأمامية .. ولن يرهق أعصابه بقلاقلها .. وشغبها الدائم .. ومناوشاتها
المستمرة ..

وحقيقة أنه لا يتوقع أن يلقوا به في أتون قتال .. أو يدفعوه في دوريات
داخل خطوط الأعداء ..

ولكنه مع ذلك .. لا يعتقد أيضا .. أنه سيتمدد في فراشه ليتسلى بالقراءة
.. أو يستلقى على الشاطئ .. ليستمتع بأشعة الشمس ..

وهو لا يكره عمله العسكري .. ولا يستثقله .. فقد كان يباشره بسهولة
.. كجزء من روتين حياته .. الذى يؤديه بلا إرهاق ولا تفكير ..

طواير وتدريبات ومحاضرات .. وتفتيشات .. ومشاكل جنود .. ومتاعب
رؤساء .. ولا شيء أكثر من هذا .. وكلها كان يتناولها فى يسر .. ويخلص منها
بلا عناء ..

ولكن الشيء الذى يكرهه — وإن كان لا يخشاه — هو جو القتال .. بما
فيه من توتر .. واضطراب .. وتدمير ..

— كان بطبيعته بناء .. يكره الهدم والتدمير ..

ولم يكن فى هروبه من متاعبه بالقاهرة .. قد فكر قط فى المسألة .. من هذه
الناحية ..

كان كل ما يريد .. هو تصفية مشاكله .. والتخلص من مصروفاته ..
والحصول على مرتب الميدان الذى يستطيع به أن يسوى ديونه ..

وكان يعتبر انتقاله إلى العريش .. انتقالا اقتصاديا بحتا .. حتى يفض
مشاكله المالية .. ثم يعود بعد إلى القاهرة .. لبدء أعماله من جديد .. على
أساس تجربة جديدة ..

لم يطف بذهنه إذن .. الجانب الآخر من المسألة .. الجانب الشاق
المرهق ..

لم يذكر قط .. الملل .. والتوتر .. والاشتباك في قتال .. على أية حال ..
ذكر .. أو لم يذكر .. إنها تجربة لا بد أن يمر بها .. فلن يحل مشاكله سواها ..
وهو — سيحاول جهده — أن يجعلها تمر به في سلام ..
وتوقف القطار تماما في المحطة .. ونظر إبراهيم من النافذة علّ هناك من
ينتظر ..

ولم يتركه مراد يبحث طويلا فقد جذبته من ساعده قائلا :
— إن عربتي في انتظاري .. سأوصلك إلى حيث تريد .. هيا .. وسأرسل
السائق لإحضار حقائبك ..
ولم يجد إبراهيم ما يفعله سوى اتباعه .. فقد كان لا يدرى شيئا عما يفعله
.. ولا كان يعرف أين يذهب .. ولا كيف ..
وجلس مراد في مقعد السائق .. وجلس إبراهيم بجواره واستقر السائق
بجوار الحقائق في الخلف ..

وانطلق مراد بالعربة قائلا :

— ستغدى معي .. وإن كنت لا أعرف بالضبط أين سأغدى أنا ..
— لا ضرورة الآن للغداء .. اذهب بي أولا إلى رئاسة المهندسين .. حتى
أقدم نفسي ..

— ولماذا العجلة .. أتعتقد أن أعمال المهندسين ستعطل إذا لم تلحقها ..
علما بأن المهندسين هنا .. لا يفعلون شيئا ..
— وماذا تفعل الفرسان ؟

— أنا شخصا .. آخذ حمامات شمس .. عندما لا يكون هناك اشتباك ..
— وفي الاشتباك ..

— أجلس في الدبابة .. لأقرأ روايات الجيب ..

— ومتى إذن تتركب عمليات القتل التي تدعيها ..

— عندما تكون الرواية .. بايخة ..
— أنت مهرج ..
— وأنت على نياتك ..
وتوقفت العربية .. أمام مبنى رئاسة المهندسين .. وصاح مراد بالجندي
الحارس الواقف على الباب ..
— يا عسكري !
وجرى العسكري نحوهم ثم وقف محيا :
— أفندم ..
— من عندك من الضباط ؟
— لا أحد يا فندم ..
— والضباط النوبيجي ؟
— ذهب للغداء ..
ونظر مراد إلى إبراهيم :
— ألم أقل لك .. لا ضرورة للعجلة .. هيا بنا أغديك ..
— لا داعي .. أنزلني هنا .. وسأنتظر حتى يحضر أو اذهب لي إليه ..
— يا أخى لا تكن عنيدا .. سأغديك معي .. سنعزم نفسينا في رئاسة
الآلاى .. إنها لا تبعد أكثر من ثلاثة كيلو ..
واندفع مراد مرة أخرى قبل أن يجيب إبراهيم ..
ووقفت العربية أمام ميس رئاسة الآلاى .. وكان أحد الأكشاك التي
خلفها الجيش الإنجليزي وقد أقيمت به بعض تعديلات بسيطة .. ورضت به
بعض الكراسى الأسيوطى وتوسطته منضدة خشبية مستطيلة .
ولم يجد إبراهيم سببا لرفض دعوة مراد للغداء لأنه كان يعام أنه لا بد أن
يتغدى .. وكانت طريقة مراد في الدعوة — كعادته — طريقة مكرهة عنيفة

صاخبة .. يتعذر رفضها .. ولا سيما على شخص هادىء مسالم رقيق ..
كإبراهيم ..

وانتهى الاثنان من الطعام .. وعاد بإبراهيم مرة أخرى إلى رئاسة
المهندسين ، وخرج الضابط النوبتجى .. ليستقبله فى ترحيب وحرارة .
وقضى إبراهيم ليلته مع الضابط النوبتجى .. فى أحداث متقطعة .. عن
الجو والسياسة والحرب .. وفى الصباح .. كان عليه أن يلتقى بقائد المهندسين
ويتسلم سريره ..

انتهى من المقابلات والتسليم قبل الظهر .. ولم يجد هناك شيئاً أكثر مما يتوقع
.. كان العمل تقريباً .. هو العمل الذى تعود أن يقوم به .. وعند الظهر .. دعاه
ضابط السرية القديم لتناول الغداء معه فى بيته ..
وذهب إبراهيم ليرى البيت الذى كان سيقم فيه بعد أن يرحل عنه قائد
السرية القديم .. وعندما رآه .. أحس بالكثير من الراحة . وعاوده مرة أخرى
إحساس .. المقبل على فترة استجمام ممتعة ..

كان إبراهيم بغيريته المعمارية .. شديد الإحساس بالمكان .. أى مكان ..
بينانه .. بجدرانه .. بواجهته .. بمدخله .. بدهانه .. وكان لكل ذلك تأثير
عجيب فى نفسه .. أكثر كثيراً مما قد يحس به الإنسان العادى .. كان يدفع فى
نفسه راحة أو ضيقاً .. طمأنينة أو قلقاً .. كان أشبه بصاحب الأذن الموسيقية
الذى تثيره النغمة النشاز .. ويهدئه اللحن الجيد ..

وقد أحس بمجرد أن أشرف على البيت بأنه لحن جيد وسط عالم من نشاز
الأبتية العسكرية والأكواخ الصاج .. والخيام المتناثرة ..

كان البيت يقع على ربوة رملية تطل على الشاطئ .. بعيداً عن المنطقة
العسكرية .. وقد شيده الجيش الإنجليزى .. ليستعمل مع بعض بيوت أخرى
لضباط المنطقة عند احتلاله لها خلال الحرب الماضية ..

وقد بنى من طابق واحد بالطوب الأحمر والدبش المقسم والسقف الجمالون المصنوع من الأراميد الأحمر .. وقد كسى مدخله بنبات البجمونيا المتسلق ذى الأزهار البرتقالية .. التى هى كانت تبلغ أقصى ازدهارها فى ذلك الوقت من السنة .. وقد رصف مدخله بالبلاط الأبيض الذى يتخلله النخيل الأخضر وأحيط بحديقة تناثرت فيها بعض أشجار الموالح ..

وفوجئ إبراهيم بمظهر البيت وحسن موقعه ..

لم يكن يتخيل قط .. أن هذا هو مأواه فى هذه المنطقة الكاكية الجرداء .. وعندما اجتاز باب البيت .. واجهته صالة رحبة .. بدت فى نهايتها نافذة زجاجية عريضة تطل على البحر .. تبدو بها رنى الرمال وقد تناثر بها النخيل ووراءه البحر والسماء .. حتى ليكاد يظن الناظر إليها لأول وهلة أنها صورة كبيرة متقنة للبحر زين بها الجدار .. وعلى اليمين بدت له مدفأة بسيطة التكوين .. أنيقة المنظر .. بنيت بالطوب الصورناجة الكبير وفى مواجهتها من الجانب الآخر للصالة .. بدا بار فى نصف دائرة رخامية وقد بثت حولها بعض مقاعد حديدية عالية ..

ووقف إبراهيم يقرب البصر فى الصالة فى إعجاب .. وعلق زميله على نظرتة

قائلا :

— بيت لطيف ..

— لطيف .. فقط .. إنه مدهش ..

— ومرح جدا .. يوجد على يمينك حجرتان للنوم .. بينهما حمام .. وعلى اليسار توجد حجرة للطعام متصلة بأوفيس صغير .. ثم بالمطبخ .. لقد عشت وزوجتى وأولادى طوال الصيف .. وكأنا فى أجمل مصايف أوربا .. ولم يرحلوا سوى الآن .. اثنان من الأولاد لديهما ملحق ولا بد أن يؤدوا الامتحان .. تعال أريك بقيته .. إن به حديقة خضار خلفية ..

وتبعه إبراهيم وهو في دهشة من البيت ولم يتالك أن سأل قائلاً :
— وكيف استطعت أن تحصل عليه .. يخيل إلى أنه أجمل بيت في المنطقة
كلها ..

وضحك الزميل وأجاب :

— طباخ السم — كما يقولون — يذوقه .. لقد استلمت مع ضابط الأشغال
كل منشآت الجيش الإنجليزي .. وكان علينا أن نحجز لأنفسنا بيتين ..
فلطشت هذا ولطش هو آخر .. شبيها به .. ولكنه لا يطل على البحر ..
— لقد ضحكت عليه .. فإن الميزة الكبرى في البيت هو هذه النافذة
العريضة المطلة على البحر ..

— ماذا تقول إذن .. لو أنك شاهدتها في الشروق .. إنها تطل على مشرق
الشمس من هذا الجانب .. أترى هذه الربوة العالية .. الكائنة بين مجموعتي
التخيل .. إن الشمس تتسلل من ورائها في الصباح .. بطريقة رائعة ..
— الظاهر أنها رائعة فعلاً .. لأنها جعلت من ضابط المهندسين شاعراً يتغنى
بشروق الشمس .

— لقد كانت ابنتي أول من رآها .. كانت تستيقظ مبكرة من أجل
المذاكرة .. فتصيدت منظرها ..

— وأضاعت الملحق بالطبع ..

— لست أدري ماذا فعلت .. إني أريد أن أتعجل النزول للقاهرة لأطمئن
على حالهم .. لقد تعودوا ألا يذاكروا إلا بوجودي .. وأنت ؟
— ابنتي لم تحتج بعد إلى رقيب .. سادخلها المدرسة لأول مرة هذا
العام ..

— كيف حالها بعد مرض التيفويد ؟

— الحمد لله .. لقد نجت من التيفويد لتسلمها بقية الأمراض التقليدية التي

تصيب كل الأبناء .. سعال ديكى .. وحصبة وبقية اللسنة .
— لماذا لم تحضرها معك ؟
— لم أتخيل المقام مريحا بهذا الشكل .. كنت أخشى أن أبيت في خيم ..
— لقد قلت لك إن هناك بيتا مريحا ..
— ظننتك مبالغا .. وكنت في حالة من الزهقان لا تسمح لي بأن أحمل
نفسى عبء اصطحاب أحد .. وإن كنت أفكر الآن في استدعائها مع أمها
لقضاء أسبوعين قبل دخول المدرسة ..
— إذا أردت .. أحدثها عندما أنزل ..
— سأحدثها أنا في التليفون .. عندما أستقر .. وأدبر أمرى .. أليس
الاتصال سهلا في التليفون ؟
— جدا .. تستطيع أن تطلبها في أى وقت تشاء .. ولا سيما في الصباح
المبكر ..
ومرت بضعة أيام ، استقر إبراهيم خلالها في البيت وجرت الأمور هادئة
حوله .. كان كل شىء على ما يرام والعمل لا يتعدى بضعة أعمال روتينية كان
يستطيع أن يؤديها وهو جالس في البيت ..
وأحس بالطمأنينة والاستقرار وأوضاع الاسترخاء والراحة حالة الضيق
والزهقان .. وبدأ يحس بوحشة إلى ابنته .. وخيل إليه أنها تستطيع مع أمها
الاستمتاع بفترة استجمام قبل أن يحل موعد المدرسة .. ولا سيما أن أزمته هذا
الصيف حرمتها من الاصطيف ..
ودعا زوجته في التليفون للحضور .. وبدأ يجرى بعض التجميلات
والإعدادات لاستقبال الضيفتين .. الأم والابنة .. وملأ نفسه الإحساس بأنه
يدعوها لمصيف .. وليس في ميدان قتال ..

الفصل الرابع

امرأة واجب

وصلت الصغيرة وأمها إلى بيت العريش .. ولم تكن الأم ترحب كثيرا بالسفر .. فقد كانت تجد مدة الإقامة من القصر بحيث لا تستحق عناء السفر ، ولم تكن تحس في قرارة نفسها بأن إبراهيم نفسه ستطول إقامته هناك . فقد كانت أدرى بطبيعته التي تنفر من حياة العسكرية البحتة ، وبمدى تعلقه برسومه ومبانيه وعماراته ومكتبه الفني .. وكانت تعرف تماما أن رحيله إلى الميدان لم يكن أكثر من عملية هروب ، دفعته إليها كثرة المشاكل وفرط اليأس .. واضطراب الأعصاب .. وكانت واثقة أنه لن يستطيع الاستقرار لحظة .. إذا ما هدأت أعصابه .. وضاع قلقه .. وأحس بأن مشاكله حلت .. أو على الأقل تباعدت ..

كانت تعرف أنه لن يطيق حياة الوحدة .. وقد حاولت أن تقنعه بعدم السفر .. وعرضت عليه الحياة مع أهلها حتى تفك أزمته .. وتسوى ديونه .. ولكنه أبقى قائلا : إنه يريد أن يقطع كل علاقة له بأعماله القديمة .. وأنه يريد أن يمضي فترة استجمام طويلة تهدأ فيها أعصابه .. ويستعيد فيها ثقته بنفسه .. ويحسن حالته المالية .. حتى يستطيع أن يبدأ مرة ثانية من جديد ..

ولم تجد بدا من التسليم بما يريد .. فهي تعرف أن مناقشته لا تجدى نفعا .. فهو دائما يفعل ما يريد .. وهي تلتزم حد النصح ولا تتعداه إلى المناقشة أو الإصرار .. وهي أميل إلى الهدوء والصمت وعدم التدخل فيما لا يعنينا ، ولو كان الأمر بيدها لما تركته يخرج عن دائرة عمله العسكري قيد أنملة ..

كانت تعتبر أن في عمله كضابط مهندس في الجيش كل الكفاية .. كانت تكره الطموح والمغامرة .. وتحب الاستقرار والأمن والسلامة .. وعندما أنشأ مكتبه الفنى .. هزت كنفها في استخفاف كأنما تتركه يلهو ويتسلى .. فلما أصاب نجاحا اعتبرته من باب المصادفة وحسن الحظ .. وعندما بدأ أعمال المقاولات نصحته بعدم الإقدام على المغامرة .. وبأن هذا ليس عمله .. فلم يأبه لها كعادته .. فلما انهارت أعماله ومنى بالفشل .. لم تنزعج .. ولم تشمت فيه .. ولم تلمه .. بل حاولت أن تعينه بكل ما تملك .. وبكل ما استطاعت أن تحصل عليه من أبيها وأمها ..

كانت امرأة واجب أكثر منها امرأة شعور .. كانت بطيئة الانفعال ولكنها قوية الإدراك ..

لم تهمل قط واجبها نحوه .. ونحو ابنته .. ولكن حسب ما تفهمه هي .. الفهم التقليدى الأصولى : وجبات جيدة في موعدها .. بيت نظيف مرتب يجد به على كل شىء في موضعه ..

ولكنه لم يكن يفهم الحياة على أنها أصول .. وقواعد .. بل كان يعرف أن الأصول هي ما يحلو للإنسان .. وأن القواعد هي ما يريجه .. حتى في فنه المعمارى كان يكره التقيد بالأصول والقواعد .. وكان يفعل ما يحس أنه الواجب .. لا ما اصطلح الغير على أنه واجب .. كان جريئا في تصميماته إلى الحد الذى يديه شاذا ..

وكان ذلك هو نقطة الخلاف بينهما ، ومحور التنافر .. ولم يكن خلافاهما وتنافرهما يتخذان أبدا مظهرها جادا .. أو شكلا واضحا .. لأن كلا منهما كان رقيقا بطبعه .. أميل إلى الهدوء والمسالمة .. كما كان كل منهما يحس بحاجته إلى الآخر .. وواجبه نحوه ..

لم يبلغ بينهما الخلاف أبدا حد الصدام .. فقد كان كل منهما ينتحى

ليفسح للآخر طريقه .. دون أن يصطدم به .. ودون أن يغير هو اتجاهه .. كان الخلاف داخلها مستورا بحجب الحاجة ، وحجب الواجب ، وحجب الائتلاف التقليدي اللاشعوري بين أسرة طيبة .
كانت هي مثلا ترى أن فتجان الشاي لا يشرب أبدا بأكثر من قطعتين من السكر ، وكانت عندما تعد له الشاي تضع له قطعتين .. فإذا ما جلسا إلى المائدة سألتها :

— وضعت السكر في الشاي ؟

وتجيب باقتضاب :

— أجل .

ويذوقه .. ثم يضيف قطعتين آخرين .. كان لا يتذوق الشاي إلا بأربع قطع .

وكانت هي تجد أن الأصول أن تضع له السكر في الشاي ، وألا تضع أكثر من قطعتين ، وكانت تعرف أنه لا يشرب إلا بأربع قطع ، ولكنها لم تجاربه أبدا .

ولم يحاول هو منعها أو نهرها . كان يتركها تضع قطعتين ، ثم يسألها هل وضعت السكر .. ثم يضيف قطعتين آخرين .

وكان ذلك المثل هو نموذج لحياتهما .. خلاف بلا صدام ، تنافر بلا عراك . كانت تجد أن الأصول أن يخرج في الشتاء مرتديا البالطو .. وفي كل صباح تخرج له البالطو من الدولاب لتضعه على المقعد .. بجوار بقية ملابسه .. وكان هو يرتدي كل ملابسه .. ثم يخرج بدون البالطو .. ولم يقل لها أبدا لا تخرجي البالطو .. ولم تكف هي أبدا عن إخراجه .. ولا ضاق أحدهما ذرعا بالآخر ..

لم يحدث الصدام بينهما .. لأن كلا منهما كان يعرف حدوده .. وكان

هناك شبه اتفاق لتقسيم السلطات بينهما .. كان تنظيم البيت من حقها .. وكان عمله من حقه .. لا يملك أحدهما من وسيلة للتدخل إلا مجرد النصح .. وفي النواحي المشتركة .. لم يصل الخلاف لحد الصدام ، لأن كلا منهما كان متزنا .. معقولا .. مسالما ..

وعندما دعاها للسفر إلى العريش . لم تتوان عن السفر لحظة واحدة .. كانت تعرف أن المدرسة لم يبق عليها سوى أسبوعين .. وأن هناك إجراءات قد تستدعى وجودها هي والطفلة بالقاهرة في ذلك الوقت .. ولكنها كانت تعرف أنه قد طلب منها أن تسافر .. وأن واجبها أن تلبى طلبه .. وأن تكون بجواره ما دام يريد ذلك .. وعندما يحين وقت المدرسة تستطيع أن تعود ثانية ..

ووقف بها القطار في محطة العريش.. بعد سفر طويل .. لم تجد القراءة أو التريكو أو مناكفات نادية ومناقشاتنا في إضاعة ملله .. وهبطت من القطار بقوامها الطويل الذى منحها بعض الانحناءة .. وقد لفت إشارب حول رأسها .. وبدا وجهها بسمرتة ، وحاجباها الثقيلان ، وأنفها الدقيق ، وشفثاها الرقيقتان ، وبملاحة خليط من رقة الأنوثة وحزم الرجولة .. واندفعت نادية تعدو إلى أبيها .. فتلقفها بين يديه وضمها إلى صدره .. وقال لها وهو يطرها بالقبلات :

— أهلا .. أهلا .. حبيبتي نادية .. انت واحشه بابا جدا ..

وأجابت نادية على ترحيبه بسؤالها :

— حضرت لى جردل وكوريك .. ماما رفضت أن تحضرهما لى ؟

— سأحضر لك كل شىء ..

وأقبلت مديحة .. وشدت على يد إبراهيم قائلة :

— كيف حالك ؟ .. وحشتنا بضعة الأيام التى غبتنا عنا ..

— وأنتما أيضا .. لقد أتعبكما المشوار .. ولكنك ستجدين الجو والبيت
يستحقان عناء السفر ..
وتساءلت نادية :
— بابا .. أين البحر .. لقد أحضرت المايوه الأزرق ..
— سنذهب الآن إلى البيت .. ثم نعود سويا ..
وهنا تدخلت الأم لأداء واجبها :
— لن تستطيع النزول إلى الماء .. لأن عندها مبادئ زكام .. وكحة ..
— ستضيع الشمس والشاطئ وهواء البحر كل هذا .. لا تخافي ، هيا بنا
يا نادية ..
وانطلقت بهم العربة .. حتى وقفت أمام البيت .. واندفعت نادية تعدو في
الحديقة .. وصاحت الأم بها :
— إياك أن تذهبي إلى البحر ..
وأجاب إبراهيم مطمئنا :
— لا تخشى شيئا .. إن السور محيط بالحديقة .. والباب الخلفي المؤدى
للبحر مغلق ..
وألقت مديحة نظرة عامة على البيت .. ووقف إبراهيم يرقب تأثير البيت
عليها .. ثم تعجل رأيها متسائلا :
— ها .. ما رأيك ؟
وبطبيعتها غير المنفعلة .. وبأسلوبها المتحفظ أجابت :
— لطيف ..
ولم تكن الكلمة كافية في نظر إبراهيم ، فجرها من ذراعها إلى الداخل
قائلا :
— إنه من الداخل ألطف .. ستجدين به كل شيء .. ما رأيك في المدفأة ..

والبار ؟

ثم توقف بها أمام النافذة العريضة المطلة على البحر .. متسائلا في إعجاب :
— وما رأيك في هذا المنظر ؟

وبنفس اللهجة غير المتحمسة أجابت :
— لطيف ..

— لطيف فقط ؟

ولم تجب عليه .. فقد صاحت بنادية التي كانت تعدو في الحديقة :
— نادية .. كفى جريا .. ستعرقين .. ثم يلفحك الهواء .. هذا هو الذى
يسبب لك البرد ..

— يا ستى اتركها تلعب .. هنا على الشاطئ^٤ لا يصاب الإنسان بالبرد ..
واستمرت الأم تصيح :
— نادية ..

وهز إبراهيم كتفيه في استخفاف .. لقد كانت صحبة نادية خارج حدود
سلطاته .. ولم يكن يملك فيها سوى النصيح .. ثم الصمت ..
ولم يحاول مرة أخرى أن يلفت نظر زوجته إلى مزايا البيت .. وتركها
تكتشف ما يحلو لها اكتشافه ..

وبدأت مديحة تباشر سلطاتها في البيت ، غيرت نظام المقاعد .. وبدلت
حجرة بحجرة .. ولم يعترض إبراهيم ما دامت لم تمس حجرتة .. وتركها ترتع
في تعديل البيت كما تشاء .. واختلى بنادية في حجرتة يرسمان سويا خطط اللعب
والعوم ..

ودق التليفون . فانطلقت نادية للرد .. فقد كان الرد على التليفون ضمن
هو اياتها المحببة ..

وانتزعت أمها السماعة قائلة :

— مائة مرة قلت لك لا تمسكى سماعة التليفون ..

— أفندم ..

وأجابها صوت يطلب إبراهيم ..

وأقبل إبراهيم على التليفون وهو يتمتم في ضيق :

— سخافة من سخافاتهم .. عسكري ضرب آخر .. أو اللحمة لم تحضر

بعد .. ماذا سأصنع لهم .. لقد قلت لهم لا تتصلوا بي بعد الظهر أبدا ..

وأمسك بالسماعة وتساءل في غضب :

— فيه إيه ؟

وأجابه صوت يضحك قائلاً :

— ومالك محموق هكذا ؟

وضحك إبراهيم وأجاب :

— أهلا وسهلا يا فندم .. لقد ظننتها سخافة من سخافات القشلاق .

— اطمئن .. وهذه المرة سخافة من سخافات المحافظة ..

— أنا في الخدمة يا فندم ..

— أولا قبل أن أبدأ الحديث .. من صاحب الصوت الحرىمى الذى رد

على ؟

— اطمئن .. إنه صوت العائلة ..

— متى حضروا ؟

— اليوم ..

— حمدا لله على سلامتهم .. متى ستزوروننا ؟

— عندما نهذا ونستقر .. وننتهى من عملية إعادة تنظيم البيت ..

— ومتى تنتهى تلك العملية ؟

— الله أعلم .. قد تنتهى بعد انتهاء الحرب ..

- اسمع لا تمزح .. لماذا لا تزوروننا الليلة ؟
- غير معقول .. لن نقبل زيارة أحد قبل أسبوع .. عندما تشفى نادية من الزكام ..
- قل لها فريدة تريدك .. وهى ستقبل فى الحال .. إنها معرفة قديمة .. منذ أن كانوا يقطنون سويا فى المنيرة ..
- حاضر سأبلغها ..
- ورفع إبراهيم السماعة عن أذنه ..
- ثم صاح بزوجته :
- فريدة تريدك ..
- ونظرت إليه مديحة فى دهشة وتساءلت :
- فريدة من ؟
- زوجة البكباشى عبد الرحمن ..
- وصاحت زوجته بأقصى ما تملكه طبيعتها الباردة من حماس وانفعال :
- فريدة صادق .. ماذا أحضرها إلى هنا ؟
- زوجها وكيل المحافظ ..
- عجيبة .. لم يكن لدى أقل فكرة عن وجودها .. إننا أصدقاء منذ الصغر عندما كنا نقطن فى المنيرة ..
- مفهوم .. مفهوم .. هل تريدان الذهاب ؟
- لا مانع ..
- ورفع إبراهيم السماعة إلى أذنه .. وقال باختصار :
- أو .. كيه .. الزيارة مقبولة يا فندم ..
- وسمع صوتا نسائيا يتحدث بجوار صاحبه .. ثم سمع صاحبه يقول :

— ٤٠ —

— إنها تريد أن تحدثها ..

وصاح بزوجه :

— تفضلي كلمي .. صديقة الصبا ..

وانهمكت الصاحبتان في الحديث .. وعاد إبراهيم إلى اللعب مع ابنته ..

الفصل الخامس

كان لى

ذهب إبراهيم ومديحة لزيارة البكياشى عبد الرحمن وكيل المحافظة وزوجته ، وقد اصطحبا معهما نادية .. ولم يكن البيت يعد كثيرا عن بيت إبراهيم .. وكان من الطراز العتيق السميك الجدران ، العالى السقف ، الفسيح الحجرات ، يحيط به النخيل وأشجار الزيتون ..

واستقبلت المضيضة ضيفتها بترحاب شديد .. وانهمكت وإياها فى حديث طويل عن عائلتهما وذكرياتهما .. وجلس إبراهيم مع عبد الرحمن بتبادلان الآراء عن القيادة الجديدة وإسرائيل واللاجئين وموضوعات شتى ..

وجلست نادية تلهو مع بنات عبد الرحمن ببعض الدمى .. وعلى مقربة منهن جلست فناة فى نحو الرابعة عشرة ترقبهم فى صمت حزين .. وقد بدا عليها سيماء الشرود .. وكان وجهها رقيق الملامح دقيق التقاطيع قد بدت به صفرة وهزال .. وفرق شعرها الأسود الناعم فى منتصف رأسها الصغير ثم جدل فى ضفيرة طويلة تهدلت على ظهرها .. واستقرت يداها متشابكتين فى حجرها .. وانحنى كتفاها ومال رأسها حتى استقر ذقنها على صدرها ..

ولم يطل المقام بهم طويلا حتى أخذت الظلمة تنتشر .. وأحست مديحة بإقبال الليل عندما أضيبت أنوار البيت .. وبدا عليها القلق وتلفتت حولها تنادى نادية ..

وأجابتها صديقتها مطمئنة :

— أنها تلعب مع ميرفت وهناء ..

- لقد حان الوقت للرحيل ..
— كيف ؟ .. إننا سنتعشى سويا ..
— غير ممكن ..
— غير ممكن أن تذهبوا الآن .. إننا لم نجلس معا بعد .. ماذا ستفعلين في البيت ؟
— إن نادية متعبة من السفر .. ولا بد أن تنام ..
— دعها تنام وقتا تشاء .. ونستطيع أن نحملها إلى البيت عندما يحين وقت العودة ..
— أخشى أن يلفحها الهواء .. ولديها مبادئ زكام .. لقد كان يجب على ألا أحضرها .. ولكن لم أستطع تركها في البيت وحدها .. لأنني لم أحضر الخادمة .. لقد وجدت مدة البقاء لا تستحق .. ولكن يبدو أنني سأجد بعض العناية بدونها .. على الأقل من أجل مراعاة نادية ..
— أستطيع أن أعيرك خادمتي في هذه الفترة ..
— وأنت ؟
— اطمئني .. يمكنني أن أتحمل بدونها ..
— غير معقول .. ليس مفروضا أن أحضر لأضيافك ..
— قلت لك إنني أستطيع الاستغناء عنها مؤقتا .. فخذها ..
— لا .. لا .. إن المسألة لا تستحق ..
— إذن فخذني نهي .. عليها تساعدك وتسليك بعض الشيء ..
— نهي .. من ؟
— فتاة فلسطينية من نابلس فقدت ذويها بعد اعتداء اليهود على العرب وطردهم من أراضيهم .. وقد لقيتها وحيدة في أحد معسكرات اللاجئين وتبينت فيها الطيبة والهدوء ، فأنسيت إليها وسألتها أن تعيش معنا .. عليها تونس

وحدثني وترعى معى شئون البيت والأولاد ..
ولم يد كثير تحمس على مديحة لقبول صحبة الفتاة .. كانت تجد أن مدة
البقاء لن تتجاوز أسبوعين .. يمكن قضاؤها — على حد قولها — بالطول
أو بالعرض .. ولم تجد هناك مبررا لأن تسبب من أجلها إزعاجا لأحد .. ولم
تأبه صاحبة البيت لتردها ونادت الفتاة قائلة :

— نهى .. نهى ..

ثم التفتت إلى مديحة وأردفت :

— سأريك إياها .. ستعجبك ..

— لا داعى لإفلاق نفسك .. وإفلاق الفتاة .. إن المسألة لا تستحق ..

— ليس هناك إفلاق لأحد .. ستجدينها ودودة طيبة .. وستأنين عشرتها

بسرعة ..

وأقبلت الفتاة .. بهيكلها الهزيل الرقيق .. وعينها السوداوين الواسعتين ..
وثيابها البسيطة النظيفة التى لم تزد على جلباب من الكستور وصدىرى من
الصوف البنى طويل الأكام .. وبدا جسدها طويلا نحىلا بلا امتلاء أو استدارة
أنثوية .. اللهم إلا ارتفاع منبسط لا يكاد يلحظ عند الصدر ..

ووقفت نهى فى حياء أمام الزائرة .. وقد خفضت بصرها بعد أن ألفت على

السيدة نظرة فاحصة سريعة ..

وقالت صاحبة البيت تقدمها إلى مديحة :

— سلمى يا نهى على مديحة هاتم ..

وتقدمت الفتاة ومدت يدها إلى مديحة مصافحة .. واستمرت صاحبة

البيت فى حديثها :

— ستمكث مديحة هاتم أسبوعين هى وابنتها نادية .. حتى يحل موعد

المدارس .. وقد أتت من القاهرة وحدها .. أتخمين أن تؤنسها خلال بقائها

في العريش ..

و لم يبد على ملامح نهى أى تعبير .. لا ترحيب .. ولا اعتراض .. وأومأت
برأسها إيماءة خفيفة وأجابت في استسلام الذى لا يملك من أمره شيئا ..
— أمرك ..

— إذن فابقى مع الأولاد حتى يحين وقت العودة لتذهبى معهم ..
وعقبت مديحة على قولها وهى تنهض قائلة :
— لقد حان وقت العودة ..

ثم نظرت إلى إبراهيم الذى جلس في آخر الحجرة .. يرقب عبد الرحمن وهو
يرمى حجارة الطاولة ليستعينا بها على قضاء الوقت بعد أن أفرغا كل ما في
جعبتهما من حديث معاد ..

ونادته مديحة ..

— هيا .. بنا ..

وصاح عبد الرحمن :

— إلى أين ؟

— إلى البيت ..

— إلى البيت ؟! ما زال الوقت مبكرا جدا .. لقد كنت أنوى أن آخذكم

إلى السينا .. ثم نتعشى معا ..

— سينا .. وعشاء .. مرة واحدة ..

— أقل ما فيها .. لا بد أن نكرمكم ..

— لنؤجلها إلى ليلة أخرى .. نحن متعبون من السفر .. ولا بد أن أذهب

.. لأعشى نادية وأنومها ..

— إذن دعى لى إبراهيم .. إن بيننا ثارا لا بد أن آخذه ..

ونفض إبراهيم وهو يغلق الطاولة قائلا :

— إذا كان على الثأر .. فيمكنك أن تأخذه في ليلة أخرى .. وإن كنت واثقا أنك لن تأخذه أبدا ..

وسار الأربعة تجاه الخارج ومديحة تنادى ابنتها ..

ونادت صاحبة البيت نهى ثم وجهت الحديث لزوجها قائلة :

— ستذهب نهى معهم لتؤنس مديحة وتعاونها طيلة مدة إقامتها ..

وأجاب إبراهيم معترضا في دهشة :

— لا داعى لإفلاق أنفسكم أبدا ..

وأيدته مديحة قائلة :

— لقد قلت لها هذا ..

واعترض عبد الرحمن :

— أى إفلاق يا أخى .. إننا لا نحتاج إليها .. وهى ستفعلكم .. هيا يا نهى ..

وتقدمت نهى .. وقد أمسكت بيد نادية .. ونظرت إلى صاحبة البيت فى شىء من التردد وأدركت السيدة ما يدور فى خلدتها فأجابتها :

— سأرسل لك ما تحتاجين إليه من ملابس فى الصباح .. وتستطيعين أن تستأذنى من مديحة هائم إذا أردت الحضور لأى شىء .. وعلى أية حال .. سنكون كلنا معا دائما ..

وقبل أن يتحرك الركب .. رفعت نادية ذراعها إلى أبيها بحركتها التقليدية قائلة :

— بابا .. احملنى ..

وقبل أن يمد إبراهيم يديه لرفعها كانت نهى قد حملتها .. وحاول إبراهيم أخذها قائلا فى رفق :

— دعها لى .. إنى متعود على حملها ..

ولم تدعها نهى وأجابت فى هدوء :

— ٤٦ —

— أنا أيضا تعودت على حمل أختي مى ..
ونظرت إلى نادية ووجهت إليها القول :
— أتحين أن أحملك يا نادية ..

ونظرت إليها الصغيرة نظرة فاحصة ثم أطرقت برأسها موافقة ، وسارت
العائلة إلى البيت وقد حملت نهى نادية .. والصغيرة لا تفتأ .. توجه من آن
لآخر أسعلتها الساذجة :

— هل ستنامين معنا ؟ ..
— أجل ..
— وستبقين معنا دائما ؟
— إن شاء الله ..
— وعندما نعود إلى مصر .. هل ستعودين معنا ؟
— لا ..
— ولماذا ؟ ..
— لأنى سأبقى هنا ..
— له ؟
— لأنه .. لأنه ليس لى مكان الآن غير هنا ..
— لأن هذه بلدك ؟ ..
— لأنها قريبة من بلدى ..
— وأين بلدك ؟
— هناك ..
— هناك أين ؟
— .. فى فلسطين ..

- ولماذا لا تذهبين إليها ..؟
— لا أستطيع ..؟
— ولماذا لا تستطيعين ..؟
وترددت نهى برهة وتدخل إبراهيم محاولاً إسكات نادية بقوله :
— نادية .. كفى رغي ..
و لم تأبه نادية لاعتراضه واستمرت متسائلة :
— لماذا لا تستطيعين الذهاب إلى بلدك ؟
— لأن اليهود أخذوها ..
— وكيف أخذوها ؟ ..
— بالقوة .. ضربونا وطرّدونا .. وأخذوها ..
— ولماذا لم تضربوهم أنتم .. ألم يكن معكم عصا ؟ ..
— كان معنا عصا .. وكان معهم مدفع .. والمدفع يغلب العصا ..
— ولماذا لم يكن معكم مدفع ..
ومرة أخرى حاول الأب أن يتدخل فقال ناهراً نادية :
— نادية يا حبيبتى .. لقد أصبحت لتاة جدا .. اصمتى لحظة .. لقد
.أوجعت دماغنا ..
أجابته متسائلة :
— باب .. لماذا لا تعطى نهى .. مدفعا .. لتطرد اليهود من بيتهم ؟ ..
— سنعطئها .. وسنذهب معها كلنا لنطرد اليهود .. مبسوطه ؟ ..
و كأن نادية لم تثق فى قول أبيها فعادت تؤكد لنهاى :
— عندما أعود إلى مصر سأشترى لك مدفعا وأرسله لك لتضربى اليهود
.. وتعودى إلى بيتك ..

— ٤٨ —

- متشكرة يا حبيبتى ..
- هل تعرفين كيف تعودين إليه .. أم تضلين ويأخذك العسكرى إلى القسم؟ ..
- إذا كان معى مدفع .. فلن أضل أبدا .. سيكون طريق العودة .. إلى بيتى .. واضحا ..
- هل المدفع يضىء الطريق ؟
- المدفع يظلم طريق السلام .. ويضىء طريق العدوان ..
- أتسكنين فى شارع العدوان ؟ .. لقد كنا نسكن فى شارع العدوى ..
- لماذا لا تعزلين من شارع العدوان ؟
- لأن العالم كله عدوان ..
- إذن سأرسل لك مدافع كثيرة .. وعندما تضربين اليهود وتعودين إلى بيتك .. هل آتى إليك ؟ ..
- طبعاً ..
- وإذا ضللت .. وأخذنى العسكرى إلى القسم ؟ ..
- لن تضللى ..
- هل سأتى معى بمدفع ؟ لينير لى الطريق ..
- لن تكون هناك ضرورة للمدفع .. سيكون الطريق بعدما أعود .. طريق سلام ..
- ماذا سيضيئه لى ؟
- يضيئه ابتسامتك الحلوة ..
- أنت تكذبين على إن ابتسامتى لا تضىء شيئاً .. هه .. أنظرى .. وانفرجت شفتا نادية عن ابتسامة واسعة .. بدت من خلالها أسنانها

الصغيرة ..

وضحكت الأم وقال الأب مقهقها :

— يا نهي .. لا تأخذى معها وتعطى .. إنها متعبة وحديثها لا ينتهى أبدا ..

واستمرت نادية تتساءل فى عناد :

— لماذا لم تضىء ابتسامتى الطريق ؟

وأجابت نهي وهى تضمها فى رفق :

— لقد أضاءت شيئا أكثر من الطريق .. لقد أضاءت قلبى ..

— أنا لا أريد أن أضىء قلبك .. إنى أريد أن أضىء الطريق ..

— عندما تأتىن إلتى .. سيكون الطريق إلى بيتى .. طريق السلام .. وطريق

السلام .. تشرق فيه الابتسامة وتضيئه المحبة .. وستجدىن به الورود ..

وأغصان الزيتون ..

— والجبنة !؟

ومرة أخرى انفجر الأب ضاحكا ..

وتلفتت نادية فى دهشة من ضحكه وقالت موضحة :

— أنا أحب الجبنة أكثر من الزيتون ..

وضحكت نهي وربت على ظهرها فى رفق قائلة :

— عندما أعود إلى بيتنا .. سأعد لك الجبنة .. التى تحببها .. كانت لى عنزة

صغيرة .. وكان لنا كرم .. على السفح .. تهدل عناقده .. وكانت لنا بئر

وسط الحقل .. نسقى منها أشجار البرتقال والليمون .. وكنت أرقب مشرق

الشمس من وراء ربوة الكرم .. وكنت أسمع زقزقة العصافير .. وكنت أملأ

الجرار من البئر .. وكنت أعدو بين الأشجار .. كانت الحياة جميلة .. وكنت

أحس الطمأنينة والسلام .

— ٥٠ —

وصمتت نهى برهة .. وعادت نادية تستحثها :

— وماذا كان هناك أيضا .. احكى لى ..

— كان لى أخت جميلة أحملها كما أحملك .. وكان لى أم .. وكان لى أب ..

— وأين ذهبوا ؟

— لست أدري .. قتلهم اليهود .. أم شردوهم .. لقد فقدتهم جميعا ..

وران الصمت برهة .. واقتربوا من باب البيت .. وقبل أن يدخلوا هتفت

نادية :

— أنا أكره اليهود ..

تمتت نهى والظلمة تخفى دموعا تفرقت فى مآقيا .. « وأنا أيضا » ..

الفصل السادس

أنى أعرفه جيدا

مرت بضعة أيام ونهى تعيش بين العائلة الصغيرة .. وقد أحسنت للبيت وللعائلة .. بشعور من الراحة والاستقرار .. ونما بينها وبين نادبة نوع من الألفة والود .. بعث الطمأنينة فى نفس الأم نحوها .. وزاد من إحساس الأب بالعطف عليها ..

كانت مخلوقة وديعة طيبة مسالمة .. تظل على حالها فى الوداعة والسكون .. حتى يطوف بها ذكر إسرائيل . والوطن المسلوب .. والأهل الصرعى .. فتلدغها شوكة المرارة والحقد والأسى .. وإذا بأعصابها قد شدت كأنها هرة قد تقوس ظهرها ..

واستطاعت الألفة والود اللذان أحيطت بهما من أفراد العائلة الثلاثة أن يخرجها من انطوائها .. ويقللا من شرورها .. فبدأ إقبالها على العمل فى البيت .. وعلى العناية بنادية ..

ولكنها مع ذلك ظلت على حال من الشرود لم تستطع الألفة أن تمحوه .. كانت تنطلق من البيت أحيانا .. دون أن يعرف لها اتجاه أو مقر .. فلا تعود إلا خائرة منهوكة القوى .. وكانوا يستيقظون فى كثير من الأحيان فلا يجدونها .. وقد أزعجهم قيامها فى بادىء الأمر .. وسألوا عنها عبد الرحمن وزوجته .. فعرفوا أنها لم تذهب إلى بيتها .. وعرفوا كذلك .. أن غيابها أمر تعودوا عليه ، وأنها تهيم شاردة ، ثم لا تلبث أن تعود حين يدر كها التعب ..

و استيقظ إبراهيم ذات يوم مبكرا .. والشمس لم تشرق بعد فقد كان عليه

أن يذهب إلى رفح .. لملاحظة ما يحتاج إليه الطريق من عمليات الإصلاح ..
ولمراقبة بعض أعمال المهندسين ، التي تحتم وجوده لنزول زميله المشرف على
تلك المنطقة إلى القاهرة ..

وغادر حجرة نومه متجها إلى الحمام مارا بالصالة .. وهو يسترق الخطى
حتى لا يوقظ أهل البيت في هذه الساعة المبكرة .. فإذا به يجد شيئا قد التصق
بالنافذة العريضة الزجاجية المطللة على البحر .. ولم يستطع أن يميز منه
إلا خطوطه الخارجية التي تحدد هيكله .. فقد كان ملتصقا بالزجاج .. وكانت
وقفته في طريق الضوء المنبعث من النافذة قد حجبت بقية تفاصيله ..

وعرف في الشبح نهي .. وهم بسؤالها عما أيقظها في هذه الساعة المبكرة
.. وعما أوقفها هكذا مسمرة في النافذة .. ولكنه لم يشأ مضايقتها وكان قد
تعود منها أوضاع الشرود .. والهيمان .. فاكتفى بأن يلقي إليها تحية مقتضبة
قائلا :

— صباح الخير ..

ودون أن يسمع ردها استمر في طريقه إلى الحمام ..

وانتهى من الخلاقة والاعتسال .. وفي طريقه إلى حجرتة .. وجد نهي
لا تزال في وقتها كالتثال ، وكان الضوء قد أخذ في الانتشار ، وطلعت الشروق
الأرجوانية قد بدت من بعيد على حافة الأفق .. واقترب منها ومس كتفها برفق
فأصابها رجفة ، ورفعت إليه رأسها ذا الفرق ووجهها النحيل الدقيق ..
وبدت في عينيها الواسعتين السوداوين دمعتان قد انحدرتا حتى بللتا زاويتي
شفتيها .. فمدت طرف لسانها تلعقهما في صمت ..

وأحس إبراهيم من دموعها الصامتة المنحدرة على طرف لسانها بشيء
يعتصر جوفه .. ولم يملك نفسه من أن يربت على ظهرها في رفق ويسألها
السؤال التقليدي .. الذي يدرك هو إجابته :

— ما بالك يا نهي ..

— لا شيء ..

— ما الذى أيقظك مبكرة .. وأوقفك هذه الرقفة ..

— لأرغب مشرق الشمس من وراء الربوة .. انظر . لقد بدأت تظهر ..

ونظر إبراهيم فإذا بالمنظر الذى سبق أن وصفه له صاحبه قد بدا من خلال

النافذة ..

ففى أقصى اليمين بدت الربوة وقد حد حافتها صفان من النخيل .. ومن

بين صفى النخيل .. ومن وراء الربوة .. بدأ القرص الأرجوانى الصافى الملتهب

يبدو رويدا .. رويدا ..

أخذت الفتاة تتمم كأنها تحدث نفسها :

— هذا هو الطريق .. هذا درى .. وتلك ربوتى .. ومن ورائها كانت

الشمس تشرق دائما لتضىء الحقل والبيت والكروم .. لو سرت إليها ..

لوصلت .. إلى هناك ..

وصممت برهة .. وهى تتطلع إلى الشمس المشرقة فى لهفة وما لبثت أن

أطرقت فى حزن وأردفت تقول :

ولكنى عندما أذهب لأسير على الدرب .. أجدها قد تصاعدت .. وأحد

طريق العودة قد ضاع .. والحلم قد تبدد .. ولا أعود أجد فى طريقى غير قفر

فى قفر .. ورمال فوق رمال .. فأعود مكروبة بائسة ..

— لهذا يجب أن تكفى عن الخروج والهيمان وحدك .. فأنت تعرفين أن

عودتك الآن مستحيلة ..

— ولكنى سأعود يوما إلى هناك .. من نفس هذا الطريق .. إنى أعرفه

جيذا .. بالربوة فى آخره .. والشمس المشرقة من ورائه . سنعود جميعا إلى

دورنا مرة أخرى .. إلى حقولنا .. ودروبنا .. وربانا .. أليس كذلك ..

لا يمكن أن يستمر هذا الظلم .. لا يمكن أن تسلب أرضنا وأشجارنا وسماؤنا .. وهواؤنا .. وشمسنا .. إن هذا لا يرضى الله ..

وتتم إبراهيم في شبه ذهول :

— ولا حتى .. الشيطان ..

ثم جرها من يدها قائلا :

— أجل .. لا بد أن تعودوا .. يوما .. كل شيء يمكن أن يسلب في هذا العالم إلا الوطن .. وكل شيء يمكن أن يعتاد ويستمر إلا الظلم ومرارته .. وتركت نهي النافذة .. وعادت إلى داخل البيت ولسانها ما زال يلحق السائل المالح الساخن المنساب على زاويتي شفتيها ..

وعاد إبراهيم إلى حجرتة .. وانتهى من ارتداء ملابسه .. وفي رأسه ما يشبه الطنين ..

لقد أخرجته الفتاة من ذاتية تفكيره .. ومن عزلة المحيط الذي يعيش في نطاقه ..

كان إبراهيم .. مخلوقا جادا مخلصا .. قويم الخلق .. سليم المبادئ .. ولكنه كان يحصر نفسه وتفكيره واهتمامه في دائرة ضيقة محيطها عمله وحياته الخاصة .. ولم يكن اهتمامه ليتعدى أبدا محيط أعماله ورسومه ومنشأته ومقاولاته .. بكل ما فيها من مشاكل وبحوث وتطورات .. يضاف إليها أعماله في الجيش .. ومطالب البيت وزوجته ونادية .. لم يكن يأبه كثيرا لأبناء السياسة الداخلية وتشكيل الوزارات والأحزاب .. ولا أبناء مشاكل الدول والتيارات التي تتجاذبها .. إلا بالقدر الذي يتأثر به محيطه الداخلي .. والذي قد يرفع سعر الحديد أو يخفضه .. ويبيح الاستيراد أو يمنعه ..

ولم يكن يحس بالمشاكل العامة .. إلا بقدر تأثيرها على محيطه الخاص .. ولم تنل مشكلة فلسطين من تفكيره أو إحساسه .. إلا بالقدر الذي تناله مآسى

الغير التي نمر على عناوينها بالصحف .. فتمصص شفاهنا أو نهر رؤوسنا أسفا .. ثم نجتازها إلى مشاكلنا الخاصة العادية التي تكتظ بها حياتنا .. وعندما بدأت الحرب ضد إسرائيل .. لم يحاول أن يكون لنفسه رأيا فيها .. في ضرورتها .. وفي المقدرة على خوضها .. وفي نتائجها المحتملة .. بل سلم بالمسألة كإجراء من إجراءات الدولة العامة التي عليها أن تتحمل مسئوليتها .. والتي لا يمكن أن تقدم عليها إلا بعد استكمال دراستها من كل الوجوه .. والتي لا تهم شخصه إلا إذا تحتم عليه بحكم عمله أن يقوم بدور محدد فيها .. لم يكن من طبيعته الانفعال بالأحداث العامة .. أو المشاركة في حماس المجاميع .. بل كان تأثره فرديا بحتا .. ما لنفسه أو للغير .. فهو يتأثر بالمشكلة العامة .. إذا انعكست على شخصه .. أو على شخص غيره مما يمكن أن يحس به إحساسا مباشرا ..

فهو لا يكره الحرب .. أو يتأثر بها .. كإجراء عام بعيد عن محيطه .. ولكنها تمس نفسه .. إذا أبصر أثرها في شخص قريب منها .. وهو من أجل ذلك .. لم يحس بمشكلة فلسطين .. ولا أثر في نفسه كل ما قرأ عنها .. ولا أحس بأن عليه واجبا نحوها . ولا خطر بياله قط أن يتطوع مع الفدائيين الذين تطوعوا للدفاع عنها .. بل كان يجد التطوع لمثل هذه الأشياء .. عملا لا يقدم عليه إلا الذين برؤوسهم هوس الحماس والانفعال وحب البطولة .. وإنه ما دام يعيش في دولة نظامية .. فإن على الدولة أن تنظم أعمال الأفراد بحيث توجه كلا منهم إلى ما تحتاج إليه منه .. وكان يسلم بواجبه نحو الدولة وطاعته لها .. وكان يشعر في قرارة نفسه .. أنه سينفذ كل ما يطلب منه .. وسينتظم في أي وضع تجدد الدولة أنه أفيد لها فيه ..

وإذا كان قد تعجل السفر إلى الميدان .. فلم يكن التعجل مبعثه أبدا .. اللهمفة على أخذ دوره في القتال .. أو الحماس لفلسطين .. لأنه لم يحس بلهفة

ولا حماس .. ولكنه كان فقط مسلما بأنه عندما يحين دوره .. سيتقدم إليه
ببساطة ورضاء .. كما يتقدم لتنفيذ أية عملية من عمليات المقاولات التي سبق
أن أقدم عليها .. أو كما يخرج إلى أى طاوور من طوابير الثكنات ..
تلك كانت نفسيته .. حتى لقي الفتاة الهزيلة ذات العينين الواسعتين ..
وحتى أبصر دموعها الصامته الحارة تنساب على طرفي شفيتها .. وأحس
بالمراة التي تملأ نفسها وبالضياح الذي تحس به ..
لقد تركزت المشكلة العامة .. التي لم يكن يحس بها .. في فرد يراه ..
ويحس بآلامه .. فمست شغاف قلبه .. وهزت أوتاره ..
ولأول مرة أحس .. بأنه هنا .. ليحارب إسرائيل .. وليشارك بمجهوده في
فتح طريق العودة الذي تتطلع إليه هي والآلاف المشردون عن أرضهم
ووطنهم ..
لقد أحس بالمشكلة .. كمسألة خاصة .. بفرد قريب منه .. ضائع شريد
.. يئن في صمت .. ويتوجع في يأس ..
ولكنه لم يعرف للمشكلة حلا .. كانت معلوماته عنها مهزوزة عائمة ..
لأنه لم يحاول أن يدخل في محيطها من قبل ..
إن هناك قوات من الجيش تقف مواجهة لقوات العدوان الإسرائيلية ..
وواجبها لا شك هو سحق هذه القوات .. وفتح طريق العودة .. للمشردين
عن أوطانهم ..
ولكن ما هي قدرة القوات .. وطبيعة الخطط .. وما هي فرص النجاح ..
كل هذا يجهله .. فهو منذ أن أتى إلى هنا لا يعرف إلا أن واجبه هو أن يؤدي
خدمات المهندسين للقوات التي تقف متأهبة للقتال .. ولا شيء أكثر من
ذلك ..
هو لا يعرف شيئا عن العدو .. ولا عن القتال .. ولا يعرف شيئا عن

المراحل التي مر بها .. والمراحل التي يحتمل أن يسير فيها ..
وغادر إبراهيم البيت .. وسارت به العربة تهب الطريق إلى رفح .. وفي
طريقه .. كان يمر بجنود في خيام .. أو في خنادق .. وبعبريات ومدافع
ودبابات ..
لم يكن يعرف شيئا عن دورها .. ولا كان يستطيع أن يميز بين وضع هذه
ووضع تلك .. ولا كانت لديه أقل فكرة عن مواقع قواتهم وتوزيعها .. أو عن
مواقع إسرائيل ..
كان يسير في الطريق .. كأنه يسير في طريق الإسكندرية الصحراوى ..
لا يكاد يعي شيئا مما يحيط به من أسرار عسكرية ..
ومرت بذهنه الفتاة .. الواقفة وراء الزجاج .. ترقب خلال دموعها ..
طريق العودة .. والشمس تتصاعد من وراء الربوة بين صفى النخيل ..
وأحس بضياها .. وبدا له الطريق .. طويلا .. باهتا .. سراى النهاية ..
ضائع المعالم ..
وأحس بالمشكلة .. فسيحة الأركان .. معقدة الخيوط .. وبدا له مدى
عجزه .. عن أن يعين الفتاة بحل مشكلتها .. كمسألة عامة .. معلقة بظروف
هو أعجز حتى عن فهمها .. بله المساهمة فيها .. فإن أقصى ما يستطيع فعله
كعمل إيجابى .. هو أن يأخذ سلاحا ويتقدم به إلى مواقع إسرائيل .. حيث
الكروم والحقول .. وهو عمل جنونى خيالى .. لن يؤدى إلا إلى مصرعه .
ولكنه مع ذلك يستطيع أن يحل مشكلتها كشيء خاص بها .. فإذا كانت
عودتها إلى وطنها .. قد تعذرت أو استحالت فهو يستطيع أن يجعل لها من بين
وطننا .. ومن نفسه أبا ..
إنه يستطيع أن يعينها .. كفرد .. بمشاعره وحنانه وعطفه ..
وأحس إبراهيم ببعض الراحة .. عندما انتهى إلى حل فردى فى تناول يده

.. لمشكلة عامة .. يعجز عن فهمها والتصرف فيها ..
ووقفت به العربية أمام رئاسة القوة في رفح .. وهبط من العربية إلى الكشك
الصاج الذي استقر فيه الأركان حرب ..
وقبل أن يجتاز الباب سمع صوتا يصيح به مرحبا :
— أهلا .. إبراهيم ..
وأبصر مراد بصدره المفتوح .. وشاربه الأصفر المنفوش يتقدم إليه ثم
يصافحه ويجره إليه ويعانقه ..
وكان إبراهيم يكره العناق .. ولم يكن يحس بشيء من الوحشة تدعوه إلى
تبادل العناق مع مراد .. ولكنه لم يملك إلا التسليم به .. فقد فرض مراد عليه
العناق فرضا ..
واستمر مراد في ترحيبه الصاخب وثرثرته العالية :
— ماذا أتى بك إلى هنا .. إني ذاهب إلى العريش وكنت أتوى أن أزورك
اليوم .. لقد دعوت نفسي إلى الغداء عندك ..
— وأنا على استعداد لإطعامك .. لوجه الله ..
— لا تنفع الدعوة .. فقد أضعتها بمجيبك إلى هنا .. إني سأؤجل ذهابي إلى
العريش .. وأدعوك أنا للغداء ..
— ولكنني لن أبقى للغداء .. إن المسألة لن تستغرق أكثر من نصف ساعة
.. أو ساعة على الأكثر ..
— إذن أنتظرك حتى نعود سويا إلى العريش ..
— اتفقنا .. أين ألك ؟ ..
— كما تشاء .. إني سأقابل قائد القوة .. ثم أذهب إلى السرية .. وأمر على
بعض المواقع .. ثم أعود إلى رياستي .. لأنتظرك هناك .. إني أدعوك إلى فنجان
من الشاي سأصنعه لك .. أنظر هل ترى الفنتاس القائم على يمينك .. خذ

زاوية ٣٠ درجة .. أترى التبة التي هناك في اتجاه كودية الحشيش .. سر ..
— اسمع .. ليس لدى وقت لأسمع كل هذا الوصف .. بتاقص فنجان شاي
.. سأنتظرك هنا بعد ساعة ..

— كنت أريد أن أريك بعض .. معاكسات مع اليهود .. حاجة على
الماشي ..

— لا ضرورة لذلك .. وإلا تأقى الطوبية في المعطوبة ..
— أمرك .. ليس لك في الطيب نصيب .. كنت أريد أن أجلسك .. في
الأبارتمان الفاخر .. الذى أنشأته داخل الدبابة .. لقد فتحت له نافذتين ..
إحداهما على البحرى .. والثانية .. قبلى للشمس ..

— مرة أخرى .. يكون لدى وقت ، سأزورك .. لأجرى لك بعض
التعديلات المعمارية .. من يدري .. يمكن أن أفتح لك دبابتين على بعض ..
— مشروع غير معقول .. ليس لدينا من الدبابات ما يسمح بهذا ..

— كم لديكم من الدبابات ..؟
— قال يا جحا .. عد غنمك .. واحدة نائمة .. والثانية يرضه نائمة ..
— أنت مشنعاقي .. حتى على سلاحك ..
— خليبها على الله .. سلام عليكم .. سأحضر إليك بعد ساعة ..

الفصل السابع

حياة بلا حساب

انتهى إبراهيم من أعماله في رفح قبل أن تنتهى الساعة ، وذهب إلى مكتب الأركان حرب لانتظار مراد ..

وأقبل مراد بعربته يصيح بصوته الصاخب :

— ها .. انتهيت ..

— أجل ..

— إذن تعال معى فى عربتى ودع عربتك تأتى وراءنا ..

وانطلق مراد بعربته الجيب ينهب الطريق فى سرعة خارقة ، وقد جلس إبراهيم بجواره مثبتا بصره على عداد السرعة ، والعداد يتحرك رويدا رويدا فى اتجاه الزيادة ، وهو يحاول أن يمسك أعصابه ، وأن يترك لمراد فرصة كافية للحمق حتى يهدأ من تلقاء نفسه ، فلما رأى إصرار مراد على السرعة الجنونية رفع بصره إليه وقال له بأقصى ما يستطيع من هدوء :

— ألدريك موعد فى العريش ؟

وهز مراد كتفيه وهو مستمر فى سرعته .. وأجاب وعيناه إلى الطريق :

— أبدا ..

— ألدريك فكرة أن لدى موعدا هناك ؟

والنفث مراد إليه فى دهشة متسائلا :

— كيف أعرف ..

وزغده إبراهيم فى كتفه ناهرا :

— أنظر أمامك ..

وعندما تأكد أن مراد أعاد عينيه إلى الطريق ، قال في لهجته الهادئة :

— ما دمت واثقا أنه ليس لديك موعد .. وما دمت لاتعرف أتي على موعد

.. فلماذا إذن هذه السرعة الجنونية ؟

— أنا تعودت دائما ألا أسير أقل من هذا .. حتى ولو كنت في غير

عجلة ..

— ولكنني لم أتعود هذه السرعة .. حتى ولو كنت في عجلة ..

— يجب أن تتعوّدها .. ما دمت تتركب معي ..

— إذن .. أرجوك أن تقف .. وتدعني أركب عربتي .. لأنني لا أريد أن

أتعود حماقاتك أبدا .. مفهوم ؟

— مفهوم يا فندم !

وبدأ مراد يهدىء السرعة .. وتساءل في سخرية :

— أتعجبك هذه السرعة ؟

— أجل ..

واستمر في سخريته .. وهو يتلفت ..

— يا سلام .. طريق عامر .. يستحق النزهة .. هل تريد أن أبطيء أكثر ..

لترى الغاديات الرائحات .. وتملأ نظرك من أردافهن ؟

— أهذا كل ما يلفت نظرك في الطريق .. وما يلزمك السرعة المعقولة ..

— لا .. بالطبع .. يلفت نظري .. الرمال ، وكوديات الحشيش ،

والأجساد الكاكية العجفاء ، والجمال ، والمعيز .. يا سلام .. انظر هذا الكلب

.. تغزل !

وتباطأ مراد حتى كاد يقف بجوار الكلب ..

ونهره إبراهيم بقوله :

— كفى عبثا .. وسر .. أليس لديك وسط .. إما أن تسير بسرعتك
الجنونية أو تقف .. أتظن كل غرضك من الطريق هو البصبة ؟
— لماذا أتمهل إذن ؟
— من أجل حياتك ..
— حياتي !
ثم اندفع مقهقها .. وأردف يقول وهو يغنى :
— حياتي انت .. ما ليش غيرك .. وفايتنى لمن ..
وهز إبراهيم رأسه ومصمص شفثيه وتمم قائلا :
— مهرج ..

ونظر إليه مراد وهو يضحك قائلا :

— حياتي يا أستاذ .. لا وجود لها في مشروعاتي .. ولا حساب لها في
تصرفاتي .. ليس من شأنى أن تنتهى أو لا تنتهى .. إن هذا من شأن غيرى ..
من شأن هذا الجالس فوقنا .. إنه المتصرف فيها .. ينهبها أو ييقبها .. هذا أمره
وحده .. فلماذا أحشر نفسى فيه .. أنا أسرع .. وأغامر .. وأحارب .. مادام
هو مبقيا لى حياتى .. وما دام إنهاؤها لم يحن فى برنامجى بعد .. فإذا ما قرر
إنهاءها .. فسينهبها بالطريقة التى تحلو له .. لا التى تحلو لى .. فقد أسرع وأقلب
العربة .. ولا ينهبها .. وقد أغامر وأحارب ، وأعرض لسلاح العدو ..
ولا ينهبها .. ثم ينهبها ببساطة .. بسلاح جيليت مثلا .. يصينى جرح من
موسى الخلاقة وأنا أحلق .. فيتسخ الجرح ويتسمم ، وأصاب بفرغرينا ..
وأموت ..

— يا سلام على الأفكار ..

— لماذا تسخر .. إن لى صديقا من دفعنى مات هكذا .. فلماذا تستعصى
على حياتى نهاية كهذه .. أو حتى أبسط من هذه .. لا سلاح ولا غيره ..

جرثومة تيفويد مثلاً .. لا راحت ولا جت ! .. إن انتهاء حياتي ليس من شأنى .. فلا يجب أن أقيم لها وزناً فى تصرفاتى ..

— إنهاء حياتك ليس من شأنك .. ولكن المحافظة عليها من شأنك ..

— كلام فارغ .. كيف أملك المحافظة على شىء .. لا أملك منع دماره .. أو تحطيمه .. بل حتى لا أعرف سر كيانه .. ووجوده .. أو بقاءه ..

ونظر إليه وتساءل فى سخرية :

— هل اقتنعت .. أسرع .. أم ما زلت تريد المحافظة على حياتك ..؟

— إنى أريد المحافظة على عقلى .. إن لنا بيوتاً وأولاداً ..

— ولهم جميعاً رب .. ألا تؤمن به ؟

— أومن به .. بطريقة تحتم تعاونى معه ..

— وأنا أومن به بطريقة تحتم توكلى عليه .. أنا أترك له كل أمرى يدبره كما يشاء .. أنا إذن أشد منك إيماناً به وثقة فيه ..

وعاد ينظر إليه مبتسماً فى خبث وهو يتساءل :

— ها .. أسرع ؟ .

وضغط على دواسة البنزين وانطلق فى جنون وهو يصيح ضاحكاً :

— إن الله معنا .. إنى أحس أنه قد دبر لى نهاية أفضل من عربة مقلوبة ..

نهاية بها شىء من البطولة ..

— أنت مجنون بطولة .. إن شاء الله ستنتهى كما انتهى بطل توفيق الحكيم فى قصة « عرف كيف يموت » ..

— وكيف مات ؟

— فى بكبورت ..

— إخص .. فال الله ولا فالك .. وقال توفيق الحكيم .. إنى سأريه كيف أموت .. سأعلم أدياننا كيف يكتبون موت الأبطال ..

- وكانت العربية قد أشرفت على نهاية الطريق واقتربت من قشلاق المهندسين
فهتف إبراهيم بمراد :
- بس .. هنا .. أنزلنى من فضلك .. أرهم أنت كيف يموت الأبطال ..
فأنا لا أريد أن أرى أحدا عرَّضًا لطرق الموت ..
- ألا تحب ميتة الأبطال ؟
- بل أفضل عليها حياتى ..
- وقفز إبراهيم من العربية .. وهو يقول :
- أنتظرنى فى العربية .. أم تأتى معى إلى المكتب ؟
- أستغيب طويلا ؟
- ليس أكثر من ربع ساعة ..
- إذن فساذهب إلى رئاسة الآلاى وألحق بك فى الميس ..
- أى ميس ؟
- ميس المهندسين .. ألم نتفق على أنك ستغدينى ؟
- سأغديك فى البيت .. أكلة بيتى ترى على جتتك ..
- أسكنت فى بيت ..
- طبعًا .. قائد سرية مهندسى العريش بحاله ولا يسكن فى بيت ..!
- لا بد أنه بيت من الصاج كالكشك الذى نبيت فيه .. إلى أفضل أن
أبيت تحت المشمع ولا أبيت فيه .. إنه محرق فى الصيف ..
- يا أستاذ بيت من الصاج إيه ؟ .. سأريك البيوت على أصولها .. أنه بيت
بمدفأة وبار ..
- مرة واحدة؟! .. والبار عامر ؟ ..
- سأعمره لك .. ماذا تريد ؟
- لا أشرب على الغداء غير بيرة مثلجة ..

— سأحضرها لك ..

— وأنا سأكون عندك بعد ربع ساعة ..

واندفع بعربته بنفس السرعة الجنونية .. مثيرا وراءه سحباً من الغبار
ودخان البنزين ..

ودلف إبراهيم إلى مكتبه ، وقبل أن يبدأ في إنجاز أعماله رفع سماعة التليفون
قائلاً :

— أعطني البيت ..

ورد عليه صوت نادية :

— ألو .. مين حضرتك ..

وقبل أن يجيب كانت الأم قد اختطففت السماعة من يدها .. وسمع صوت
صياحها ثم سمع صوت مديحة يتساءل :

— ألو ..

— أنا إبراهيم .. أنا عزمت اليوزباشى مراد على الغداء ..

— ولماذا لم تخبرني في الصباح حتى أعمل ترتيبى ؟

— لأنى لم أقابله إلا اليوم ..

— إذن فكان عليك أن تدعوه باكراً حتى تعطينى فرصة ..

— لقد أتى هو اليوم إلى العريش .. ولم أكن أستطيع أن أقول له تعال غدا
حتى أعطى زوجتى فرصة .. لقد سبق أن دعانى إلى الغداء ولا بد أن أرد له
العزومة ..

— كنت تستطيع ..

— مديحة .. أرجوك .. ليس هناك مبرر للمناقشة .. لقد دعوته وانتهى
الأمر .. ونستطيع أن نأكل أى شىء .. فليست المسألة استعراض كرم .. إنها
رد دعوة .. مفهوم ..

(طريق العودة)

— حاضر ..

ووضع كل منهما الساعة في وقت واحد .. وعاد كل منهما إلى هدوئه
كأن لم تحدث بينهما مناقشة ..
ونادت مديحة العسكري الطباخ .. وأصدرت إليه أوامرها بخصوص
الضيف قائلة :

— لقد دعا اليه ضيفا للغداء .. اشو اللحم الكستليتة الموجودة عندك ..
وأعمل طبق سلطة خضار .. وإذا لم يكن هناك فاكهة ..
— لقد اشتريت التين .. ولدينا عنب ..
— كفاية ..

وعادت مديحة في سكون إلى مقعدها في شرفة الحديقة لتعمل في صديري
تريكو من أجل نادية ، وأقبلت نهي تتساءل بعد أن سمعت أوامر مديحة
للطباخ :

— أضع نمره جديدة على المائدة !
— أجل ..

وذهبت نهي لتعد المائدة .. وتغير زهور الزهرية .. ووراءها نادية تابعها
متسائلة :

— لماذا تضعين هذا الطبق ؟

— لدينا ضيف ..

— من هو ؟

— لا أعرف ..

— هل سأكل معه ؟

— كما تريد ..

— أريد أن آكل معك في الحديقة ..

- نستأذن من ماما أولا ..
— لن نأكل إذن ..
— لماذا ؟
— لأنها ستقول لك لا .. نادية تبرد .. انتظري حتى يأكلوا هم ثم نتسلل
معا إلى الحديقة ..
— لا .. هذا عيب .. يجب أن نستأذنها أولا .. وهى ستوافق ..
وارتفع صوت الأم منادية :
— نادية البسى البلوفر .. لكيلا تبردى ..
وقالت نادية لنهى :
— مبسوطه .. ألم أقل لك .. دائما تقول إني سأبرد ..
— لأنها تحبك وتخاف عليك ..
— ولكن بابا يحبني ولا يضايقني كما تضايقني هي .. أنا أحب أن أسمع كلام
بابا ..
— ويجب أيضا تسمعي كلام ماما ..
— لماذا ؟ ..
— لأن ماما هي التي تجلس معك .. أما هو فيذهب إلى عمله .. ومن أجل
هذا يجب أن تسمعي كلامها أيضا ..
وسمع صوت عربة تقف عند الباب ، وقفز إبراهيم من العربة ووراءه
مراد ..
ووقف مراد يتطلع إلى البيت في إعجاب متسائلا :
— أهذا بيتك ؟
— طبعا ..
— ما شاء الله .. إذن فأين ينزل قائد القوة ؟

— أدخل .. حتى تراه من الداخل ..

وأقبلت مديحة على الضيف مرحة .. ومن ورائها نادية ونهى .. وقام إبراهيم بواجب التعريف .. وتبادل الاثنان بعض ألفاظ التحية .. ودلفوا إلى البيت ومراد يحمق فيما حوله .. قائلاً :

— عجيبة .. لم يكن لدى أقل فكرة أنه يوجد في العريش مثل هذا البيت .. لقد مضى على سنة كاملة وأنا أنتقل بين الخيام وأكشاك الصباح .. والمشمعات .. لقد طلبت زوجتي أن أحضرها لتمضى جزءاً من الصيف هنا .. فلم أعرف أين أنزلها ..

وأجابت مديحة من باب الجمالة :

— البيت تحت أمرك .. تستطيع أن تدعوها للنزول معنا ..

وفكر مراد برهة ثم أجاب :

— والله فكرة .. نمضى بضعة أسابيع ..

و لم يعلق إبراهيم على قوله باعتبار أنه مجرد كلام .. ولكن مراد عاد يتساءل :

— ولكن هل لديكم حجرات فاضية ؟

ووجدت مديحة نفسها أمام أمر واقع فأجابت مجاملة :

— نستطيع أن نفضى غرفة أو غرفتين ..

— غرفة واحدة تكفى .. إنى سأرسل فى استدعائها حالا .. إنى أستطيع

أن أحضر كل يوم لأبيت هنا ..

.. وبدا أن مراد قد أخذ المسألة مأخذ الجد ..

و لم يستطع كل من إبراهيم أو مديحة أن يتراجع فى دعوته ..

وأجابت مديحة الإجابة التى لا مفر منها :

— تنزلون على الرحب والسعة ..

وقال مراد في تردد :

— ولكن أخشى أن نضايقكم ..

ورد إبراهيم :

— بالعكس .. إن مديحة تقضى طيلة اليوم وحدها .. ولا شك أن زوجتك

ستسليها في بضعة الأسابيع التي ستقضيها هنا قبل موعد المدارس ..

— إذا كانت المسألة ليس فيها مضايقة لكم فسأدعوها .. أين التليفون ؟

وأرشده إبراهيم إلى التليفون .. فرفع السماعة قائلاً :

— أعطني مصر — ٦٠٢١٠ — أنا اليوزباشى محمود مراد من الفرسان ..

وأجاب العامل أن الخط مشغول ..

فرد :

— بمجرد أن يفضى أعطه لى ..

وسار إبراهيم بجوار مراد يعرض عليه البيت .. وهمس مراد ضاحكا :

— فرصة .. نوفر مشوار القاهرة .. ونكتفى بإجازة الإسماعيلية .

ونظر إليه إبراهيم في دهشة وتساءل :

— أستدعوها .. لكى تذهب أنت إلى الإسماعيلية ؟

— ولم لا ؟ أنا لدى مأمورية في الإسماعيلية ، وهى ستسلى مع السيدة

حربكم .. ماذا فى ذلك ؟

وهز إبراهيم كتفيه فى دهشة وهو يسائل نفسه : أى مخلوق هذا ؟

الفصل الثامن

هزة مفاجئة

لبت زوجة مراد دعوته .. وفي اليوم التالي كان يقف مع إبراهيم لاستقبالها في المحطة .. ولم يكن إبراهيم يحس في قرارة نفسه بحماس شديد لاستقبال الضيفة الجديدة .. إذ لم تكن صلته بمراد من القوة بحيث ترفع الكلفة بطريقة تجعل إقامتهما معا سهلة مريحة .. ولا كان مراد نفسه المخلوق الذى تستحب صحبته وتسهل عشرته .. ولم يتعود إبراهيم من قبل أن يعيش مع أسرة أخرى في بيت واحد .. وقد كان هو وزوجته أقرب إلى الانطواء .. فكانا محدودى المعارف .. قليلى الأصدقاء .. ولم تكن هناك سابق معرفة بين زوجته وزوجة مراد ، بحيث يمكن أن تألف صحبتها .. وترتاح إلى عشرتها .. من كل ناحية .. لم يكن هناك ما يبعث على الارتياح للشركة الجديدة في المسكن .. وكانت المسألة لا تتعدى نوعا من التورط الذى لا يمكن دفعه .. تماما كعناق مراد عند التحية .. الذى يفرضه عليه بقوة الذراعين .. وفرط المرح والبشاشة والصفاء ..

لقد فرض مراد عليهم دعوته .. بطريقته الهللية .. البسيطة .. ولم يكن في الأمر غضاضة .. إذ كان بطبيعته لا يحس كلفة لأحد ..

ولو كان هو صاحب البيت لما ضايقه أبدا .. أن ينزل معه إبراهيم .. وعشرة ضباط آخرين بعائلاتهم .. دون أن يتعب نفسه كثيرا في تدبير أمرهم .. وإيوائهم وإطعامهم .. كان يعتقد أن كل هذه أشياء لن يستعصى تدبيرها .. فمن وراء عجزه إذا عجز — ككل شىء يقدم عليه — رب مديبر مشغول قدير

على كل شيء ..

وكان على إبراهيم وزوجته أن يقبلا الصحبة .. كفرض لا راد له ..
إلا بالخشونة وقلة الذوق .. وقد كانا من الرقة والأدب بحيث يفضلان قبول
المشكلة والرضوخ للورطة .. عن دفعها .. بالخشونة .. وردها بالجليطة ..
وأصبح عليهما أن يدبرا أمر الضيفين كأفضل ما يكون التدبير .. حتى يمن الله
عليهما بالخلاص ..

ولم يكن التدبير المادى بالأمر العسير .. فقد استطاعا أن يفسحا لهما مكانا
.. بأن ينضم إبراهيم إلى زوجته في حجرة واحدة .. ولم يكن الطعام يدخل في
حساب المشكلات .. فقد كانت وفرته تكفى لقبول أكثر من الضيفين ..
أما العسير فقد كان التدبير المعنوى .. وهو ترويض النفس على قبول
الصحبة الجديدة .. التى فرضت ، ليس لبضع ساعات من اليوم .. أو بضعة
أيام من الأسبوع .. بل صحبة دائمة .. طيلة الأيام .. وطيلة الأسبوع
أو الأسابيع التى يحتمل أن يقضيها معهم ..

ووقف إبراهيم يرقب القطار وقد بدا شبحه ينساب من بعد .. وأخذت
ضحته وصفيره .. يعلوان رويداً رويداً .. ووجد نفسه يتخيل الصيفة القادمة
برغمه .. كزوجها .. مهياصة .. مهادرة .. مستهتره .. ولم يدر كيف يمكن
أن تقع من نفس زوجته .. هل ستحملها وتروض نفسها على عشرتها ؟ ..
لم لا ؟ .. إن زوجته تعرف كيف تأخذ الناس على علاتهم .. إنها
لا تصطدم ولا تنثور أبداً .. ولكنها تكره الإهمال والقذارة .. وإذا كانت زوجة
مراد فى مثل إهماله واستهتاره .. فلن يكون التفاهم بينهما سهلاً .. ولن تكون
الألفة ميسورة ..

ولكن لماذا يشغل نفسه ويثقل على ذهنه .. بمثل هذه الافتراضات .. إن
المسألة كلها لن تزيد على أسابيع ..

ثم .. من يدري ؟ قد تكون المخلوقة نفسها محتملة .. وقد تراح إليها زوجته .. فتؤنس وحشتها وتسلى وحدتها ؟ ..
ووصل القطار إلى المحطة .. واستمر يتهادى حتى توقف تماما .. وأخذ مراد يفحص النوافذ .. ثم اندفع إلى إحداها صائحا في مرح :
— هاى .. ليلى ..

وتبعه إبراهيم ببصره .. حتى استقر أمام النافذة .. وأخذ يرقبه وهو يصافح اليد التي امتدت إليه من النافذة .. وبيزها مرحبا ثم تلفت وراءه باحثا عنه ..
وصاح به :
— إبراهيم ..

وتقدم إبراهيم .. وعيناه مثبتتان في الوجه الذي أطل من النافذة وقد أرتسمت على شفثيه ابتسامة رقيقة ..
وأحس من الوجه .. بما يشبه الهزة .. لم يدر مبعثها بالضبط .. أم هي هزة مفاجئة .. أم هزة إعجاب .. أم نشوة .. أم إنذار وتحذير .. أم كانت كلها معها ..

أما عن المفاجأة .. فقد كانت أمرا لا شك فيه .. فهو لم يتوقع قط أن تكون زوجة مراد .. التي يتحدث عنها بتلك الطريقة الماجنة .. والتي يحاول دائما أن يتسلى عنها برفيقة دائمة .. والتي يعتبرها في حياته مجرد سد خيانة .. والتي يراها عبئا عليه يقيد حريره .. وينغص عيشه .. لم يتوقع قط أن تكون الزوجة التي يصنعها مراد بمثل هذه الأوصاف .. هي صاحبة هذا الوجه العجيب .. الذى لا يمكن أن يوحى بغير السكينة والهدوء ..

وكان وجهها بلا رتوش ولا أصباغ .. أشبه بوجوه الراهبات أو الأطفال .. ولم تكن جاذبيته ناتجة عن فتنة .. أو إثارة .. وإنما كانت عن رقة ونعومة وطيبة ..

كان جميلا جمال البحيرة الزرقاء الصافية الساكنة .. أو جمال الرقيقة
الوادعة ..

كان الوجه عاجي اللون .. لا يكسو بياضه غير سواد الحاجبين وظلال
الرمشين وحمرة غير صارخة في شفتين رقيقتين .. ولم تكن بالعينين سعة ..
وإنما كانتا مشروطتين في ضيق يزداد مع الابتسامة حتى تكاد الحدقتان
الخضراوان تحتضنهما الرموش المطبقة .. وأسنان بيض منظمة تجعل البسمة
أجمل ما يمنحه الوجه .. من تعابير .. يحيط بكل ذلك هالة من الشعر الأسود
الناعم الذى شوشته ريح القطار فترامت بعض خصلاته في إهمال لتقطع بياض
الجبين ..

تلك كانت تفاصيل الوجه .. ولم يبصر إبراهيم بالطبع كل الدقائق ..
ولكنه .. أخذ بالوجه في جملة .. وبشئ خاص من تلك الدقائق أحس به من
أول مرة .. مس بها الوجه إحساسه .. وهو اقتران الشعر الأسود بالعينين
الخضراوين .. لقد كان ذلك هو أول عناصر الهزة التى أصابته .. بلا إرادة
ولا تفكير .. فقد كان اقتران اللونين فى وجه .. من أشد دوافع إحساسه
بالجمال ..

وقبل أن يصل إلى النافذة .. وقبل أن يمد يده ليلقى اليد الممدودة لمصافحته
.. أصابته الهزة الثانية .. هزة الإحساس بالذنب .. الناتجة عن إحساسه بالهزة
الأولى .. هزة المتعة المفاجئة .. والنشوة اللاإرادية التى أصابته كما تصبىة طلقة
ليس له من تجنبها مفر .. وبدأ لنفسه مذنباً .. لمجرد الرضوخ .. لهذا التأثير الممتع
.. ولمجرد الاستسلام لشعور النشوة .. من مصدر محرم .. وفى جملة ظروف
لا يمكن أن يسمح واحد منها .. بمجرد قبول الإحساس ..

وتصافحت الأيدي .. وبين ألفاظ التعارف التى انطلقت من فم مراد
الصاحب .. نشبت معركة سريعة خفية فى باطن إبراهيم بين استمتاعه باليد

الرخصة والبسمة الجميلة .. ومقاومته لإحساس المذنب .. الذى لم يتعود قط
أن يكون مذنباً ..

وتغلب إحساس المقاومة .. واستطاع إبراهيم أن يطرد في حزم وسرعة كل
شعور في باطنه إلا شعور المضيف والضيف ..
وبادل الضيفة ابتسامتها قاتلاً في ترحيب :
— أهلاً وسهلاً .. شرفت العريش ..

وتلقى مراد حقية زوجته .. واختفت هى من النافذة وتحرك الاثنان
ليستقبلاها من باب القطار .. واتجه ثلاثهم ليستقلوا العربة إلى البيت ..
وقالت ليلي مجاملة :

— يبدو أن الجو لطيف عندكم .. !
وأجاب مراد :

— انتظري حتى تذهبي إلى البيت ..
وسألت ليلي إبراهيم :

— أهو جميل حقاً كما وصفه لى .. ؟
وأجاب إبراهيم :

— أظنه سيعجبك ، أو على الأقل سيكون مرضياً بالنسبة لغيره من بيوت
المنطقة ..

وصاح مراد معترضاً في لهجته الصاخبة :

— مرضياً ؟ .. ستجدين بيتاً .. لم يحلم أحد أجدادك بالسكنى فيه ..

وأخذ « إبراهيم » بلهجة « مراد » الوقحة نحو زوجته ، وهو لم يتوقع منه
الأدب في حديثه ، ولكنه لم يتوقع أيضاً أن يرفع الكلفة مع زوجته أمامه .

وأحست « ليلي » بالخرج من لهجة « مراد » أمام « إبراهيم » .

ولكنها مالبت حتى أضاعت المخرج بقولها ضاحكة :

— لا أظن أحد أجدادى قد فكر فى الحضور إلى العريش .
ولكن « مراد » لم يحس حرجا من الاستمرار فى مزاحه .. الوقح ، فقال
مقهقها :

— لا بد أن واحدا منهم قد حضر أيام السلطة ، وكانت ستك تصيح به :
« يا عزيز عيني .. والسلطة خلدت ولدى » .
ولم تجب « ليلي » ، وكأنما خشيت أن يسوقها أى رد إلى مزيد من الإهانة
والحرج ، وهى تعرف سلاطة لسان زوجها ، واستهتاره وعدم تخرجه أو
اعتباره لأى ظرف .

وتملك « إبراهيم » إحساس بالعطف على « ليلي » ، وهو يرى استسلامها
لوقاحة « مراد » ، وخوفها من اندفاعه المستهتر ، وإحساسها بالحرج أمامه
كإنسانة وزوجة يتحتم عليه اجترامها .
وكان عليه أن يقول شيئا لينقذ به الموقف .. فدفع مراد من ذراعه إلى العربة
فى مزاح :

— ادخل .. وكفى وقاحة .. أنت لا تنفع إلا فى الهزل ..
وسارت العربة حتى وصلت إلى البيت .. وعلى بابها وقفت مديحة ترقب
القادمة بنظرة فاحصة .. من إخمص قدمها إلى رأسها .. حذائها المنخفض
المترب وجورها الذى رتقت النسل الذى به بيعة من أكلا دور الأظافر .. إن
ساقها جميلتان ولكنهما تحتاجان إلى قطعة حلاوة تزيل هذه الشعيرات البادية
من وراء الجورب .. ثم فحصت الجيب .. لم يكن شيئا غير عادى .. لم يكن
الجيبون مملأه بحيث يبدو نافشا كما يجب .. إن خضرها ضيق ولكن أردافها تبدو
مسكوة قليلا .. ومجنحة .. ولكن جسدها على بعضه جميل ، البلوزة لطيفة
ولكن بها فتق صغير عند الكم .. وصدرها لا بأس به .. إنه يبدو كصدر فتاة ،
طبعاً لأنها لم تلد ولم ترضع .. إن السوتيان يحتاج إلى أن يشد قليلا .. إن

الوجه جميل .. ولكنه باهت ، لماذا لم تضع بعض الأحمر على خديها .. إنها في مجموعها .. تبدو إنسانة لطيفة .. رقيقة .. على أية حال ، لم يكن منها مفر ، لا بد من احتمال ضيافتها ..

ومدت مديحة يدها .. وشدت على يد الضيفة مرحبة .. وصاح مراد يقدمها بلهجة الصاخبة الوقحة :

— ليلى هاتم .. حرمتنا المصون .. سيدة كاملة .. ليس بها من عيب إلا أنها تمشى وهي نائمة ..

وقالت نادية وهي تمسك بثوب أمها :

— أنا أيضا أعرف كيف أمشى وأنا نائمة ..

واستمر مراد في وقاحته مقهقها :

— أنت تمشين على الأرض .. ولكنها تمشى على الحيط ..

وأحست ليلى بالارتباك .. لم يكن هناك تقديم أسوأ من هذا التقديم ..

وبدا الضيق والانزعاج على وجه إبراهيم .. ولكن ليلى .. وقد تعودت على

سخافات زوجها .. لم تلبث أن أزال حرج الموقف بابتسامتها الرقيقة ..

ومدت ذراعها ورفعت نادية وضممتها إلى صدرها قائلة في لهجة مدللة :

— أنت جميلة .. أرىني كيف تسيرين وأنت نائمة ..

وأغمضت نادية عينيها ومدت ذراعها أمامها ، وصمت الجميع .. وقالت

نادية :

— لقد رأيت الرجل يسير في السينا هكذا .. وكان يسير على حرف السور

.. أتذكر يا بابا ..؟

ومدت الأم ذراعها فأنزلت نادية قائلة :

— دعني تنت ليلى تدخل لتستريح .. إن مشوار السفر مرهق ..

وأقبلت نهي من الداخل فصافحت الضيفة .. وبدا التساؤل على وجه ليلى

فقال مراد يعرفها بها :

- نهى .. لاجئة فلسطينية ..
واستدرك إبراهيم يصحح قوله :
— إنها ضيفة علينا ..
وقالت ليل مرحة في رقة :
— أهلا وسهلا .. إنها ضيفة علينا جميعا ..
وصاحت نادبة قائلة :
— عندما تعود إلى بيتها .. استدعونا كلنا ..
وأجابت ليلي :
— إن شاء الله تعود قريبا :
وضرب مراد على صدره في قوة .. وصاح :
— أنا وحدي الذي سأعيدها .. أنا ونفيسة ..
وتساءلت مديحة ضاحكة :
— تقصد أنت وليل ؟ ..
— بل أقصد نفيسة .. سأدخل تل أبيب على ظهر نفيسة .. دبابتى ،
فهمم ..؟
وتساءل إبراهيم مازحا :
— هل تستطيع نفيسة أن تسير بك إلى هناك ؟ .. إننى على استعداد لنحك
« بل دوزر » .. من سلاح المهندسين .
— لا يا عم .. دبابتك العرجاء ولا سؤال اللثيم ..
— تأدب .. فلن أسكت على وقاحتك ..
وتدخلت مديحة قائلة :
— يا جماعة .. دعوا ليلي تدخل لتستريح ..
وقالت نهى :

— لقد أعددت لها الحمام .. والحجرة ..
وقال مراد بوقاحته :

— لا داعي للحمام الآن ، سنستحم سويا في الصباح ..
وكسا الاحمرار وجه ليلى العاجي .. ولم يعجب مديحة هذا الخروج في
الكلام .. ولا سيما أمام نهي ونادية .. وجر إبراهيم مراد من ذراعه وقال له
زاجرا :

— وبعدين .. لِمَ لسانك ..
وأجاب مراد في رضوخ :
— حاضر .. متأسف ..

وسارت ليلى إلى حجرتها وتبعها مراد .. وبدا التحهم على وجه ليلى وهي
تفتح الحقيبة لتضع ملابسها في الدولاب .. واقترب منها مراد يحاول ضمها إليه
فتملصت منه في ضيق ..

وقال مراد محاولا استرضاءها :

— أغضبت ...

ولم تجب ليلى ..

وعاد مراد يتساءل :

— أسنبداً في لوى البوز .. قولى ماذا أغضبتك ؟ ..

— قلة الأدب التي لم تكف عنها منذ حضرت ..

— أهذا شيء جديد عليك ..

— شيء جديد على الناس الذين ننزل عليهم ..

— من أدراك أنه شيء جديد .. كل الناس سفلة مثلنا ..

— ليس هناك أسفل منك .. يجب أن تتحفظ أمام الناس .. يجب أن تحترم

نفسك ..

— يا ستي لا تدققي . كوني بجبوحة ..
— هذه ليست بجبحة .. هذه سخافة وسماجة ..
— تعالى .. تعالى ..
ثم جذبها من ذراعها وضمها إليه في عنف ، وقال وهو يقبلها ضاحكا :
— واحشاني .
وحاول أن يجرها إلى الفراش فدفعته في ضيق قائلة :
— أنت متوحش ؟ .. إننا في بيت ناس ! ..
— ونحن سنفعل ما يفعله الناس .. تعالى ..
وعادت تتخلص منه في ضيق قائلة :
— دعني حتى أفرغ الحقيبة ..
وسمع طرق على الباب .. ثم دخلت نهى تقول في رقة :
— أتريدين الغداء أولا أو الحمام ..
— إني لا أريد أن أتعبك ..
— ليس هناك ما يتعبني .. لقد أعددت كليهما ..
— سأستحم أولا ..
وخرجت نهى وأغلقت الباب ومراد يصيح بها :
— حمام لاتنين ..
وهتفت به ليلي :
— وقع .. إذا كنت تنوى الاستمرار في وقاحتك أمام الناس .. فسأعود
ثانية إلى القاهرة .. مفهوم .. اتفضل .. أخرج ..
وقال مراد وهو يهز كتفيه :
— أمرك .. أنت الجانية على نفسك .. ستضيعين عمرك في المحافظة على
كرامتك أمام الناس .. لعن الله أباك .. وأبا كل الناس ..

الفصل التاسع

بركان خامد

مضت بضعة أيام ومراد وليلى يقيمان في بيت العريش .. وكان مراد يذهب كل صباح إلى موقعه في رفق ثم يعود قبيل الساعة الثالثة بعد الظهر حيث يتناول الكل الغداء معهم ..

و لم يصعب على الأسترتين الاندماج .. وفرضت عليهما الوحدة والغربة .. ألفة سريعة .. واستطاعت ليلى برقتها ووداعتها .. أن تكسب صداقة مديحة .. وأن تزيل بسرعة آثار الكلفة ..

أما الأمر الذى بدأ متعذرا على ليلى .. فهو ترويض زوجها وستر نقائصه .. وإظهاره كمخلوق مهذب يمكن معاشرته ..

كان التناقض شديدا بين الاثنين .. ولم تستطع حماقة مراد وتبجحته أن تستر هذا التناقض .. فبدأ واضحا مكشوفاً .. لا يستره حجاب من الانسجام الظاهرى الذى يستر تناقض الزوجين الآخرين إبراهيم ومديحة ..

كان الأربعة يمثلون ثلاثة أنواع من الخلق والشخصية .. اثنان منهم وهما مراد ومديحة .. يمثل كل منهما أقصى اتجاه من الخلق .. والاثنان الآخران وهما إبراهيم وليلى .. يمثلان الوسط المعتدل المشترك .

كان مراد يمثل اللاأصولية واللامسؤولية .. والانطلاق في الحياة بلا قيد ولا قاعدة .. والتحرر من كل ما يثقل ميموله أو يقيد رغباته .. وإلقاء عبء المسؤولية وتحميل النتائج على إله مفروض أن يدبر له أمره .. ويحمل عنه وزره ويغفر خطاياها ..

كان حيوانى النزعة .. بدائى التفكير .. يفعل ما يريد .. كيفما يريد ..
ووقتها يريد .. لا يردعه عنه عرف .. ولا ذوق .. ولا أصول .
وكانت مديحة .. تمثل .. أقصى النقيض ..
كانت تمثل الأصولية المطلقة .. والمسئولية الكاملة .. كانت لا تتصرف
إلا فى نطاق ضيق محدود من الأصول والقواعد .. وما يجب وما لا يجب ..
وما جرى به العرف .. وما لم يجر .. وما علمته أمها لها .. وما نهتها عنه ..
وما تعود أن يفعله أبوها .. وما لم تره يفعله ..
كانت تتحرك فى مجال تطبيقى .. لما تعلمته من النظم .. بلا تفكير
ولا ابتكار .. ولا محاولة لاستنباط جديد يطابق ميولها وحياتها .. كل شىء فى
محيطها يجب أن تفعله كما تعود الناس أن يفعلوه ..
الشاي يشرب بقطعتين من السكر .. فلا مجال لشربه بأربع أو بواحدة ..
وأبوها كان يرتدى المعطف قبل الخروج فيجب أن يرتدى زوجها معطفه ..
وأما كانت تلفها قبل النوم .. فيجب ألا تنام ابنتها بدون لف فى البطاطين
وحزم من الوسط .. السجاجيد كانت تفرع بالمنفضة فى بيت أبيها .. فيجب
أن يستمر قرعها بالمنفضة حتى ولو كان بالبيت مائة مكنسة كهربائية .. لأن
المكنسة لا تخرج التراب بالمنفضة . حسب تعاليم أمها .. وأم زهرة الغسالة
كانت تغسل الملابس طيلة حياتها فى بيت أبيها .. فلا يمكن أن تغنى عنها فى بيتها
غسالة كهربائية .. تلك كانت مديحة .. جدول مرسوم محفوظ لا يمكن أن
تنتهى نتائجه إلا كما حسبت فى نهايته ..
عرفنا إذن فى مراد ومديحة — أقصى النقيضين .. منتهى اللاأصولية ..
ومنتهى الأصولية .. آخر اللامسئولية .. وآخر المسئولية القاعدية التطبيقية
الجامدة ..
ووسط هذين النقيضين .. يقف إبراهيم وليلى .. ليمثلا أصولية الإحساس

.. ومسئولية الإدراك والفهم والتطور ..

كان كلاهما ذكيا .. رقيقا .. حساسا ..

لم يكن أحد منهما يكره الأصول .. ولا يجب الخروج عليها والعبث بها .. ولكنه أيضا لم يحاول أن يجعل فيها حدا كحد الموسيقى .. يقطع كل ما يخرج عليه .. كان يعتبر الأصول خطوطا رئيسية تنظم حياة الإنسان لتمنحه أقصى ما يمكن من خير ورخاء وسعادة وسلام .. يتبادلها مع غيره من المخلوقات ولم يكن يعتبر الأصول خطوطا متفرقة متشابكة تتداخل في حياة الإنسان حتى تخنقه وتكتم أنفاسه ..

كان كل منهما يرى في الأديان .. خطوطا عريضة لتنظيم حقوق الإنسان وواجباته ومعاملاته مع الناس .. بحيث تحقق أكبر حصيلة من الخير في هذه الدنيا .. ولكنه لم ير أبدا .. أنها يمكن أن تنداني إلى تعقيدات شكلية .. وتنظيمات هيكلية رهيبة .. وحركات آلية .. تفقد الإنسان حرته .. وتضيع من الحياة بهجتها .. وامتعتها ..

كان كل منهما يقدر الأصول الأساسية الرئيسية التي بغيرها لا تنتظم حياة البشر .. والتي تحدد قيمة الأخلاقية ومثله العليا .. ولكنه كان يترك لنفسه ولحسه ولمنطقه التصرف في الأصول الفرعية المتكاثرة المتشابكة .. بحيث لا يخرج تصرفه عن القواعد العامة الرئيسية وبحيث لا يعيش في صورة مطبوعة من تقاليد سواه .. التي لا يعترف بها حسه ولا يقرها منطقته .. كان إبراهيم مثلا .. يقر قواعد البناء التي بغيرها لا يستقيم بنيان .. ولكنه كان يكره أن يفرض على نفسه طابع غيره .. لمجرد التوارث .. وهو يحس بقلق من توارثه وتقليده .. ويدرك أنه لو أجرى بطريقة أخرى .. لكان خيرا وأبقى ..

وعندما كان يقتنع بإحساسه .. ويستريح إليه .. لم يكن شيء يقف في سبيله ..

لم يكن يقيد نفسه بورائة .. أو تقليد .. لقد عودته أمه أن تدخله الفراش بعد الحمام .. ولكنه لم يكذب يحصل على حريرته حتى أضحي يلعب التنس ثم يستحم ويخرج دون أن يصاب بالبرد الذي خشيت عليه أمه منه ..

كان يعرف أن الأكل بالشوكة والسكينة شيء واجب .. ولكنه عندما يأكل السمك أو الحمام .. كانت الشوكة والسكينة تفقدانه متعة أكلهما .. فكان يلقيهما جانبا ببساطة ويأكل بأصابعه حتى يستمتع بالأكل .. ولكنه لم يتعمد أن يلقيهما أبدا .. لمجرد الخروج على الأصول ..

كان يحب مص الثلج .. وكان أبوه ينهره عنه لأنه مؤذ .. وعندما كبر لم يحاول أن يقلد أباه بنهر نادية عن مصه .. بل مص الثلج معها ..

كان يحب أن يجلس ليرقب السماء أو البحر .. ويسمع الموسيقى .. وكان يحب المزاح واللعب .. ولم يحاول عندما كبر وأضحى مهندسا وضابطا ان يترك قيود مهنته ومركزه وسنه تحرمه من عاداته القديمة التي كانت تمتعه .

وبنفس الطابع كانت ليلي ..

كانت تحب البساطة .. وعدم التكلف .. ولكن ليس إلى حد الإباحية .. أو الخروج على الأصول الرئيسية في حياتها ..

كانت تحب المزاح ولكنها تكره النكتة الجارحة .. وكان بها من فرط الحساسية وشدة الذكاء ما يجعلها شديدة الالتقاط لمعاني الجمال .. المنظور منه والمسموع ..

لم تكن تقيد نفسها بقيود الأصول والقواعد المتوارثة التي تكبل بها مديحة نفسها .. ولكنها كانت في الوقت نفسه تكره ما يجافي الذوق وينافي الأدب والخلق .. كانت تنظف البيت ولكنها لم تكن تحددها لنفسها وقت نظافته من الثانية إلى العاشرة مثلا .. بحيث لا تستطيع قوة إلا المرض أو الموت أن تمنعها منه .. بل كانت إذا أعجبتها قطعة موسيقية .. تسمح لنفسها بترك الكنس حتى

تسمعها .. وكانت تقبل ببساطة استعمال الكنسة الكهربائية .. ولا تصر في
عنف على إخراج آخر ذرة من التراب من السجادة .. بواسطة قرعها
بالمفضة ..

كانت تلهو في بعض الأحيان .. كما كانت في طفولتها .. وكانت تقرأ ..
وتفهم .. وتضحك ..
تلك كانت ليلى ..
وذلك كان إبراهيم ..

لم يكن من العسير بعد ذلك .. أن تتطابق مشاعرهما وتتقارب ميولهما ..
وأبدت الأيام القلائل الأولى .. هذا التقارب والتطابق بين كليهما .. بجلاء
ووضوح ..

وبدأ الأمر بجلسة في الصباح على مائدة الإفطار ..
صببت مديحة الشاي في فنجان مضيئتهما .. ثم أمسكت بالسكرية
وتساءلت :

— قطعتين ؟

وابتسمت ليلى في حياء وقالت :

— أكثر ..

— ثلاثا ؟

وبدا على ليلى التردد ثم هزت رأسها موافقة .. ولكن مراد قهقهه قائلاً
لمديحة :

— ضعي القطعة الرابعة ..

ثم وجه السؤال إلى ليلى :

— لماذا لا تقولين إنك تشربينه بأربع قطع .. تصوروا أنها تشرب الشاي

بأربع قطع .. تماماً كالعيال ..

واستغرق إبراهيم في الضحك قائلاً :
— الحمد لله .. لقد وجدت شريكاً في المصيبة ..
وتساءل مراد في دهشة :
— أنت أيضاً تشربه بأربع .. لماذا لا تشربون عسلاً .. بدل الشاي ..
وصبت مديحة الشاي لمراد وتساءلت :
— كم قطعة ؟
— ولا قطعة .. سأشربه سادة بالعند فيما .. أنا لا أطيق أن يشرب أحد
أمامي شايًا معسلاً ..
وقال إبراهيم :
— وأنا أرجو من ليلى هانم أن تتولى صب الشاي لي منذ الآن حتى تريحني
من مناقشة مديحة .. ومحاولتها إقناعي بأن قطعتين كفاية جداً و ..
وضحكت ليلى قائلة :
— وأنا مستعدة ..
— اتفقنا ..
وعادت مديحة تسأل مراد :
— أتريد لنا ؟ ..
— لا .. ولكنني سأقص عليكم نكتة بمناسبة اللبن مع الشاي ..
ونظرت إليه ليلى في حذر فأجابها :
— لا تخافي .. إنها ليست قبيحة ..
— غير معقول .. أنت لا تعرف غير النكتة الوقحة ..
— وقحة ؟ .. اعلمي لي بنت ناس .. اسمعوا .. في أحد مقاهي باريس في
الحرب الماضية .. جلس جندي إنجليزي على المائدة .. وطلب شايًا .. وعندما
وضعت له الجرسونة الشاي سأله .. أتريد لنا .. فأجاب بالإيجاب .. فما

كان منها إلا أن أخرجت ثديها واعتصرتة في الفنجان .. ونظر إليه الجندي
مشدوها .. ثم ابتلع ريقه قائلًا .. الحمد لله .. لم أطلب ماء ساخنًا ! ..
وضحك إبراهيم .. ولم يبد على وجه مديحة الجامد أثر للنكتة .. لا رضاء
ولا غضبا وكأنها لم تسمعها .. ونظرت ليلي إلى زوجها في غيظ :
— أهذه نكتة تقال على المائدة وقت شرب الشاي .. يا أخي اعقل .. تعلم
.. الملائف سعد ..

ولم يحب عليها مراد بأكثر من :

— اتلهى ..

ثم بصق بجواره بصقة كبيرة .. ولم يستطع وجه مديحة الجامد أن يخفى
تعايير الاشمزاز التي بعثها منظر البصقة وطريقتها ، ونظرت إليه ليلي في ضيق
وخرج .. وهمست :

— أليس معك منديل ؟!

— معي ..

— لماذا إذن تبصق على الأرض ؟ ..

— لا تغضبي .. في المرة القادمة سأبصقها على وجهك ..

ثم انطلق يقهقه بمنتهى الانشراح ..

ولم تجد ليلي بدا من الصمت .. فقد كانت تتجنب كل ما يؤدي إلى
الاحتكاك .. والصدام .. وهما في بيت الناس ..

وأحسن إبراهيم بالضيق من أجلها .. ولكنه لم يملك التدخل .. لا سيما وأن
ليلي قد آثرت الصمت ..

تلك كانت أول مظاهر الميول المشتركة .. أربع قطع من السكر في فنجان
الشاي .. ثم تلاها .. (مضناك جفاه مرقده) ..

كان إبراهيم يدندن بها .. وكانت ليلي تنصت في لهفة ..

وفي الساعة الثانية والربع أقبل إبراهيم مندفعاً إلى حجرة الصالون ليدير
الراديو فوجد ليلى تضبط المحطة ..
وقال إبراهيم في أدب :
— أسمحين ؟ إن قصيدة عبد الوهاب الجديدة تذاق الآن ..
وضحكت قائلة :
— مضناك ؟..
— أجل ..
— إني أضبط المحطة لأسمعها ..
وجلس الاثنان يسمعانها في استمتاع .. وعلى باب الحجرة وقفت نهي
تنصت وترقب .
وأقبلت مديحة .. ونظرت إلى الراديو في دهشة وقالت في حزم :
— أغلق الراديو .. لكلا توقظ نادية ..
وأشار لها إبراهيم بأصبعه أن تصمت قائلاً :
— مضناك ..
— البنت نائمة .. وسيوقظها الراديو ..
— أغلقتي الباب وراءك .. فلا يتسرب الصوت ..
وغادرت مديحة الغرفة وأغلقت الباب وراءها في شيء من الضيق .
وتكررت بعد ذلك .. مظاهر الميول المشتركة .. والأحاسيس المتطابقة ..
بدأ ذلك في الزهريات التي أخذت ليلى تنسقها من بعض الزهور البرية
وفي أنواع الطعام التي يجبانها والتي يكرهانها .. وفي الموسيقيين والرسامين
والأدباء الذين يميلان إليهم أو ينفران منهم ..
وأخذ يجمعهما إحساس مشترك بالعطف على نهي .. كان إبراهيم يحاول

جهده بعد أن أحس بمشكلة الفتاة ، كمسألة عامة يعجز عن حلها ، أن يمنحها من عطفه ما يعوضها عن عطف أهلها .. وأن يهيئ لها في بيته ما يخفف عليها ألم الحرمان وعذاب التشريد ..

وأحست ليلي بشعورها المرهف .. بمصاب الفتاة .. بتشريدها وضياعها ولهفتها على الوطن وحنينها إلى الأهل .. وهى بطبيعتها رقيقة حنون .. مليئة بشعور الأمومة .. التى لم تباشره .. لأنها لم تزرق بعد أطفالا .. ولم تهيب لها خشونة زوجها أن تمارس فيه هذا الإحساس .. فوجدت فى نبي على كبر سنها .. وعلى ضالة الفارق فى العمر بينهما .. منفذا تفرغ فيه أمومتها .. ففاضت عليها حنانا وعظفا ..

وهكذا زادت الميول المشتركة بينهما .. وبمضى الأيام .. تعددت موضوعات الحديث بينهما .. وتكررت جلساتها معها .. جلسات صريحة .. مكشوفة .. وأحاديث عامة .. لا حرج فيها ولا غبار عليها ..

لقد أحس إبراهيم .. بإنسان يفهمه .. إنسان يمكن أن ينصت إليه باهتمام .. ويستمع إلى مشروعاته .. ويتبع فى حماس آماله .. ويؤيد اتجاهاته وآراءه .. أحس إبراهيم أنه يمكن أن يشرح لخلوقة رقيقة جميلة .. أفكاره التى ابتكرها فى المشروعات التى صممها .. ويشرح رسم الفيلا التى أقامها فى المعادى لوزير التموين .. ويشرح لها العمارة التى أقامها فى مصر الجديدة .. والانقلاب الذى أحدثه فى تصميمها من الداخل .. وفى الواجهة ..

لقد وجد إبراهيم من يجاوبه فى أفكاره .. ويؤيده فى نواياه .. و .. وفى كل حديث بينهما .. كان يكتشف تشابها جديدا .. وإحساسا مشتركا .. حتى طريقة النوم اكتشف أخيرا أنها واحدة .. عندما قال زوجها مراد فى مناقشة أنها لا تستطيع أن تنام إلا على جنبها الأيمن .. فأحست هى بالحجل من أن يذكر طريقة نومها .. ولكن إبراهيم ضحك فى نفسه .. ثم قال

لها بعد ذلك :

— أتعرفين أننا متشابهان حتى في طريقة النوم ..
ولم يحاول أحد منهما مقاومة ذلك الإحساس الجميل الذى يحس به كل
منهما للآخر .. إذا ما جلس إليه .. أو ناقشه .. أو حتى فكر فيه ..
كان إحساسا .. نقيا .. لا تشوبه شائبة سوء .. كانت عناصره لا تزيد ..
على الإعجاب .. والتقدير والاحترام .. والفهم المتبادل .. والذوق المتشابه ..
والمشاعر المشتركة ..
تلك هى مركباته وعناصره .. ولا شئ أكثر من ذلك .. ولا تفكير فى أبعد
من ذلك ..
مجرد نظر وحديث واستماع ..
ومع كل ذلك .. كان هناك إحساس خفى بعيد متوار فى الأعماق ..
إحساس بالذنب .. وبالخطر ..
ولم يكن أحد من الزوجين يشعر بأن هناك شيئا غير طبيعى .. ولا تصرفا
يبعث على الارتباك أو الضيق ..
مراد فى صحبه وضجيجه وأحاديثه البديقة ونكته النابية .. وغنائه بأعلى
صوته .. وسيره فى البيت والحديقة بالقائلة واللباس .. وحكاياته عن اليهود
والدبابات ..
ومديحة فى صمتها وجمودها .. وحسابها للأصول والقواعد .. وما يجب
وما لا يجب ..
ونهى .. ترقب وتدرك فى صمت .. وتحس وحدها بأنهم يجلسون على
فوهة بركان .. الله يعلم متى يخرج حممه ..

الفصل العاشر

استدعاء على عجل

في خلال الأسبوع الذي نزل فيه مراد ضيفا على إبراهيم .. نقل البكباشي عبد الرحمن وكيل المحافظة من مقره في العريش وأخذت زوجته تستعد للسفر إلى مصر .. وذهبت لزيارة مديحة وتوديعها .. وجلست السيدات الثلاث قبيل المغرب في الصالة حول المدفأة .. وانتحى نهي بنادية جانبا من الصالة بجوار النافذة الزجاجية تداعبها وتحاكبها .. وجلس إبراهيم وعبد الرحمن على مقعدين متقابلين بجوار البار .. واتكأ مراد بمرفقيه على البار مسندا ذقنه على كفيه .. وقد جلس على أحد المقاعد المرتفعة وأمامه كأس في قاعها بقايا ويسكى ..

ورفع مراد الكأس فأفرغ ما بها في جوفه ومصمص بشفتيه .. ثم هز رأسه قائلا في أسف وهو يقلب رأسه في رفوف البار الخالية :

— يعطى الخلق لى بلا ودان ..

ورد إبراهيم بقوله ضاحكا :

. — يا أخى خد الخلق واشبع به .. اعتبره ملكا لك من الآن ..

— لو أنه كان ملكي لما تركته هكذا خاويا .. لعمرت كل ركن فيه .. هنا في هذا الركن .. أضع الكونياك .. وفي الركن المقابل أضع الويسكى .. وتحت الزبيب .. الزحلاوى الأصيل .. و ..

— ولماذا لا تريح نفسك وتفتح بخمارة ..؟

— عندما أحال على المعاش سأفعل هذا ..

— بعد عمر طويل إن شاء الله ..
— لا .. بل قريبا .. بمجرد أن تقضى على هؤلاء الخنازير .. ونعيد العرب
إلى أوطانهم في فلسطين ..
وهز عبد الرحمن رأسه وتساءل في شك :
— أتظن أن هذا سيحدث قريبا ..؟
وضرب مراد الكأس على رخام البار وأجاب :
— .. ولم لا ..؟
ونظر عبد الرحمن إلى إبراهيم متسائلا :
— ما رأيك أنت ..؟
وشرد إبراهيم بذهنه فترة ثم أجاب :
— ليس لدى أقل فكرة .. الواقع أنى لم أحس بالمشكلة .. ولم أفكر فيها
إلا منذ فترة قصيرة ..
وعاد مراد يقرع الرخامة بكأسه قائلًا في سخرية :
— أنتم ضباط غير محاربين .. اسألوني أنا .. قسما بالله لو انطلقت بنفيسة
فلن أقف إلا في تل أبيب ..
وتساءل عبد الرحمن في دهشة :
— نفيسة ؟
وقال إبراهيم مفسرا وهو يضحك :
— نفيسة الدبابة .. إن لديه نفيستين .. أمه والدبابة ..
وتساءل عبد الرحمن ضاحكا :
— ولماذا لا تنطلق بنفيسة ؟
— لأنها الآن مقعدة ..
وقال إبراهيم في خبث :

— أيهما ..

وصاح مراد :

— الاثنان .. أمة مشلولة .. ودبابتي بطاريتها فاضية .. تصوروا يا جماعة
ديابة على خط القتال ببطارية فاضية ..
— وكيف ستصل إلى تل أبيب ؟
— زق ..

وانطلق بقهقهة في صخب ..

ونظر إليه إبراهيم وهز رأسه في دهشة وقال :

— مهرج .. لا يمكن أن يجتد أبدا ..

— إذن ما رأيك أنت .. ما آخرة هذه الوقفة ؟ ..

— حقيقة لا أدري .. هل تصدق أني لم آت إلى هنا إلا لأحل أزمتي المالية

.. بمرتب الميدان المضاعف .. وإني لم ألمس حقيقة المأساة التي نحارب من

أجلها .. إلا منذ أن لقيت نهي .. ولمست آلامها .. وأحسست بمشاعرها ..

وأرھفت نهي سمعها وأحست من قول إبراهيم بما يشبه الربت العطوف

أو الضم الحنون .

كانت نهي تجدد دائما في حنان إبراهيم ملجأ تستقر فيه وتختفي به من مشاعر

الضيق واليأس التي تملكها .. كانت تختفي إلى جواره بالثقة والأمل

والطمأنينة . كان يبدو لها كجدار تأوى إليه في فراغ عريض موحش تعصف

به انزوايع وهبات الريح ..

كانت تحس به إحساس الصغيرات بفارس الأحلام الوهمي الذي يأتي

بالخوارق ويصنع المعجزات .. كان أول صدر حنون يرق لها ويحنو عليها

فدفعت إليه بكل آمالها وأمانيتها .. وتوهمت فيه القدرة على تحقيقها .. وتخيّلته

على رأس جيش طويل عريض .. يشق لها طريق العودة .. ويعيدها إلى وطنها

.. ودارها .. وأهلها .. وربوتها التي تشرق من ورائها الشمس وكرمها
المتهدل على الدرب ..

أجل .. سيعيدها إلى كل هذا .. و .. ويستقر معها .. في الأرض العزيرة
والوطن الحبيب ..

ولكن كيف يستقر معها .. وله وطن .. وله بيت .. وله ابنة وله زوجة —
وأكثر من هذا — له شيء جديد .. يبدو أنه قد تعلق به أخيرا .. ووجد فيه بغيته
.. وملاذه ..؟

ورفعت عينها فاختلست من ليلي نظرة سريعة ..
إنها رقيقة .. جميلة .. طيبة .. وهي الأخرى تحس بمشاعرها .. وتشاركها
في آلامها ..

ونهى تحبها .. ولكن حبها لها .. تشوبه الحيرة .. والقلق .. لأنها تشاركها
شيئا آخر غير الآلام .. إنها تشاركها في أحاسيسها نحو إبراهيم .. وأحاسيسه
نحوها ..

إنها لا تدرى بالضبط نوع تلك الأحاسيس .. ولا مداها .. ولكنها واثقة
من وجودها .. واثقة من تعمقها وتشعبها .. تعمقا بطيئا .. وتشعبا غير
محسوس .. ولكنه كائن .. ومستمر كامتداد الجذور في باطن الأرض ..

وفي بعض الأحيان يتملكها .. إحساس لليلي لا تفره .. إحساس بالضيق
وربما الغيرة .. عندما يغمرها اليأس وتتملكها الوحشة .. في جلستها الصامتة
وراء النافذة .. وهي ترقب الاثنين أمام النافذة .. وقد أنهماكا في الحديث ..
وبدا كأن كلا منهما لا يحس إلا بالآخر .. وكأن الدار قد خلت إلا منهما ..
لا زوج لليلي ولا زوجة لإبراهيم .. ولا ابنة .. ولا نهي ..

ولكنها سرعان ما تطرد ذلك الإحساس .. فهي لا ترى لنفسها حقا فيه ..
بل لا تجد لنفسها حقا في أي شيء .. فكل ما أصابته من عطفه وحنانه إنما هو

منحة لا يجب أن تبني عليها حقوقا .. بل عليها أن تقبلها شاكرا .. فإذا دفعتها الأوهام إلى أن تجعل منه منقذا لها ومحققا لأمانها .. فلا يجب أن تغرر بها هذه الأوهام بحيث تضع لنفسها حقوقا عليه .. وتبنى على تلك الحقوق أوضاعا تمنحها حق الغيرة .. والضيق .. وغير ذلك مما يشعر به كل صاحب حق على آخر ..

ثم هو .. بعد كل هذا .. زوج .. ولا حق لأحد عليه .. غير زوجته .. وإذا كان ثمة مشاعر خفية تتعمق جذورها وتتشعب بينه وبين ليلي .. فتلك المشاعر خطيئة .. وهي لا تحب أن تجعل من الخطيئة المفردة خطيئة مزدوجة .. لا .. لا .. لا .. يجب ألا تتعدى مشاعرها .. الأوهام .. والأحلام .. ألا يكفي أنها تزيل عنها اليأس .. وتفتح أمامها باب الأمل وتمهد طريق العودة .. وليلى نفسها .. صاحبة فضل عليها .. وجحود ونكران .. أن تضع نفسها ندًا لها .. فتضيق بها .. وتغار منها ..

وإبراهيم .. في نظرها .. أجل .. من أن يكون .. مجرد رجل يغار عليه .. إنه موئل .. وملجأ .. ومنتقد .. إنه قوة ضخمة .. من الإيمان .. والحب .. وكل المشاعر الجميلة ..

إن العابد لا يغار في حب إلهه .. من بقية العابدين .. وبإحساسها لإبراهيم شبه كبير من إحساس العابد لإلهه .. ثقة وإيمان .. وآمال .. إن آمالها فيه لا حد لها ..

لا تدري له ؟ أمن فرط اليأس الذى أصابها بالضياح والتشرد والقلق؟؟ كان لا بد لآمالها الحائرة .. من أن تستقر على محقق لها .. ولو بطريق التمنى أو الوهم .. وكان إبراهيم أول من فتح لها صدره .. ومنحها حبه ورعايته .. أم تراه حقيقة الشخص القدير على تحقيقها الجدير بثقتها .. ولكن .. كيف ..

إنها تنوهمه على رأس جيش كبير ..
وهو كما قال مراد في مزاحه .. ضابط غير محارب ..
إنه مهندس .. إنه لا يتحدث عن الدبابات والمدافع .. ولا يبدى حماسا
كبيراً لها .. كل ما يتحدث عنه التصميمات .. والفيالات .. والعمارات ..
لماذا إذن لم تضع آمالها .. في مراد .. المحارب بطبعه .. الذى لا يكف عن
الحديث عن الدبابات وعن المدافع .. وعن سحق إسرائيل ..
ومرة أخرى رفعت عينها واختلست نظرة من مراد .. وقد جلس على
المقعد العالى يدق البار بقاعدة الكأس دقات منغمة منتظمة ..
و لم تحس بحماس كثير له ..
ليس هو الإنسان الذى يمكن أن تثق فيه .. وتكل إليه بآمالها وأمانها .. إنه
قد يحارب .. ولكنه لا يحس .. ولا يفهم ..
إنه حتى الآن لم يحس بوجودها كإنسان .. وهى إحدى نتائج الظلم الذى
يحارب لرفعه .. ورمز للحق الضائع الذى يريد أن يضعه فى نصابه ..
وفى المرات القلائل التى أحس بوجودها .. كان إحساسه منفراً بغيضا ..
فقد نظر إليه نظرات فاحصة ..
لقد فحصها كأثني .. ثم ارتد عنها ..
رده منها .. جسد أعجف .. و صدر ضامر ..
لا تعفف .. ولا ضمير ..
بل لأنها .. ببساطة .. لم تعجبه كامرأة .. والنساء كلهن فى نظره مجرد
أجساد .. إما مثيرة فيقبل عليها .. أو غير ناضجة .. فيعرض عنها ..
ومع ذلك فهو لا يقبل على زوجته ..
لماذا .. إنها لا تدرى ..
ولكنه ليس وحده .. الذى لا يقبل على زوجته ..

إن إبراهيم أيضا يفعل هذا ..
إلهها .. ومنقذها .. وفارس أحلامها .. وأبوها أيضا لم يكن يقبل على
أمها ..

لعل تلك هي عادة الأزواج .. إنها من أجل ذلك لن تتزوج .. أجل
سترفض أى إنسان يتقدم لزواجها ؟ ..
أى إنسان ؟ .. حتى إبراهيم ؟ ..
ولكنه متزوج ..

لنفرض أنه غير متزوج ؟
في هذه الحالة .. سيحتاج الأمر إلى تفكير .. إن إبراهيم .. مخلوق مثالي ..
وهو إذا أعرض عن زوجته .. فلأن زوجته .. لا تحاول فهمه وإرضاءه .. كما
تفعل ليلي .. وهى إن تزوجته .. فستفعل كما تفعل ليلي .. لا كما فعلت مديحة ..
أجل .. ستشرب مثله الشاي بأربع قطع سكر .. وستنام على جنبها الأيمن
.. وستنصت إلى كل أحاديثه عن الفيلات والعمارات .. وستستمع معه إلى
« مضناك جفاه مرقدہ » ..

أجل .. أجل .. إنها تستطيع أن تحتفظ به جيدا .. ولن تتركه يعرض عنها
.. ويقبل على أخرى ..

أجل ستكون كليلى .. وليست كمديحة ..
وحولت بصرها إلى المدفأة حيث جلست السيدات الثلاث .. وأخذت
تقارن بين مديحة وليلي ..

ليلي لطيفة .. ابتسامتها لذيدة .. ووجهها رقيق جميل .. وطريقتها في رفع
شعرها وعقصه على شكل ذيل الحصان .. تبدى جمال عنقها واستدارة
وجهها ..

لو كانت رجلا .. لأحبت ليلي ..

ليس بها من عيب في مظهرها .. إلا أنها تشاركها في مشاعر إبراهيم ..
أما مديحة .. فبتقاطيعها صرامة .. وبخلقها حدة .. وهي لا تحب منها تلك
الرقعة المتناهية .. وتكره أيضا طولها المفرط .. وهذا الانحناء في ظهرها ..
ومرة أخرى .. أنصتت نهي .. فقد سمعت اسمها يتردد مرة أخرى .. كان
المتحدث عنها هذه المرة .. هي فريدة زوجة المحافظ ..

قالت فريدة ردا على سؤال لمديحة :

— سنسافر في الغد .. لقد كان مفروضا أن نسافر في الأسبوع الماضي
ولكننا تأخرنا حتى يأتي وكيل المحافظ الجديد .. إلى أعرف زوجته .. سيدة
لطيفة .. أعتقد أنها ستعجبك .. ولو أنها بلدى .. بعض الشيء ..
— تعجبنى أو لا تعجبنى .. لا أظننى سأعاشرها طويلا ..
وصممت فريدة برهة ثم تساءلت موجهة القول لزوجها :
— عبد الرحمن .. ماذا سنفعل فى نهي ..
وأجاب عبد الرحمن مرددا قولها دون أن يحير جوابا :
— ماذا سنفعل فى نهي ؟ .. كما تريدن ..
— هل سنأخذها معنا إلى مصر ؟ ..
— إذا كنت تريدن .. سلبها ؟
— ولكننى لا أريد أن أضايق مديحة بأخذها .. فإذا كنا ..
وقاطعتها مديحة قائلة :

— أبدا .. أبدا .. لا تحملى همى .. أنا نفسى لا أعتقد أنى سأمكث بعادك
كثيرا .. فلا بد أن أعود لأجل مدرسة نادية ..
— إذن تمكث معك حتى تعودى ثم تحضرها معك ...
— أبدا .. أبدا .. لا يمكنك أن ..
وتدخل إبراهيم قائلا :

- يا جماعة .. تسافر أو لا تسافر .. هذا شأنها .. وحدها .. أسألوها ..
ثم صاح بنهى :
— نهي .. ما رأيك ؟
وأجابت نادية نيابة عنها :
— ستبقى معنا .. لقد قالت إنها لن تسافر .. لأنها تريد العودة إلى بيتها ..
وصاح مراد متهمكما :
— تعود إلى بيتها ؟ .. يخرّب بيتها .. بدرى على العودة .. ما زال أمامنا وقت
طويل ..
— متى ستعود إذن ؟
— عندما تملأ بطاريات الدبابات .. وتستطيع نفيسة السير .. سأخذها
معي ..
وصاحت نادية متسائلة :
— وعندما أرسل أنا لها مدفعا من القاهرة ؟ ..
— بل أرسلى لنا .. قنابل .. بشرط أن تنفجر من الأمام لا من الخلف ..
وتساءل عبد الرحمن ضاحكا :
— هل هناك قنابل تنفجر من الخلف ؟ ..
وأجاب مراد وهو يتساءل في سخرية :
— أتضحك ؟ .. إن نصف قنابلنا ينفجر من الخلف .. لقد أصبحنا نخاف
من مدافعنا أكثر مما نخاف من مدافع العدو ..
وتدخل إبراهيم قائلا :
— لا تصدقه .. إنه أكبر مشنعاتي .. لقد شنع على الدبابات .. والآن جاء
دور المدفعية .. دعك منه .. لنته من أمر نهي أولا .. ما رأيك يا نهي .. أتحيين
السفر إلى القاهرة ؟ ..

وعادت نادبة تصيح :

— قلت لك لا ..

— اسكتي أنت يا نادبة .. دعيتها تتكلم ..

وأجابت نهى بعد أن منحت فرصة للرد :

— إني أفضل البقاء ..

وقالت فريدة :

— ولكن مديحة هانم لن تمكث هنا كثيرا .. وقد تعود إلى القاهرة بعد بضعة

أسابيع ..

— إذن أعود إلى المعسكر ..

وتدخل إبراهيم قائلا :

— دعوها لنا .. لا تحملوا همها ..

وبدا المديحة أن تعترض ..

ولكن إبراهيم أسكتها بقوله :

— أنا سأتكفل بها .. وسأريجها .. سأعمل كل الترتيبات اللازمة ..

وقال عبد الرحمن :

— لن يكون هناك أية ترتيبات .. سأجرى أنا الإلزام .. وسأدعها لك ..

وصاحت نادبة وهي تعانق نهى :

— ستبقى معنا .. ولن نعود .. إلا بعد أن تعودى أنت وسأطلب من نينا

في مصر أن ترسل لنا المدفع .. ومعه قنبلة تفرقع من الأمام .. أليس كذلك

يا أنكل مراد ؟

— هل عند نينا مدفع وقنبلة ؟

— تشتري ..

— هل لها قريب في القصر ..

- القصر العيني ؟
— لا القصر الملكي ..
وتساءل إبراهيم في دهشة :
— القصر الملكي ؟
وأجاب مراد :
— أجل .. إذا كانت ستشترى المدفع والقنابل بواسطة القصر فعلينا
العرض ..
وصاحت نادية :
— بل ستشتريه من ألف صنف ..
— إذن فلن ينفجر من الخلف ..
وتساءل إبراهيم :
— ما هذا التهريج ..
— ليس تهريجا .. بل حقيقة ..
— أنت مجنون .. وستودي نفسك في داهية ..
— وأنت أهبيل .. وسيودون هم بك في داهيتين .. داهية في الميدان ..
وداهية في داخل البلد ..
ودق جرس التليفون فجأة .. ومد مراد يده فرفع السماعة .. قائلا :
— ألو ..
— اليوزباشي مراد موجود ..
— أجل .. أنا مراد ..
— تفضل كلم رفق ..
وتحدث صوت آخر يتساءل في عجلة :
— مراد ..

- من؟ ..
- أنا عبد المنعم .. جناب البكباشى يريدك حالا .. عندنا عمليات سريعة ..
- أليس عندكم ضباط غيرى؟ ..
- ليس هذا وقت المناقشة .. احضر بسرعة ..
- وكيف نبدأ .. العمليات .. إذا كانت الدبابات بلا بطاريات ..
- البطاريات حضرتت وركبت الآن فى الدبابات ..
- ولماذا هذه العجلة .. العمليات حبكت الليلة؟ ..
- يا مراد لا تكن سخيفا .. احضر أرجوك .. وإذا كان لك اعتراض ..
- قله لجناب البكباشى ..
- يخرب بيتك لبيت جناب البكباشى .. سأحضر حالا ..
- ووضع السماعه فى قرف قائل لمن حوله :
- عمليات .. عن إذنتكم .. سأذهب لآخذ لى يدا ..
- وقام ليرتدى ملبسه وبعد خمس دقائق كانت العربه تنطلق به إلى رفع ..

الفصل الحادى عشر

عملية انتحارية

أقبل مراد على خيمة البكباشى منصور قائد الآلاى والليل قد أدلهم .. وبرودته قد أخذت تنفذ إلى العظام .. وقد التف مراد بكوفية وضم المعطف الكاكى الخشن حول جسده الربعة .. ووقف أمامه وقد رفع يده بالتحية ووراءه اليوزباشى عبد المنعم أركان حرب الآلاى ..

وبدا البكباشى منصور مقطب الجبين شاردا النظرات ، وقد جلس على مقعد خشبى وأمامه منضدة من نوع ال٦ قدم عبارة عن حاملين حديديين ، وقرص خشبى منفصل وقد تناثرت أمامه بضعة أوراق منها خريطة جنوب فلسطين ، وخليط من يوميات الميدان وأوامر العمليات وصندوق بسكوت وعلبة طباق وبيجارها غليون ضخمة ، وعلى عمود الخيمة علق فانوس هاريكان وفى ركن من أركانها وضع جهاز لاسلكى وبيجاره راديو صغير .. ورد قائد الآلاى التحية فى صمت وأمسك باليب وأخذ يعبث به فى قلقى ..

وقال مراد وهو يحدق فى قائده لعله يستشف ما برأسه :

— أفندم ؟

ورفع منصور رأسه وسأله بغتة :

— كم دبابة عندك جاهزة للتحرك ؟

وأجاب مراد بيزود :

— ولا واحدة ..

- كيف ؟
- لأن البطاريات جميعها في الصيانة ..
- دعك من البطاريات ..
- كيف ؟ .. هل نجر الدبابات ؟ ..
- البطاريات قد سلمتها لكم الصيانة اليوم ..
- لم أستلم شيئا ..
- وتدخل اليوزياشى عبد المنعم بقوله :
- لقد تسلمها قواد السرايا بعد الظهر ، وقد ركبت الآن في الدبابات ..
- ورد مراد :
- إذن ستتحرك جميع الدبابات .. عدا اثنتين من الميدوز القديمة ..
- وقال منصور :
- الميدوز لا تم .. هل هناك شيء عاطل من اللوكاس ؟
- لا أظن ..
- المسألة ليست ظنا .. أريد أن أعرف بالضبط ..
- إذن ستتحرك جميع الدبابات .. فقد كانت هناك دبابة في سرية زكى أفندى بها بعض العطل .. وإن كنت أعتقد أنها لا بد أن تكون قد أصلحت ..
- ألا تستطيع أن تجهز ثلاث تروبات ؟ ..
- طبعاً أستطيع ..
- انتهينا .. جر هذا المقعد واجلس .. سأشرح لك ما أريده منك ..
- ثم وجه القول إلى عبد المنعم ..
- اجلس يا عبد المنعم ..
- هل أحضر أوامر العمليات ؟ ..
- اجلس يا أخى .. ليس هناك وقت .. اسمع يا مراد ..

— أفندم ..

واستعدل القائد الخريطة المنشورة أمامه وأمسك بقلمه على المنضدة ووضع
سنه على نقطة معينة قائلا :

— أترى هذه التبة ؟ ..

ومد مراد عنقه قليلا ليرى النقطة التي وضع عليها قائده قلمه .. وعندما
تحقق منها أجاب متسائلا :

— التبة ٨٦ .. ؟

— أجل ..

— لقد احتلها اليهود اليوم ..

وفغر مراد فاه وصاح في جزع :

— نهار أبيهم أسود ..

وأطلق القائد ضحكة ساخرة مريرة من شفثيه قائلا :

— نهار أبينا نحن .. هو الأسود .. إن لم نطردهم حالا .

وعقب البيوزباشى عبد المنعم على قوله :

— لقد قطعوا الطريق إلى غزة .. وعزلوا كل قواتنا الموجودة في الشمال ..

وقال مراد وقد بدا عليه الذهول :

— وأين كانت القوة التي تحتل التبة ؟

وأجاب القائد وهو ما زال يضع قلمه على الخريطة :

— لقد اضطروها إلى الانسحاب بعد أن كادت تفنى .. لقد هاجمها

بقوات متفوقة جدا .. تبلغ حوالى مجموعة لواء ..

وأطرق مراد برأسه برهة ثم تساءل :

— والمطلوب !؟

— أن نستردها ..

- كيف ..
- بالآى الدبابات ..
- فقط ؟
- لقد صدرت الأوامر إلينا من قيادة الفرقة باستردادها حالا وستعاوننا المدفعية بضرب مواقع اليهود ..
- والمشاة ؟
- لا علم لى بها ..
- ولكن المفروض أن تقوم المشاة بالهجوم بمعاونتنا ؟ .. هذا على الأقل هو ما أذكره من التكتيك الذى تعلمته ..
- سنقوم نحن وحدنا باسترداد الموقع ..
- وعندما نسترده من الذى يحتله ويعززه ويدافع عنه ؟ ..
- نحن أيضا ..
- هذا ليس من واجب الدبابات ..
- وصرخ القائد فى وجهه فى ضيق :
- لا تقل هذه الكلمة أبدا .. لقد أصبحت سبة فى وجوهنا .. لقد أصبح الجميع يتندرون بها .. ويعتبرونها فكاهة الميدان .. لقد باتوا يقولون عنا .. إنهم كلما يكلفوننا بعمليات قلنا إن هذا ليس من واجب الفرسان ..
- لأنه يكون فعلا ليس من واجب الفرسان ؟
- لقد ضاقوا بنا ذرعا ..
- لأنهم لا يعرفون جميعا عملنا .. إنهم يريدون أن ينشرونا فى المواقع الدفاعية .. إن القيادة لا تعرف .. واجبات القوات المدرعة .. فى كتاب تعليم آلاى المدرع ..
- وقاطعه القائد بحدة :

— ليس هذا وقت تطبيق تعليمات الكتب .. إننا هنا لتنفيذ أوامر لا لتجرب تعليمات .. يجب أن نفعل كل ما يكلفوننا به .. سواء كان في طبيعة عملنا أم لم يكن .. وسواء نص عليه كتاب التكنيك أم لم ينص .. مفهوم ؟
— مفهوم يا فندم .. ما هي أوامر كم ؟ ..

وسحب القائد ورقة بيضاء ورسم عليها دائرة وجر أمامها خطا وقال :
— اسمع .. هذه هي التبة ٨٦ وهذا هو الطريق ..

ثم خط بضعة خطوط داخل الدائرة وحولها .. واستطرد يقول :
— وهذه هي المواقع التي كنا نحتلها في التبة .. والتي أعتقد أن اليهود لا بد أن يكونوا قد احتلوها .. لأنها جميعا على الطريق .. ولأنهم يستطيعون منها أن يمنعوا أى قوة من التقدم شمالا أو جنوبا .. مفهوم ؟ ..

— مفهوم يا فندم ..

— ليس أمامنا وقت لعمل استكشاف .. لأن المفروض أن نبدأ عملنا في طردهم .. عند أول ضوء .. بحيث تكون التبة في أيدينا قبل الظهر .

وقلب مراد شفته السفلى ونظر إليه القائد في غيظ وصاح به ناهرا :
— مالك ؟

— لا شيء ..

وأعاد القائد قوله في إصرار :

— ستكون التبة في أيدينا قبيل الظهر ..

— سنحاول ..

— وسننجح ..

— التساهيل على الله ..

— وعلينا .. وعلى عزمنا ..

— العزم موجود ..

- والقدرة ؟
- لا يقدر عليها إلا الله .
- لا أريد منك هذا التواكل ..
- أنا لا أستطيع أن أفعل شيئاً إلا بالانكال على الله ..
- توكل على من تشاء .. المهم أن تكون التبة في أيدينا قبل الظهر ..
- ما هو المطلوب منى بالضبط ؟ ..
- سأشرح لك الخطة العامة .. ثم أعطيك أوامر كتيبتك .. سنقوم بالعملية بكتيبتين .. ستقدم كتيبة على الطريق .. لتثبت العدو .. ولتحويل أنظاره ..
- بهجوم مخادع ..؟
- بل هجوم حقيقى .. مباشر على مواقع العدو ..
- هجوم حقيقى من الطريق ؟
- أجل ..
- والكتيبة الثانية ..
- ستقوم بعمل لفة من الجنوب إلى الشرق حول مواقع العدو لتهدد مؤخرته .. وتضطره إلى الانسحاب .. مفهوم ..
- مفهوم يا فندم ..
- وستدق المدفعية مواقع العدو طول الليل ..
- وما هى أوامرى أنا بالتحديد ..
- ستقوم أنت بالهجوم بثلاث تروبات على محور الطريق ..
- هجوم مباشر على محور الطريق ..؟
- أجل ..

- هذا انتحار .. وليس هجوما ..
- ليكن .. وسيقوم الصاغ مرسى بعمل الالتفاف بكتيبته ..
- حلال عليه ..
- وعليك أن تبدأ الهجوم .. عند أول خيط من خيوط الفجر .. أعنى بمجرد أن تستطيع أن تبصر مواقع العدو .. بمجرد أن يلوح الضوء ..
- ولماذا الانتظار حتى يلوح الضوء .. لماذا لا نتحسس مواقعه ..
- أتمزح ..
- لا يا فندم .. إني أحب التحسيس .. ولو على مواقع العدو ..
- وضحك منصور لأول مرة .. وكان يعرف أن مراد مهرج مهذار ويعرف أيضا مدى استهتاره .. ولكنه كان يعرف أيضا أنه رغم مناكفاته ومشاغباته .. أقدر ضباطه على أعمال الجراءة .. والاندفاع .. فلم يجد خيرا منه يوكل إليه العملية التي وصفها مراد بأنها عملية انتحارية ..
- ونظر منصور إلى ساعته وقال وقد أعاد إلى وجهه سيماء الجد :
- الساعة التاسعة الآن .. أريدك أن تتحرك في أقرب وقت تستطيع التحرك فيه ..
- إن هناك أشياء كثيرة لا بد أن نعلها .. نريد أن نعبى البنزين والذخائر .. وأريد أن أفتش على الشدة ..
- وقال اليوزباشى عبد المنعم :
- لقد أعطينا الكتيبة إنذارا بالتحرك .. وقد قلت لليوزباشى فريد قائد ثانى الكتيبة جميع الأوامر الإدارية اللازمة .. وضابط الإمداد والتموين وضابط الصيانة وورشة الآلاى تحت أمرك .. وأعتقد أنك ستجد الكتيبة جاهزة بأجمعها ..

ونفض مراد قائلا :

— أرجو أن تكون البطاريات قد شحنت جيدا .. وألا تكون الصيانة قد أعادتها كما هي ..

وضرب كعبيه ببعضهما ثم رفع يده بالتحية قائلا للقائد :

— عن إذنك يا فندم .. سأذهب لأعد الكتيبة للتحرك .. وأعطى قواد التروبات أوامرى ..

— أعطنا خبرا .. عند التحرك .. وأرجو أن يكون هذا قبل ساعة ..
— إن شاء الله ..

وقبل أن يستدير للانصراف .. مد يده فأمسك بعلبة البسكويت الموجودة على المنضدة قائلا :

— أتسمح بهذه يا فندم .. حتى لا أموت .. جائعا ..

— خذها .. وخذ هذه أيضا ..

ومد يده إلى جيب معطفه المعلق وأخرج علبة سجائر قائلا :

— هذا تموين الأسبوع ..

— وحضرتك ..

— كفاية البيت ..

— متشكر يا فندم .. السلام عليكم ..

— عليكم السلام .. لا تتلكأ في التحرك ..

— حاضر يا فندم ..

وقال القائد لليوزباشى عبد المنعم :

— أعد الرئاسة للتحرك ..

وأجاب عبد المنعم :

- جاهزة يا فندم ..
وخرج عبد المنعم في أعقاب مراد .. والتفت إليه مراد متسائلا .. وهو
يدس علبة السجائر في جيبه ويفتح علبة البسكويت ليأكل منها :
- ستتحرك الرئاسة معنا ..
— ستتحرك مع كتيبة مرسى ..
— يا رعايد .. لماذا لا تتحركون معنا ..
— معك أو معهم .. كله شقاء ..
— لا .. ليس كله شقاء .. بعضه شقاء .. وبعضه .. انتحار .. على أية حال
.. أنا لا أحب صحبة الرياضات .. لأنى أكره أن يتدخل أحد فى شؤونى ..
سأريكم كيف يكون الهجوم ..
— أنت أسد ..
— وأنت جحش ..
— تأدب .. إنك على أبواب موت .. دعنا نذكرك بالخير .. ونقول .. الله
يرحمه .. كان مهذبا ..
— بل ستقولون .. الله يرحمه .. كان كذابا .. إذا قلت إنك أى شىء .. غير
الجحش ..
— الله يسامحك ..
— لا أظنه سيسامحنى .. إن بيننا حسابا طويلا .. من الخبص والهاس
ومفاسد أخرى ..
— إن رحمته واسعة .. إنك رغم هذا ابن حلال .. وأعتقد أنه سيرحمك ..
— يرحمنى ؟ . مالك قلبتها غما .. لماذا تريده أن يرحمنى .. إني سأعود سالما
من عمليتكم الانتحارية .. إن عمر الشقى بقى ..

— لم أقصد هذا .. إن رحمة الله مطلوبة لنا جميعا .. أحياء وأموات ..
— أجل .. قل هذا ..
وقبل أن يتخذ مراد مقعده في عربته .. التفت إلى عبد المنعم وقال في
اهتمام :
— اسمع .. أمتأكد أنت أن البطاريات شحنت تماما ؟ ..
— طبعاً .. لقد اختبرها ضابط الصيانة ..
— .. تصور لو فضيت البطاريات في وسط المعركة .. ووقفنا أمام العدو
.. كالمشلولين لا نستطيع حراكاً ..
— يا أخى دع عنك الوسوس .. اتركها على الله .. ألم تقل للقائد إنك
لا تتكل إلا على الله ..
— أجل .. إني على استعداد لأن أتكل على الله .. ولكن ليس على ضابط
الصيانة .. السلام عليكم ..
— اطمئن لا تخش شيئاً ..
— وإذا خشيت .. ماذا يهم ؟ .. أهي موتة أم اتنين .. من لم يميت بالسيف
.. يا أستاذ .. مات بلدعة أو قرصة .. أو سكرة .. ومن لم يميت بهذا كله ..
مات فطيساً .. دعها لله .. السلام عليكم ..
ورفع يده بالتحية فرد عبد المنعم التحية .. ووقف يرقبه وهو يتنطق بعربته
ويختفي في الظلمات ..
وأطلق عبد المنعم تنهيدة وتمتم لنفسه قائلاً :
— كان الله في عونته .. وفي عوننا جميعاً .. أهذه عملية تخاض بالدبابات
اللوكاس ..
وظافت بذهنه صورة سريعة .. للعمليات الدائرة .. وللأسلحة وللذخائر

.. وأحس كأنه يغرق في مستنقع .. من الطين ..
لشد ما خاب ظنه .. وخيبت آماله ..
لقد توهم أنه سيطبق ما تعلمه .. من دراسات عن الحرب .. وسيصدر
أوامر عمليات .. وسيضع جداول سير .. وسيُنظم عمليات التموين كما تعلمها
في كلية أركان حرب ..
ولكنه عندما جابه الحقيقة .. أحس بكل هذا يتبدد .. ووجد نفسه ضالا
في بيداء من الارتجال بلا نظم ولا قواعد .. لماذا إذن أجهدوا أنفسهم في
تعليمهم .. إذا كانت المسألة تنتهي في الواقع إلى مثل هذه الفوضى ..
على أية حال .. لا بد مما ليس منه بد .. وكما قال قائده .. إنهم هنا لينفذوا
الأوامر . لا ليطبقوا تعليمات الكتب .. وإذا كانت الأوامر هي الانتحار ..
فلا بد من الانتحار ..

الفصل الثاني عشر

فراش خال

انطلقت العربية بمراد في الظلمات إلى مواقع كتيبة .. وأخذت تمر بذهنه
خواطر سريعة مختلطة متشابكة ..
هذه المرة .. سيقوم بعمل ضخم ..
هو وحده الذى سيطرد اليهود ..
سيقابلهم وجها لوجه .. في عمليات لا شك ستكون عنيفة .. عملية قتال
حقيقى .. لا مطاردة .. ولا مناوشة ..
ولكن كيف سيقوم بالهجوم ..
ليست لديه خطة واضحة في ذهنه .. لأنه لا يعرف تفاصيل تفيدته عن
عدوه .. لا مواقعه .. ولا قوته .. كل ما يعرفه أنه احتل التبة ٨٦ وأنه قطع
الطريق إلى غزة .. وأن عليه أن يطرده ..
وأخذ يستعيد في ذهنه صور أوامر العمليات التي درسها .. ولم يجد لديه
من المعلومات ما يستطيع أن يملئ به أبسط أمر عمليات درسه .. ولكن
ما الداعي لأمر العمليات .. إذا كان هو نفسه لم يتلق من قائد الآلاى أكثر من
هذه الأوامر العائمة .. بأن يتقدم على الطريق ويهجم على العدو ليطرده من
مواقعه .. وأن المدفعية ستدق المواقع طول الليل لتمهد للهجوم .. والكتيبة
الثانية ستلج حول مواقع العدو ..
ما شاء الله .. هذه هي كل أوامر عملياته ..
وليس عليه إلا أن ينقلها بدوره إلى ضباطه ..

على أية حال .. ليس المهم أوامر عمليات .. ولا تقدير الموقف ولا غير هذا مما تعلم .. المهم .. أن يأخذ دباباته .. ويتقدم في سرعة ويدق اليهود في عنف أينما وجدهم ..

أجل .. سيمزقهم إربا ..

وتملكته حمية القتال .. واستحث السائق ليسرع إلى مواقع الكتيبة ..

ثم عاد يفكر مرة أخرى ..

إن لديه قاذفات اللهب .. وسيستعملها لأول مرة .. ويصلي بها اليهود نارا

حامية ..

سيطرد اليهود من مواقعهم .. ويتبعهم حتى يفنيهم .. سيمزقهم بأسنانه ..

هو وضباطه .. وعساكره .. إن لديه بضعة أولاد « حمشين » يأكلون

الزلط ..

سيأخذ التبة ٨٦ .. ولن يقف .. فيها ..

أجل لن يحتل مواقع .. ويقف للدفاع ..

ليس هذا واجب الدبابات .. رغم كل ما قاله .. قائده ..

إنه سيستمر في التقدم .. وليحتل المشاة التبة ٨٦ ويدافعوا عنها ما شاء الله

لهم الدفاع ..

إن التبة ٨٦ لا تهمه في قليل ولا كثير .. إنه سيتقدم بدبابته .. ولن توقفه

قوة ولا أوامر .. حتى يصل إلى تل أبيب .. على ظهر نفيسة كما كان يعلم

دائما ..

وانتقل من نفيسة الدبابة .. إلى نفيسة الراقدة في شبرا .. إلى أمه المشلوله

.. الطيبة .. التي تغرقه بدعواتها ..

لا شك أنها الآن تفكر فيه .. وتدعوه .. وقد تكون عبراتها تندرج على

خديها الغائرين كما تعود أن يراها دائما ..

ستسمع غدا أخباره .. عندما تذيع الإذاعة أن اليوزباشى مراد قد احتل تل أبيب .. وشنق بن جوريون وعلقه من أذنيه فوق أعلى قمم الهاكارمل .. وتذكر زيارته للهاكارمل .. ولحيفا .. قبل خروج الإنجليز من فلسطين وقبل إعلان دولة إسرائيل .. وتذكر اليهوديات راقدات على شاطئ تل أبيب .. الشاطئ الرملى الضيق القائم بجوار الجدار العالى الذى يفصله عن الطريق ..

وانتقل من اليهوديات الراقدات على شاطئ تل أبيب إلى عشيقته الراقدة فى الإسماعيلية ..

ترى ماذا تفعل ريتا الآن .. لعلها تستحم كعادتها .. فهى تقضى نصف حياتها فى البانيو ..

وأحس بشوق لها .. وبدأ يستعيد لنفسه ساعاته معها .. عندما وقفت به العربية .. أمام الكشك الصباح الذى يعتبر المأوى الوحيد فى الموقع الذى ترابط فيه كنيته ..

وقفز من العربية وأقبل عليه جندى مراسلة يحميه ..

ورد مراد تحيته وصاح فى عجلة ..

— أين حضرات الضباط ؟

— ذهبوا إلى مواقعهم ..

ودلف مراد إلى الكوخ الصباح .. وهو مستمر فى تساؤله :

— وأين عبد الرحيم أفندى ..؟

— كان هنا منذ لحظة ..

— ابحث عنه وقل له أن يجمع الضباط ويأتى حالا ..

— حاضر يا فندم ..

— أحضر الباشجاويش بقرى أيضا ..

— حاضر يا فندم ..

ووقع بصر مراد على زجاجة ويسكى قد وضعت على منضدة فى ركن الكشك .. وتبين له أنها نقصت كثيرا فصاح يستدعى العسكرى :

— من شرب من هذه الزجاجة ؟ ..

— لست أعلم يا فندم ..

— اقترب ..

واقترب العسكرى واستمر مراد فى أوامره :

— افتح فمك ..

وفتح العسكرى فمه .. فمد مراد أنفه يشمه وعندما لم يجد به رائحة

ويسكى عاد يتساءل فى غضب :

— من إذن الذى شرب من الزجاجة ؟

— والله لا أعرف يا فندم ..

— لا بد أن يكون عسران أفندى .. اسمع .. هل مكث عسران أفندى فى

الكشك وحده مدة طويلة ..؟

— لا أدرى ..

— ما الذى تدريه ؟ .. ماذا تفعل هنا .. إذا كنت لا تحرس ممتلكات قائد

الكتيبة .. سبعة أيام حجز قشلاق .. مع قطع أربعة أخماس الماهية .. وفى المرة

القادمة سأخصم منك ثمن زجاجة الويسكى .. وعندما أعود سأجرى تحقيقا

وسأخرب بيتكم جميعا .. اذهب وناد عبد الرحيم أفندى بسرعة ..

وانطلق العسكرى يعدو فى الظلمات .. وسار مراد داخل الكوخ وأمسك

بزجاجة الويسكى يفحصها أسفا ويتمم لنفسه فى غضب :

— ضاع نصفها .. ضباط غجر وكتيبة بايظة .. لو لم نكن على عجل

لشممت أفواه الكتيبة كلها .. وعرفت السارق .. ولكن من يكون غير

عسران أفندى .. إن له سوابق في هذا .. لقد لطف ثلاث زجاجات بيرة في الأسبوع الماضي .. لا بد أن أعمل له مجلس تحقيق .. سأوقفه .. ولكن ليس هذا وقته .. بعد المعركة إن شاء الله .. المهم الآن .. أن نشرع للتحرك .. لا نريد أن نضيع لحظة واحدة ..

وفتح الزجاجاة وأخذ منها جرعة .. ومصمص شفتيه قائلًا لنفسه :

— قليل من الخمر يصلح المعدة ..

ومسح شفتيه وأردف قائلًا :

— ويريج الأعصاب أيضا .. نحن الآن في أشد الحاجة إلى أعصاب .. وتلفت حوله .. يلقي نظرة شاملة على الكوخ كأنما يبحث عن شيء .. وبدا الكوخ على ضوء المصباح موحشا .. قد صفت به خمسة سراير سفيرية .. ثلاثة منها للضابط في ناحية .. وفراشان في الناحية الأخرى .. كان أحدهما له ..

وألقي مراد نظرة على فراشه .. ثم انتقل بيصره إلى الفراش المجاور ..

كان فراشا .. بلا صاحب ..

لقد ذهب صاحبه .. ولم يعد .. أو عاد .. إلى مرقد بيطن الأرض في حفرة .. لا فراش فيها .. سوى الثرى .. ولا غطاء .. سوى الرمل والحجارة .. ذهب كما يذهبون الآن ..

ذهب اليوزباشى جلال .. قائد ثاني الكتيبة .. يضحك في جذل .. ويدندن بأغنية مرحة .. وطلب منهم ألا يأكلوا .. كل علة البلوييف .. واستحلفهم بألا يمسوا زجاجة البيرة التي تركها .. وأبقوا له العلة والزجاجة .. ولكنه لم يعد ..

وبقى فراشه خاليا .. وسيذهبون الآن جميعا .. الملازمون الثلاثة .. وهو .. لا يعلم أحد منهم .. من العائد .. ومن سيكون صاحب الفراش الخالي ..

ومرة أخرى نظر مراد إلى فراشه ..
وأحس برجفة .. وتملكه إحساس بالخوف والتخاذل .. ما ليث أن طرده
عنه بشدة .. وتحنح بصوت عال .. كما يفعل الخفير في بهمة الليل ووحشته
.. ليطرد عنه أشباح الظلام .

ويصق بصقبة كبيرة .. ومديده .. إلى كوم من روايات الجيب على المنضدة
وأزاحها جانبا .. وأخرج من أسفلها مصحفا صغيرا .. متآكل الغلاف ..
ورفعه إلى شفثيه .. ثم دسه في جيبه ..

وأحس بشيء من الراحة .. وذهب عنه إحساس الخوف .. ونظر إلى
سقف الكوخ .. كأنما يحاول التأكد من الله .. أن مصيره لم يحن بعد .. وأن
حياته لم يزل بها بقية .. وبقية طويلة ..

وانحنى ليفتح حقيبة من الصاج بجوار الفراش .. وأخذ يعيث فيها ..
فأخرج الطبنجة وكيس الذخيرة .. وأخرج شنطة جرابية قديمة بها علبة جبن
.. وعلبة فول مدمس .. وعلبة سردين .. ووضعها على الفراش ..

ثم جذب الزمزية المعلقة على مسمار في حائط الكوخ .. ورجها ثم فتحها
وأفرغ ما بها من ماء .. ونقل إليها ما تبقى من زجاجة الويسكى وأغلقها
ووضعها في طمأنينة على المنضدة قائلا لنفسه :

— تنفع وقت العوزة ..

ولم يكذب يضع الزمزية حتى سمع وقع أقدام تقترب من الكوخ .. ثم أبصر
عبد الرحيم .. الملازم الأقدم والذي يتولى مركز قائد ثاني الكتيبة بعد موت
جلال ..

وحياه عبد الرحيم وصاح في لهجة عسكرية :

— الكتيبة تمام يا فندم ..

وسأله مراد :

- البطاريات ركبت ؟
— كلها يا فندم ..
— فتشت عليها ..؟
— كل ضابط فتش على سريره وأعطى تماما ..
— وقاذفات اللهب ..؟
— فتش عليها الباشعجاويش بقري ..
— وأين الضباط ؟
— سيأتون حالا ..
— أمستعدون للتحرك ؟
— في أية لحظة ..
وسمع وقع أقدام .. وما لبث أن دخل الملازم عسران يتبعه الملازم عبيد ،
وحياه كل منهما بيده قائلا :
— تمام يا فندم ..
ونظر مراد إلى عسران نظرة فاحصة .. كانت بين الاثنين صداقة وطيدة ..
فقد قرب كلا منهما إلى نفس الآخر تشابه شديد في الخلق .. نفس الجرأة ..
والاستهتار والإباحية .. وخفة الدم والتواكل .. وإن تناقضا في الشكل .. فقد
كان عسران صعيديا من سوهاج أسمر الوجه .. مديد القامة طويل الساقين ..
يقذف بقدميه إذا ما سار ..
وكان عبيد .. يمثل في الكتيبة الحذر والوسوسة .. وفرط الدقة .. وكاد
أكثر ما يهيمه في كل عمله المحافظة على العهدة .. والتتيم على مهمات العساكر
والدبابات .. وكان مراد يطلق عليه « الباشمخزنجي » ..
وقبل أن ينطق مراد بكلمة اقترب من عسران يشمه .. وأغلق عسران فمه
حتى لا يستطيع مراد شمه ..

— ١٢٠ —

وسأله مراد ليجبره على فتح شفتيه :

— أفتشت على البطاريات ؟

وهز عسران رأسه دون أن يفتح شفتيه ..

وصاح به مراد :

— انطق ..

وعاد عسران يهز رأسه دون أن ينبس بينت شفة ..

وجذب مراد زجاجة الويسكى .. وقبل أن يوجه أى سؤال صاح عسران

في جزع :

— هل شربت الباقي كله ؟

— إذن فأنت الذى شربت الزجاجة ..؟

— بق واحد والله العظيم ..

— سأخرب بيتك عندما نعود .. سأضعك في الإيقاف الشديد .. عندما

تنتهى المعركة .. وسأ ..

وتدخل عبيد قاتلا :

— الفقرة خمسة الخاصة بالإيقاف الشديد .. في قانون الجيش تحم ..

وقاطعه مراد قاتلا :

— اتلهي أنت والفقرة خمسة .. اجلسوا ..

وجلس الضباط الثلاثة حول مراد .. على حرف الأسرة .. وعلى صندوق

خشبي فارغ ..

وقال مراد وهو يفرد الخريطة أمامه :

— سأوجز في الحديث .. فليس لدينا وقت نضيقه في الدردشة .. اليهود

احتلوا التبة ٨٦ .. وقطعوا الطريق إلى غزة .. والمفهوم أنهم هجموا بمجموعة

لواء .. والمفهوم أيضا أنهم استولوا عليها اليوم العصر .. ولم يكن لديهم وقت

كافٍ للتعزيز .. والمطلوب أن نقوم بهجوم سريع لطردهم .. وقد كُلف
الآلَى بعملية الهجوم .. وأعطيت كتيبتنا واجب الهجوم بالمواجهة على محور
الطريق .. والمفروض أن هجومنا تثبتي ليثبت العدو في مراكزه .. لنعطى
الفرصة للكتيبة الثانية لتطويقه .. ولكن الذى فهمته أن المطلوب منا أن نهجم
هجومًا تامًا بأقصى ما نستطيع من قوة .. وبدون أن ندخل في حسابنا أن هناك
عملية تطويق ستقضى عليه ..

وهز عبيد رأسه في حيرة وتساءل :

— هل سيكون هجومنا مجرد تثبيت لكى تقوم الكتيبة الأخرى بالهجوم

الفعلى ..؟

وصاح فيه مراد :

— إني أتكلم عربى .. إن عملنا سيكون هجومًا منفصلاً .. أساسياً ..

سننسى أن هناك تطويقًا .. ولا بد أن نأخذ الموقع قبل ظهر غد ..

وصمت برهة ثم صاح بهم :

— هل نستطيع أم لا ؟

وأجاب عسران فى حماس :

— نأخذه ونأخذ أبوه ..

وبدا التشكك فى وجه عبيد .. ولم يعبر وجه عبد الرحيم عن شىء وأردف

مراد يقول :

— ستعاوننا المدفعية فى ضرب مواقع العدو طول الليل .. إني لا أستطيع أن

أحدد لكم الآن تفاصيل الخطة .. لأنه ليس لدى أى معلومات من مواقع العدو

.. وأعتقد أن كل ما علينا الآن هو أن نتحرك بسرعة لكى نصل قبل الفجر إلى

المواقع التى نستطيع منها أن نقوم بهجوم ..

وأشار إلى الخريطة بطرف قلمه :

— إننا سنقف في هذه المنطقة .. هناك جرف نستطيع أن نوزع الدبابات خلفه .. وسنقوم منه باستكشاف سريع .. ونستطيع أن نضع خطة الهجوم بعده .. وإن كنت أعتقد أن المسألة .. لن يكون فيها تعقيد كثير .. فهي لا تحتاج لأكثر من قوة وتصميم وإرادة .. سنضرب العدو بكل ما نملك من نيران .. وسنتقدم لنهرس أجساده تحت دباباتنا .. مفهوم يا ولاد ؟
وأجاب الضباط الثلاثة :

— مفهوم يا فندم ..

— توكلوا على الله .. اذهبوا إلى سراياكم .. وسأقوم بإجراء تفتيش سريع .. المهم عندي أن تتأكدوا من البنزين والذخيرة .. والبطاريات .. لا أريد أن تقف دبابة وسط المعركة لأن المارش لا يدور .. هل يريد أحد منكم أن يسأل
أى سؤال ؟

وسأل عبيد :

— لم تذكر حضرتكم شيئاً عن الشؤون الإدارية ..

— ماذا تريد أن تعرف عن الشؤون الإدارية .. الدبابات تملأ بالبنزين والذخيرة .. وتعين الطوارئ مع العساكر ..

— هل سنأخذ معنا احتياطي في اللوريات ..

— لن نأخذ معنا لوريات .. لا داعي للخيمة .. سيقى كل شيء هنا .. إن المسافة ليست بعيدة .. وأرجو أن تنتهي العملية كلها قبل الظهر ..

— إن شاء الله ..

— تفضلوا ..

ونهض الضباط ثم حيوا .. وقبل أن يغادر عسران الكشك مد يده خلسة إلى الزمزية وهم برفعها إلى شفثيه ..
وخطف منه مراد الزمزية .. فرجاه عسران في استعطاف ..

— ١٢٣ —

- أريد بق واحد .. بق ماء ..
- ماء في عينك .. وعين أبوك .. ألا يكفي ما شربته ..؟
- بق واحد فقط ..
- خذ .. خسارة في حبة عينك ..
- وانطلق الضباط من الكشك يتبادلون النكت .. وقبل أن يغادره مراد
صاح بالعسكري الحارس :
- كما كنت حجز القشلاق .. خذ بالك من ممتلكات قائد الكتيبة .. ومن
زجاجاته .. مفهوم ..
- وأجاب العسكري وهو يبتسم :
- مفهوم يا فندم .. مع السلامة .. ربنا ينصركم ..

الفصل الثالث عشر

عودة مريرة

علا ضجيج الدبابات وثار غبارها .. وهى تتخذ طريقها فى جوف الليل .. إلى أرض المعركة ..

وأحس مراد بالمسئولية الضخمة الملقاة على عاتقه .. وهو يتخذ مكانه فى دبابته وقد لف عنقه ووجهه بكوفية من الصوف الكاكى .. وأخذ يحملق فى الظلمات المتكاثفة أمامه ..

وتذكر الفراش الخالى .. وتذكر جلال ..

وبرغمه .. انزلقت فكرة الموت إلى ذهنه .. وحاول طردها عبثا وعجز عن مقاومتها .. فسلم نفسه إليها .. وتركها تعبت به .. وتقلبه تقليب الشواء على النار ..

ليس بمستبعد أن يلقى حتفه فى هذه المعركة .. برصاصة تندفع فى الهواء .. لا تجد مكانا تستقر فيه سوى رأسه أو صدره .. وتخيل نفسه يتلمس موضعها ويحس سخونة الدماء ولزوجتها .. وتخور قواه ويخر صريعا ..

وتصور جيشه ملقاة فى العراء نهباً للطيور .. أو محمولة على نقالة الميدان .. وتصور وقع موته على الناس .. سيسمونونه بالطبع الشهيد مراد .. وسيلصقون به مختلف الفضائل وينسبون إليه كل أنواع البطولات .. وسينشرون صورته فى الصحف .. ترى هل سيجدون له صورة وجية .. أو سيأخذون صورته الموجودة فى الدوسيه الخاص به بإدارة كاتم أسرار .. لأنها ستكون مقلبا فيه .. فهو يبدو بها أشبه بالبلطجية أو الجزارين .. ليته ترك لهم صورة وجية .. إن

لديه صورة أخذها في ستوديو شبرا .. ببدلة الجيش وهو يتسم كأنه نجم من نجوم السينما .. لا بد أن يراعى هذا الأمر عند عودته .. إذا عاد هذه المرة .. فلا بد أن يدبر أمر استشهاده تديرا جيدا .. وستبكيه أمه .. إنها طيبة وغلبانة .. وستبكيه زوجته .. تلبس من أجله السواد .. وتصبح أرملة .. وسيبكيه ضباطه .. وبعد مدة .. سينساه الجميع ..

أجل .. لن يكون في نظرهم .. أكثر من فراش خال .. بين الضباط .. أو معاش لزوجته ..

وضاق بأفكاره .. وهز رأسه كأنما ينفضها عنه .. وساعد في طردها .. دوى سمع من بعيد .. أخذ يتوالى .. حتى بدا له أن المدفعية قد بدأت في عملها ضد مواقع العدو ..

وأحس مراد بدبابته تنبأ .. وبداله أن الماكينة تقطع في سيرها .. فصاح بالسائق :

- ما الحكاية ؟ ..
- وأتاه صوت السائق من داخل الدبابة :
- الدبابة تقطع ..
- بنزين والا كهرباء ..
- الظاهر .. أنها وساخة في البنزين ..
- لماذا لم تدع الأسطى مرسى يفتش عليها ؟ ..
- لقد قضينا اليوم طوله في تنظيفها وتشحيمها ..
- لماذا إذن تتحجج بوساخة البنزين .. هل جربت البطارية جيدا .. وهل فتشت على الكهرباء ؟
- أجل ..

وصاح مراد في عصبية :

— إذن لماذا تقطع ؟ ..

وهبط مراد إلى الداخل مقتربا من مقعد السائق .. ومد عنقه فأحصا تابلوه
الدبابة صائحا :

— دوس بنزين ..

وأحس السائق بالارتباك من صيحة مراد وعصبيته .. وبدا مضطربا في
عمله .. ولكن الدبابة عادت إلى الانتظام في السير .. فأنقذته من غضب مراد
.. وتمتم يقول معذرا :

— إنها وساخة بنزين .. إن الدبابة على خير حال ..

وقال مراد محذرا :

— خذ بالك جيدا .. وضع عقلك في رأسه .. نحن في معركة ولسنا في

طابور سير .. احذر أن تتوقف بك الدبابة .. وإلا أضعت حياتنا ..

واستمرت الدبابات في السير .. يبدد ضجيجها سكون الليل .. وبين
آونة وأخرى يسمع دوى المدفعية .. من بعيد .. واستغرق ركابها في تفكير
متقطع مضطرب ينتقل بين البيت النائي والأهل الغائبين .. وبين العدو الرابض
.. والمعركة المنتظرة ..

أخيرا أعطيت الإشارة بالتوقف .. وأخذت السرايا تتفرق وانتشرت
الدبابات تحاول أن تتخذ ساترا من ثنايا الأرض ..

وساد السكون .. إلا من الهسهسة والوسوسة .. وفرقة هنا .. وخبط
هناك ..

ومرة أخرى جمع مراد ضباطه وراء دبابته .. وأحس بالاضطراب يتملكه
وهو يفكر في خطة الهجوم .. ويوشك أن يصدر أوامره بها دون أن يكون في
ذهنه شيء محدد واضح .. وأحس بالسخط على قائده الذي ألقى به في خضم

المعركة .. بلا معلومات مفصلة أو أوامر محددة .. كل ما هو مطلوب منه أن يهجم ليستعيد التبة ٨٦ ويطرد العدو ..
واقترب الضباط الثلاثة وقد تدثر كل منهم بمعطفه ولف رأسه بالكوفية ..
ووقف الأربعة ينظر كل منهم إلى الآخر في صمت وقد خيم عليهم سكون رهيب ..

وكان عسران أول من تحدث .. قال وهو يفرك يديه ويخفي رأسه بين كتفيه .. ويتسم في خبث منشدا :

— عطشان يا صبايا .. دلوني على السبيل ..

ولم يتالك مراد نفسه من الضحك فأجابه في سخرية ..

— أشرب من البحر ..

— أشرب من البحر وزمزميتك موجودة ؟ عيب ..

— الزمزية فضيت ..

— أنا في عرض بق .. بق واحد يا عمي .. وأطردلك اليهود من التبة

٨٦ و ٨٧ .. إلى مائة ..

وحاول مراد أن يتخذ سيماء الجدد فقال ناهرا :

— عسران أفندي .. نحن في ميدان قتال .. في أرض المعركة ..

— بق واحد .. يا حضرة القائد أنا أطرافي تلجيت ..

ومد مراد يده فأخرج الزمزية ودفع بها إليه ورفعها عسران إلى فمه

وتناول جرعة ثم مصمص بشفتيه في استمتاع .. وأعاد الزمزية قائلا وقد رفع

رأسه وشد صدره :

— أوامر سعادتك ..

وبدت الحيرة على وجه مراد .. وبعد برهة صمت رفع رأسه قائلا :

— اسمعوا يا ولاد .. إني لا أستطيع أن أضغ خطة معينة حتى الآن .. ولكني

أعتقد أننا نستطيع أن نهجم بسريتين .. ونضع سرية في الاحتياط تستر هجومنا ..

وقال عسران بلا تفكير :

— سأكون أحد سريتي الهجوم ..

وقال عبد الرحيم :

— وأنا سأكون السرية الأخرى ..

وقال مراد :

— إذن عليك يا عبيد أن تبقى في مواقعك وتستتر هجومنا ..

وقال عبيد في دهشة وتشكك :

— أهذه هي كل خطة الهجوم .. أليس هناك أوامر عمليات .. أو أوامر

إدارية ..

ونظر إليه عسران وأجابه في سخرية :

— اتنيل .. بلا أوامر إدارية بلا عمليات .. اترزى في مواقعك .. وسلط

مدافعك على مواقع العدو .. هذا هو كل ما هو مطلوب منك .

وأجابه عبيد في غضب :

— تأدب يا عسران أفندي .. أنا لا آخذ أوامري منك .. أنا آخذ أوامري

من قائد الكتيبة .

وتدخل مراد قائلاً في هدوء :

— وبعدين .. أهذا وقته ؟ ..

وأجاب عبيد :

— أريد أن أعرف أوامري بالضبط ..

— قلت لك اثبت في مواقعك واستر الهجوم .. ماذا تريد أكثر من ذلك ؟

— وأين مواقع العدو ؟؟ ..

— ألا تعرف أين مواقع العدو ؟ ..
وقبل أن يجيب عبيد .. سمع صوت دوى .. وأعقبه انفجار ثم تبعه طلقات
متتالية من مدفع ماكينة ..
وأنصت الجميع ، وأرهفوا آذانهم إلى مصدر الطلقات وقال عسران هامسا
لعبيد :

— أعرفت يا شاطر .. أين العدو ؟
وقال مراد :

— اسمعوا يا جماعة .. لا نريد أى ضوء أو صوت أو حركة .. اذهبوا إلى
سراياكم .. وأمروا العساكر بأن تصمت تماما .. لا نريد أن يعرف العدو
مواقعنا قبل أن نبدأ الهجوم .. نحن لا نريد أن نموت فطيس ..
وحلق مراد في اتجاه الطلقات .. وأرهف سمعه .. ولكن الصوت كف عن
الإنطلاق ..

ونظر عبد الرحيم إلى الساعة .. ثم رفع بصره إلى الأفق الشرقى وتمتم قائلا :
— لا أظن أماننا وقتا طويلا ..
وقال مراد :

— اذهبوا إلى سراياكم ودعوا العساكر تستريح في أماكنها .. وعندما
تطمئنون على كل شيء عودوا إلى ..
وعاد الضباط إلى سراياهم .. وأخذ الوقت يمر بطيئا رهيبا .. وبين آونة
وأخرى يسمع صوت دوى .. أو دفعة طلقات متتالية ..
ورويدا رويدا .. بدأ ضوء النجوم يخفت .. وسواد الكون يستحيل إلى
رمادية باهتة ..

والتف الضباط مرة أخرى حول مراد وقد رقدوا على بطونهم فوق حافة
تلة مرتفعة وأخذوا يمدقون في الفراغ الذى تبددت منه الظلمة وتسرب إليه

الضوء باهتا شاحبا .. وأخذت تلوح لأعينهم تفاصيل الثبات وبدت عليها أشباح وهياكل لا تستطيع العين أن تفسرها ..
ووضع الضباط الراقدون منظارا الميدان على أعينهم فلم يستطيعوا أن يميزوا بها شيئا ..
وقال مراد :

— اسمعوا يا جماعة .. لا نريد أن نضيع وقتنا في الاستكشاف ، إننا في أشد الحاجة إلى الثواني والدقائق .. ويبدو لنا أن ما نكسبه من المفاجأة لو هجمنا الآن خير بكثير من أى معلومات يمكن أن نحصل عليها لو انتظرنا ..
ما رأيكم ؟ ..
وأجاب عسران ..

— معك حق .. إني على استعداد للهجوم ..
— إذن خذ سريتك .. واهجم في اتجاه اليمين .. إني أستطيع أن أجزم بأن العدو قد احتل هذه التبة التي على يمين الكودية .. فمن هذا الاتجاه صدرت طلقات المدفع الذى سمعناه بالليل .. هل تريد تفاصيل أو أسئلة ؟
وقال عسران وهو يسحب جسده للخلف :

— لا أريد شيئا ..
ولكن قبل أن يستدير لينطلق إلى سريته عاد يقول :

— أريد شيئا واحدا ..
— ما هو .. ؟
— بق من الزمزية ..
وألقى إليه مراد بالزمزية .. وهو يضحك قائلا :

— خذها كلها يا أبو عسران .. وإذا طردنا العدو وعدنا سالمين .. لك عندي زجاجة جون هيج ..

— يا نهار أسود .. زجاجة جون هيج برأس بن جوريون بعد لحظات ..
سلام عليكم ..
وانطلق عسران يعدو إلى دبابته ..
واستمر مراد يتحدث إلى عبيد وعبد الرحيم .. وما لبث الثلاثة أن عادوا
أدراجهم إلى دباباتهم ..
وبعد لحظات بدأت السرايا في التحرك .. علا الضجيج .. وثار الغبار ..
وخرجت الدبابات من مكنها ..
وفي نفس اللحظة .. بدأ الدوى من الجانب الآخر ..
بدأ خفيفا متقطعا .. واستمرت الدبابات في الزحف .. واستمر الدوى في
التزايد والشدة ..
وأخذ مراد يرقب تقدم الدبابات وقد جلس في دبابته مع سرية الاحتياط
التي اتخذت مواقعها وراء الجرف .. وأخذت تطلق مدافعها صوب مواقع
العدو ..
وبدأت القنابل تتساقط هنا وهناك .. والدبابات مستمرة في زحفها ،
ومراد يرقبها وقد شدت أعصابه .. وزاد قلقه وهو يحس كأنما قد ألقى بحزمة
القش في جحيم من النيران .. أو بكوم من السمك في أفواه الحيتان ..
وسمع مراد دويا أشد من كل ما سمع منذ بدء المعركة .. وأبصر انفجارا
شديدا في الناحية التي تقدمت منها سرية عسران .. وبدأ في الجو خليط من
الغبار والدخان .. ثم أبصر عمودا من النيران يتصاعد من إحدى الدبابات ..
وتبين من مكانها في المقدمة .. إنها دبابة عسران .. ولم يبالك نفسه من الصراخ
في جزع .. وصاح قائلا :

— يا نهار أسود .. دبابة عسران تحترق ..
وأحس كأنما قد طعن في صميمه طعنة نجلاء .. وأصابه ذهول مفاجيء

أعجزه عن النطق والتفكير .. وظل يحملق من مكانه في الدبابة المحترقة .. وبدا له أن السرية كلها قد توقفت عندما أبصرت دبابة قائدتها تحترق وتتوقف .. وفجأة صاح مراد بسائق دبابته :
— تقدم وراء السرية الأولى ..
ثم تلفت إلى عبيد صائحا :
— يا عبيد .. لقد احترقت دبابة عسيران وتوقفت سريته .. سأقدم لقيادتها بدله .. وتقدم أنت بسريتك بين السريتين واستمر في الهجوم ..
ودارت دبابة مراد .. واندفعت إلى أرض المعركة .. لتلحق بسرية عسيران .. بين وابل من القنابل والرصاص ..
ووصل مراد إلى دبابة عسيران .. فإذا بها فحمة سوداء .. لا أثر فيها للكائن
حي ..

وأحس بشيء يعتصر قلبه ويدهمى جوفه .. ولكن جحيم المعركة المشتعل حوله لم يترك له فرصة للتفكير أو الحزن .. واستمر في السير مشيرا لبقية الدبابات أن تعاود التقدم ..
وسارت الدبابات عدا واحدة .. لم تكد تتقدم حتى انفجر في أسفلها لغم أطار جنزيرها .. فتوقفت عن الحركة .. واستمر مدفعها يصوب نيرانه فجأة تجاه العدو دون أن تستطيع الدبابة التقدم ..
ومضت برهة والدبابات مستمرة في سيرها .. وسيل من النيران يندفع من فوهات مدافعها ليجيب على الجحيم الصادر من الجانب الآخر ..
وبعد لحظة توقفت دبابة أخرى بعد أن أصيبت في مقدمها أصابة مباشرة .. ولحظة أخرى .. وتوقفت دبابة ثالثة بعد أن طار برجها ..
وكلما ازداد تقدم الدبابات .. ازداد تساقطها ..
وتلفت مراد حوله .. فإذا بكل الدبابات تقريبا قد توقفت .. ولم يعد

يتقدم منها إلا بضع دبابات ..
وأحس باليأس وهو يتلفت حوله .. وما زالت مدافع العدو تصلى أرض
المعركة وابلا من النيران ..
ولم يجد بدا من الانسحاب .. فقد كان التقدم أبعد من هذا ضربا من
الجنون .. لا سيما وقد أخذت الألغام تتكاثر من حوله كلما تقدم ..
وأصدر أوامره بالانسحاب .. وأمر سائق الدبابة بالدوران للعودة ..
وسحب السائق أحد عصي الدوران .. وضغط على البنزين ودارت
الدبابة نصف دورة .. ثم توقفت ..
وداس السائق على المارش .. فلم يدر ..
وصاح مراد في حنق وقد انهالت القنابل من حوله :
— مالك .. ماذا حدث ؟ ..
— المارش توقف ..
— لماذا ..؟
— الكهرباء هربت ..
— هربت ؟ ..
— أجل ..
— كيف ؟
— لست أدري .. لا يوجد كهرباء ..
— اضغط على المارش ..
— لا يوجد كهرباء أصلا ..
وأحس مراد أنه يوشك أن يجن .. ووجد أن المدفعية قد توقفت عن
الضرب .. والتفت إلى السائق فصاح به :
— استمر في الضرب .. أيها الغبي ..

وعاود المدفعجى الضرب .. وأطلق بضع طلقات ثم توقف ثانية فصاح به
مراد :

— لماذا عدت إلى التوقف .. استمر ..

— لقد نفذت الذخيرة ..

— ما شاء الله .. مدفع بلا ذخيرة .. ودبابة بلا كهرباء !

وأحس مراد بالمأزق الذى وضع فيه .. لقد أضحى سجيناً فى دبابة لا
تستطيع الحراك ولا تستطيع الضرب ..
ولم يطل به التفكير .. فقفز من البرج وصاح ببقية الطقم أن يغادر
الدبابة ..

لقد كان عليهم أن ينجو بجلودهم .. قبل أن يقضى عليهم العدو أو يأخذهم
أسرى إذا فكر فى هجوم مضاد ..

ونظر مراد إلى دبابته وقد وقفت عاجزة فى أرض المعركة .. إنها عزيزة عليه
.. ولكنه لا يستطيع أن يأخذها معه .. ولا يستطيع كذلك أن يتركها سليمة
ليستعملها العدو ..

وفى الموقف اليائس المميت .. أمر مراد الطاقم بالانسحاب على قدميه بعد
إحراق الدبابة ..

وبعد برهة انفجرت الدبابة وعلا منها عمود من النيران والدخان ..

وبدأ الطاقم ينسحب زحفاً بين الرصاص المنهال حولهم ..

واستمر مراد يزحف .. فى إعياء .. وقد تملكه إحساس بالمرارة وبالأس
والذل ..

وكان أكثر ما سبب له المرارة .. هو عودته وحده .. بلا كتيبة .. ولا جنود
ولا ضباط .. ولا حتى دبابة ..

الفصل الرابع عشر

انتصار الحطام

قطع مراد المسافة إلى رفح سيرا على قدميه .. يتبعه طاقم دباباته عدا واحدا أصابته شظية صرخته خلال الانسحاب زحفا من أرض المعركة .
وأحس مراد بقدميه لا تكادان تقويان على حمله .. كان السهر والمشقة والجهد وطول السير قد أخذت منه كل مأخذ .. وكانت الأحوال التي لاقاها ومرارة الهزيمة التي ذاقها قد هدت قواه وحطمت أعصابه .. حتى بات يخيّل إليه وكأن ما مر به .. لم يكن سوى كابوس مزعج .. لن يلبث حتى يفيق منه ..

لم يصدق أن دباباته قد دمرت .. وأن كتيبته بأكملها قد رقدت في أرض المعركة حطاما وركاما .. وإذ لم يعد من كل قواته المسلحة .. من دباباته ومدافعه وضباطه وجنوده .. إلا وهو .. يسعى أعزل منهارا محطما .. كشحاذى الجوامع .. أو أسرى الحرب ..
كان خيرا له ألا يعود .. أن يصرع بشظية من العدو .. أو رصاصة من مسدسه هو ..

ألا يبقى ربان السفينة .. على ظهرها حتى يفرق معها ؟ .. لماذا لم يفعل هو ذلك ؟ .. لماذا لم يبق مع كتيبته حتى يلقى حتفه ..
ولكن أية كتيبة تلك التي يبقى معها .. إنه لم يكن يرى منها سوى السنة نيران وأعمدة دخان .. وأشلاء مهشمة وبقايا محطمة ..
كان جنونا منه أن يلقى بقواته في هذا الأتون المستعر .. وأن يهجم في تلك

الأرض المكشوفة ليووجه العدو المستعد بكل ما لديه من أسلحة دفاع ..
ولكن كان عليه أن ينفذ الأوامر ..
لقد كان يعلم من قبل أنها عملية انتحارية ..
ولكن لماذا يقدم على الانتحار ؟ .. ولماذا يسوق كل هؤلاء الذين تبعوه
ووثقوا به إلى الانتحار ؟ ..

— لقد كان يتوقع الهزيمة .. ولكنه لم يتوقع الفناء ..
كان يمكن أن تحمل به الهزيمة .. فيفشل في الاستيلاء على موقع العدو ..
ولكنه يعود بكتيبته بعد أن يفقد بضع دبابات .. ومعها بضعة جنود ..
أما أن يفقد الكتيبة بأكملها .. حتى السرية الاحتياط .. التي دفعها بحمق إلى
الهجوم بين السريتين ..
كان مندفعاً .. إذا تخيل أنه لو ألقى بكل قوته في عنف وجرأة .. فقد يزعزع
دفاع العدو .. ويفقد ثقته بأسلحته .. ويوهمه بأن وراء تلك القوات المهاجمة
.. قوات أخرى ..

لقد كانت خطته مبنية على الاندفاع الجنوني ..
وكان يعتقد أن هذا هو المطلوب منه ..
ولكن النتيجة .. كانت بشعة ..
وتصور دبابة عسران .. تأكلها النيران .. ويلفها كوم من الدخان الأسود
.. ثم ينحسر كل هذا عن هيكل أسود .. لا أثر فيه لكائن حي ..
وأحس بقواه تنحور .. وبدا له أن يرمى على الأرض .. عندما سمع صوت
عربة .. ثم بدت له لإحدى عربات المدفعية .. وفتح مراد باب العربة وارتمى
بجوار السائق وأشار للجنديين اللذين يتبعانه أن يركبا في الخلف ..
وقال مراد للسائق في إعياء :

— اذهب بنا إلى رئاسة الدبابات ..

ونظر السائق إلى مراد في إعجاب .. وقال وهو يدير العربة :
— مبروك يا فندم ..
ورمق مراد السائق في دهشة .. وخيل إليه أنه يسخر به فأجابه متسائلا في
تهكم ومرارة :
— على إيه .. يا روح أمك ..
وخذل السائق من لهجة مراد المتهمكة .. وقال في لهجة أقل أعجابا وأكثر
حذرا :
— سمعنا أن اليهود طردوا ..
— طردوا من أين ؟
— من التبة ٨٦ ..
وازداد غيظ مراد .. وعاد يسأل السائق في حنق :
— من طردهم ؟
— الدبابات ..
— الدبابات ؟ من قال لك هذا ؟ ..
— كل العساكر ..
ولم يجب مراد .. بل أغمض عينيه وازداد إحساسا بالمرارة .. لقد أشاعوا
أن الموقع سقط .. والمفروض أن يعود إليهم .. ليتلقى تهنئتهم ..
أى سخرية أشد من هذا .. وأكثر مرارة ..
ليقولوا .. ما يقولون .. لعن الله أباهم .. أجمعين ..
لأنه لا يريد أن يرى أحدا .. مطلقا ..
سيأخذ إجازة .. ويذهب إلى الإسماعيلية .. إنه محطم الأعصاب ..
ولو مكث لحظة أخرى .. في هذا الجو .. لأصابه الجنون ..
ووصلت العربة إلى رئاسة الآلاى .. ونزل مراد .. يجر ساقيه .. وهو

يوشك أن يسقط من الإعياء .. ولم يكذب يقترب من باب الخيمة .. حتى أبصر اليوزباشى عبد المنعم أركان حرب الآلاى يندفع منها ليحتضنه في لهفة ويهتف به :

— مبروك يا مراد ..

ولم يحتفل مراد .. فقد كان مفروضا في أركان حرب الآلاى أن يكون أكثر تحفظا في تصديق الشائعات .. وأن يكون على بينة أصدق بما فعلته وحداته ..

وكان مفروضا فيه أن يكون أعقل من هذا .. فينتظر حتى يعرف منه المعلومات الصادقة .. بدل أن يندفع هكذا ليعانقه ويهتفه بمجرد شائعات أشاعتها العساكر ..

وضاق مراد بتهنئة عبد المنعم فدفعه عنه في عنف وصاح به :

— مبروك علام ؟

— على طرد اليهود .. وسقوط الموقع ..

— سقوط الموقع .. ما هذا الهديان !..

— هديان ؟

— طبعا هديان .. ومن ؟ من أركان حرب الآلاى .. المفروض فيه أن يكون على علم بكل شيء .. وأن يكون أول من عرف بالكارثة التى وقعت .. وأن يعد الإمدادات لإنقاذ الكتيبة التى فنت عن آخرها .. بدل أن يقف هكذا كالمهايل .. ليقول مبروك .. الموقع سقط .. من قال لك هذا يا حضرة الأركان حرب .. من أين استقيت معلوماتك .. من أى بوليس أديخانة ؟

ونظر عبد المنعم في ذهول إلى ثورة مراد وقال دهشا :

— مراد .. ما هذا الذى تقوله .. هدىء أعصابك إن الموقع قد سقط

فعلا ..

وازداد مراد حدة وغضبا وصرخ فيه :

— كيف سقط؟ .. سقط بالسرايا المحطمة المتناثرة أمام مواقعه .. سقط
بالمدافع الصامتة التي نفذت ذخيرتها .. سقط بالدبابات العاطلة .. الفارغة
البطاريات .. قل لي كيف سقط .. بالجنود الجرحى التي لا تجد من يضمدهم
جراحها .. بعسران المحترق داخل دبابته .. والذي لا يجد من يعيد إلينا جثته
.. قل !.. انطق ؟

وكانت ثورة مراد قد بلغت أشدها .. وعلا صوته وخرج الزبد من
شفتيه ..

واندفع قائد الآلاى من داخل الخيمة .. على صوت صياحه .. وأمسك
بذراعه يسوقه داخل الخيمة قائلا :
— ماذا حدث ؟

ونظر إليه مراد وهو يضغط على ضروسه .. ثم انفجر صائحا :
— ألا تعرفون ماذا حدث؟ .. الكتيبة فنتت عن آخرها .. معظمها احترق
وتدمر .. والبقية .. لا بد أن تكون الآن في أيدي العدو .. وأنتم تجلسون هنا
لتقولوا .. مبروك .. الموقع سقط .. ألف مبروك .. نحن نفنى .. وأنتم هنا
تتبادلون التهاني .. وطبعا أرسلتم للقيادة بالأنباء السارة .. والقيادة .. أرسلت
إلى الباشوات الذين يجلسون في كوبرى القبة .. وغدا يقرأ الناس أنباء
انتصاراتنا .. وبعد هذا تسألنى ماذا حدث ؟

ونظر إليه قائد الآلاى فى هدوء وربت على كتفيه قائلا :
— اجلس .. أنت متعب ..

وصاح مراد :

— لن أجلس .. لا أريد أن أشتغل معكم .. اخرجوا أنتم لتعرفوا ما حدث
.. اخرجوا .. لتفعلوا شيئا .. لتتقنوا بقية الدبابات من برائن العدو .. لتتقنوا

جرحانا .. لتسحبوا جثتنا .. بدل أن تجلسوا للتصدقوا شائعات العساكر ..
وتقولوا أن الموقع قد سقط ..
واستمر قائد الآلاى ينظر إلى مراد نظرتة الهادئة .. الصابرة .. ثم عاد يربت
على كتفيه قائلاً فى منتهى الهدوء :
— اجلس يا مراد .. استرح .. هدىء نفسك .. إن الموقع قد سقط
فعلا ..

ونظر إليه مراد وقد جحظت عيناه وبلغ غيظه أشده وصاح به :

— من قال هذا ؟

— أنا .. أنا أقوله ..

— من أبلغك ؟

— أبلغتنى عيناي .. وليس بوليس الأديحانة كما تقول .. إن الموقع قد سقط
.. انسحب منه اليهود .. واحتلته أورطة مرسى .. ودباباتنا ترابط الآن فيه فعلا
.. حتى تتسلمه المشاة .. أتأكدت أنه سقط .. اجلس .. اجلس واسترح ..
أنك متعب ..

وارتمى مراد على أقرب كرسي وأسند رأسه بكفه وأخذ يضغط عليه بعنف
وعصبية .. كأنه يحاول أن يوقف نفسه من كابوس ثقيل .. ثم رفع عينيه إلى
القائد وتساءل فى دهشة :

— غير معقول .. إني لا أصدق .. كيف حدث هذا ؟ .. لقد تركت
الكتيبة محطة أمام مواقعه ..

— لقد حطمت بعد أن دمرت معظم أسلحتهم .. وبعد أن هزت دفاعاتهم
.. وضربتهم ضربة قاسية وتركتهم منهوكى القوى .. وعندما قامت كتيبة
مرسى بالالتفاف من الجنوب والشرق وأشرفت على مواقعهم .. أصابهم
الفرع .. بعد أن ظنوا أنهم قضوا على هجومنا الأصلي وأنها المعركة .. ولم

يحاولوا الدخول معنا في معركة أخرى .. احتلنا التبة بكتيبة مرسى دون أن يطلق طلقة واحدة ..

وفغر مراد فاه .. وبدا عليه الدهول وهو يستمع إلى قائد الآلى .. وعاد يردد قوله .. وكأنما يحدث نفسه :

— احتلتم التبة .. دون أن تطلقوا طلقة واحدة .. وفقدت أنا كيبتي .. وعدت ماشيا كالمتسول .. دون أن أحتمل شيئا ..

وقال عبد المنعم وهو يربت على كتفه في رفق :

— لا تقل هذا .. إننا لم نتصبر إلا بفضلك ..

وبدا كأن مراد لم يسمع شيئا من حديثه .. واستمر يردد بلهجته الشاردة :

— لقد تركت دباباتي محطة .. وجنودي أشلاء .. وعسران محترقا .. وعدت كالشمريد .. الهائم .. الضائع ..

وقال البكياشي منصور في لهجة حازمة :

— قد أرسلت إليهم الإسعاف والمؤونة من غزة .. وضباطك بخير وعسران سيوضع في سجل الشهداء الخالدين .. ونحن قد انتصرنا ..

وأجاب مراد في عصبية وحدة :

— نحن ؟ .. من نحن ؟ .. الذين ركبوا الدبابات وساروا كأنهم في نزهة .. وحاول قائد الآلى أن يخفي انفعاله وأجابه في هدوء :

— نحن جميعا .. آلى الدبابات .. الذى نعمل فيه كلنا .. من أقل عسكري إلى أكبر ضابط .. إن انتصار أحدنا .. انتصار للآخرين .. لقد انتصر الآلى ..

.. وعندما ينتصر الآلى نكون كلنا قد انتصرنا .. وتكون أنت قد انتصرت ..

— أنا لم أنتصير .. لقد كنت كيش الفداء .. لقد دفعت كيبتي إلى الفناء

.. ودفعتنا إلى الانتحار ..

— أنت الآن متعب .. ويجب أن تستريح وتريح أعصابك .. وعندما تهدأ ستعرف أنك انتصرت .. وسيدكر الناس أنك أديت واجبك ..
— لن يذكر الناس إلا أنني عدت هائما على وجهي بعد أن أحرقت دبابتي .. وحطمت كتييتي .. سيدكر الناس أن قائد كتيبة الدبابات الأولى عاد سائرا على قدميه .. بعد أن مزق العدو كتيبته إربا .. وسيدكر الناس أنك ومرسى قد طردتما اليهود .. هذا هو ما سيدكرونه .. لقد كنت تعرف النتيجة سلفا .. ولذلك ذهبت مع مرسى .. ولم تذهب معي .. ولو كنت شجاعا لذهبت معي .. ولكنك كنت تريد قتلى .. لأنك تكرهني ..
وتدخل عبد المنعم مقاطعا :

— مراد .. ما هذا الذي تقوله .. لا تدع أعصابك تخونك .. وتندفع في الخطأ ..

ونظر إليه قائد الآلاى مليا وقد بدا عليه غضب مكنوم وقال :

— أنت تتحدث وأنت في غير وعيك .. ولن أؤاخذك على شيء مما تقول .. تفضل الآن .. وعد إلي عندما تكون أهدأ حالا ..

— لن أعود إليك .. سأطلب نقلى ..

— سأمنحك إجازة تستريح فيها .. وأنا واثق أنك ستعود إلى صوابك .. ومد عبد المنعم يده فسحب مرادا من ذراعه قائلا :

— هيا يا مراد .. يجب عليك أن تستريح ..

— لن أستريح حتى أنقل من هذا الآلاى ..

— ليس هذا وقت نقل .. إن كتيبتك في حاجة إليك ..

— لم تعد لي كتيبة ..

— بل ستعود كما كانت .. وخيرا مما كانت ... كل خسائرك ستسد ..

وسيعوض لك كل النقص في الدبابات والعربات .. هيا بنا .. لا تستسلم
للغضب واليأس ..

وخرج مراد من الخيمة مع عبد المنعم وركب الاثنان إحدى عربات الجيب
وقال عبد المنعم :

— أتريد أن تذهب إلى العريش ..؟

ولم يجب مراد .. وبدا عليه الشرود .. وعاد عبد المنعم يقول :

— يجب أن تستريح فترة من الوقت .. وأؤكد لك أن كل شيء سيعود كما

كان .. سأذهب معك الآن إلى العريش .. ما رأيك ؟

وقبل أن يسمع إجابته قال للسائق :

— اذهب بنا إلى العريش ..

وأدار السائق العربة .. وقبل أن يتحرك قال مراد :

— مر بنا على الكتيبة أولاً .. حتى أحضر ملابسى ..

ووقفت العربة أمام الكشك الصاج .. وهبط مراد منها ودلف إلى

الداخل ..

وألقى على الكوخ نظرة سريعة شاملة .. ثم استقر بصره على فراش

عسran ..

وتذكر صاحب الفراش .. تذكر جرأته .. ومجونه ومرحه .. تذكر قوامه

الطويل ووجهه الأسمر .. وتذكره وهو ينشد (عطشان يا صبايا) ثم تذكر

آخر ما رآه منه وهو يخطف الزمزية .. ويندفع إلى دبابته صائحاً « جون هيج

برأس بن جوريون » ..

لن يراه .. بعد الآن ..

ما أسرع ما ينتهي الإنسان ..

في لحظة يكون .. وفي اللحظة التالية يختفي ..

الفاصل بين أن يكون .. وألا يكون .. لحظة واحدة ..
كان يمكن أن تأخذ نهاية الإنسان وقتنا أطول ..
هذا الكائن الضاحك الصاحب المتحرك المفكر .. الذى يفعل أشياء كثيرة
.. كان يجب ألا ينتهى بهذه الطريقة الخاطفة .. كان مفروضا أن يكف عن كل
أفعاله الكثيرة شيئا فشيئا ..
ومد مراد يده ليتناول بدلة الميدان من فوق المشجب فوجد تحتها بدلة
عسران .. لقد سبق أن نهه دائما ألا يستعمل مشجبه .. وتحسس مراد البدلة
.. وأحس بكل مشاعره الجامدة تذوب .. وبأعصابه المتوترة تتحلل ..
وبدموعه تنحدر من مآقيه .. وإذا به يندفع فى نوبة بكاء .. كأنه طفل ..
ودخل عبد المنعم وأمسك به يخرججه من الكوخ .. وقبل أن يصل إلى بابه
تلفت خلفه .. وقال فى صوت يخنقه البكاء وهو يشير إلى فراش عسران :
— لقد زادت الفراشات الخالية واحدا ..

الفصل الخامس عشر

ومض البرق

وصل مراد إلى بيت العريش .. منهكا .. محطما ..
ولم تكن غيبته قد طالت أكثر من سواد الليل ونصف النهار .. ومع ذلك
بدا له وهو يقبل على البيت كأن دهرًا قد مضى ما بين تركه للدار ليلة أمس
وعودته إليها ظهيرة اليوم ..
وكأنما قد ساءه بعد الليلة الليلاء الحمراء — حمراء فعلا لا مجازا — وبعد
الدمار الذى أمضى فيه ليلته .. أن يجد البيت على حالة من السكينة والهدوء ..
وعدم الإحساس بالأحوال التى مر بها .. فتملكه نحو أهله نفس الشعور العدائى
الذى تملكه لقاتله .. والذى أحس به لكل من حوله من الأحياء المنعمين أو
شبه المنعمين .. وداخله إحساس بأن لا شيء يستحق التضحية .. وإن
الاستشهاد سخافة .. والفداء حماقة .. والبطولة خبل ..
وكان أول من لقيه من أهل البيت .. نهى .. بجسدها التحيل وعينها
الواسعتين ووجهها الشاحب وضمائرهما المجدولة المدلاة على كتفيها .
كانت تجلس على حجر فى مدخل البيت .. ونهضت لتحيته حين مر بها ..
وبدا لها من مظاهر الإعياء البادية عليه والغبار الذى علا جسده إنه لم ينم ليلته
.. وإنه أتى عملا شاقا مرهقا ..
وودت لو سأته عما فعل .. ولكنها كانت تخشاه وترهب الحديث إليه ..
لو أن إبراهيم هو الذى ذهب .. وخاض غمار معركة .. وعاد مرهقا متعبا
.. لأقبلت عليه فى لهفة .. وسألته عما فعل .. وكيف قاتل اليهود .. وكيف
(طريق العودة)

مهد لها طريق العودة ..

ولكن إبراهيم لا يذهب للقتال .. ولا يخوض غمار معركة .. ولا يفعل شيئا غير التطلع إلى وجه ليلي .. والحديث معها ..
ومر بها مراد .. ورمقها بنظرة خاطفة ثم تساءل :
— من بالداخل ؟

— السيدات .. إنهن ينتظرنك على الغداء ..

— ينتظرنني أنا ؟ كأنما قد ذهبت في نزهة .. لقد كان مفروضا ألا أعود ..

— حمدا لله على السلامة ..

— أى سلامة ؟ .. لقد عدنا ..

— ولماذا لم تعدموهم أنتم ؟ ..

— لماذا ؟ .. والله لا أعرف .. لا أعرف لماذا لا نقتل هؤلاء الكلاب ونفجهم

عن آخرهم .. بل لا أعرف لماذا تركتموهم يطردونكم من دياركم .. لماذا لم

تطردوهم أنتم .. وتريجونا ..

— لم يكن معنا سلاح ..

— كان يجب ألا تتركوا بيوتكم أو تموتوا فيها .. لو أنكم كلكم بقيتم هناك

.. لعرفتم كيف توجدون بينهم طابورا خامسا .. أو مقاومة شعبية تسهل عمل

من بالخارج .. ولما تركتمونا نعمل الآن كأننا نحاول أن نغزو دولة معادية ..

بدل أن نستعيد وطننا مغزوا ..

وطأطأت نهبى رأسها وهي تسير بجواره .. وأحست بشيء من الضيق

والألم .. لم تفهم الطابور الخامس أو المقاومة الشعبية .. ولكنها فهمت

ما يقصد .. وأحست أنه على حق .. ولو كان الأمر بيدها لما هربت .. بل

لفضلت الموت في ربوتها وعلى دربها وتحت كرمها ..

ولكن ماله يتحدث بقسوة هكذا .. كأنما هو خصم للناس كلهم ..

وكأنه يود أن يقاتل الجميع ..
إن إبراهيم لا يفعل هذا أبدا .. إنه يعطف عليها بلا لوم .. ويحنو عليها
بلا تأنيب وتقرير .. ولو خرج ليقاتل .. لعاد مرحا بشوشا ..
ولكنه للأسف .. لا يقاتل .. بل يجلس للحملقة في ليلي ..
ومرة أخرى أحست بنفور من ليلي .. إنها رغم كل ما بها من فضائل ومزايا
.. لا تحبها ..
ومهما حاولت أن تستر هذا الشعور .. الذى لا يغلب عليه الحب .. فهى
تضيق بها .. وباستحوادها على اهتمام إبراهيم ..
وعبر مراد الباب إلى الداخل .. ووراءه نهى ..
وجد السيدتين قد جلست إحداهما قبالة الأخرى .. مديحة كعادتها
منهمكة في عمل التريكو .. وليلى تلاعب الصغيرة نادية ..
ولم ينهض لاستقباله أحد .. لقد قوبل كما يقابل كل يوم .. لقد رجع في
نفس الموعد .. وغياب الليل لم يكن أمرا غير طبيعى .. فقد تعودته منه في بعض
الأحيان ..
لم يبد على أحد أنه شعر بما لاقاه .. بالمعركة التى خاضها .. وبالمشقة التى
عاناها .. وبالموت الذى واجهه ..
رفعت ليلي إليه بصرها .. ودون أن يبدو على وجهها أى تعبير .. قالت :
— أهلا ..
ولم تكلف مديحة نفسها مشقة رفع عينيها .. لفحصه .. فقد ميزته بخطواته
.. وكفتها أذناها مشقة التطلع .. وقالت :
— كيف الحال ..
ونظر إليها مراد في حنق مكبوت وقال في سخرية :
— رضا .. كانت سهرة رائعة ..

- وقبل أن يستمر في سخريته .. أحس من ورائه وقع أقدام إبراهيم وسمع
صوته .. وهو يدلف من الباب ويرحب به في حماس :
- أهلا مراد .. حمدا لله على السلامة ..
— الله يسلمك ..
— مبروك ..
— الله يبارك فيك ..
— سمعنا أنكم استرددم التبة ٨٦ .
— أنا أيضا سمعت هذا ..
— سمعت ؟ المفروض أنك فعلت .. لا سمعت .
— المفروض ..
— لست أفهم ما تقصد .. لقد قالوا أنكم استرددموها .
— جائر ..
— جائر؟! أألس متأكدا .. إن الدبابات هي التي استردتها ..
— جائر أيضا ..
— كيف؟ .. ألم تخرج بكتيتك لاستردادها ..
— خرجت ..
— وماذا فعلت ..؟
— لم أستردّها ..
— هل التبة في أيدي اليهود حتى الآن .. لقد طلبوا مني إرسال فضيلة
لإصلاح الطريق هناك .. فكيف أرسلها إذا كنتم لم تستردوها ..
— لقد قلت إنى لم أستردّها أنا ..
— من الذين إستردّها إذن ..
— الكتيبة الأخرى .. لقد كنت مخلب قط .. احترقت أنا .. وأكلتها

هى ..

— هى أو أنت واحد .. المهم أن التبة استردت .. وإنكم أنتصرتم ..
وبدت لهجة الخلة فى صوت مراد .. وبدأت ثورته المكبوتة تنفجر :
— لم أنتصر .. لم أشعر بالانتصار .. لقد حطم الكلاب دباباتى ودمروا
كتيبتى .. وقتلوا جنودى وضباطى وعدت سائرا على قدمى كالشريد ..
فكيف أشعر بالانتصار .. الانتصار هو أن تشعر أنك اقتصصت لنفسك ..
ورأيت مصرع عدوك أمام عينيك .. أن تمزق جلده .. وتمص دمه .. أن تمزقه
لربا .. وتحس أنك فعلت به أضعاف ما فعل بك .. هذا هو الانتصار ..
وضحك إبراهيم وأجابه قائلا :

— أنت تريد انتصارا فى قتال الغاب .. تريد انتصارا خاصا .. لا انتصارا
للمجموعة التى تحارب فيها .. إن هزيمتك قد تكون جزءا من الانتصار العام
.. فلا تكن أنانيا ..

وصمت إبراهيم برهة ثم أردف فى مرح ..
— هيا بنا نأكل .. لا بد أنك جائع .. إن أكلة دسمة .. وحماما ساخنا ..
ونومة مريحة .. ستعيد إليك الطمأنينة والثقة ..
سأمنحك كأسا من الويسكى يهدى أعصابك .. وبعد الغداء ادخل
الفرش وأغمض عينيك ولا تستيقظ إلا غدا .. هيا ..

وارتمى مراد على المقعد فى إعياء قائلا :

— لن أستحم ولن أنام .. سأتناول لقمة ثم أذهب ..

وتساءلت ليلى فى شىء من الدهشة :

— إلى أين ؟

— إلى الإسماعيلية ..

— وله .. ؟

- عندى مأمورية لا بد أن أؤديها ..
— مأمورية وأنت فى هذه الحال ..
— ماذا بى .. ما زلت حيا أرزق .. لم أنقص يدا ولا ساقا ..
وتدخلت مديحة لأول مرة فى المناقشة قائلة :
— ولكنك فى حاجة قصوى إلى الراحة ..
— سأستريح فى الإسماعيلية ..
— ولماذا لا تستريح الليلة وتذهب فى الغد ..؟
— لأن المهمة عاجلة ..
وعلق إبراهيم فى سخرية ..
— عاجلة جدا ؟
وأجاب مراد فى اصرار ..
— جدا .. جدا .. وإذا لم تكفوا عن تدخلكم فسأذهب بلا طعام ..
وقالت لىلى فى استخفاف :
— كأنك ستأكل لنا .. افعل كل ما يحلو لك .. لن يتدخل أحد فى أمرك ..
فأنت أدرى به ..
ورد مراد فى حدة وكأنه يوشك على الدخول فى معركة :
— ومن طلب منك أن تتدخل فى أمرى .. ومنذ متى كان أمرى يعينك ..
أنت ..؟
وقاطعه إبراهيم :
— انتهينا .. لا داعى للمناقشة غير المجدية .. هيا نأكل وبعدها افعل ما يحلو
لك ..
وانتهوا من الطعام .. وغادر المائدة فى صمت .. ولم يمكث مراد أكثر من
بضع دقائق غسل فيها وجهه وأبدل ملابسه ، ثم انطلق بالعربة الجيب إلى

الإسماعيلية ..

وعادت السكنينة إلى الدار مرة أخرى ..
وعادت مديحة إلى جلستها أمام المدفأة وأصابها تعمل بالإبرتين الطويلتين
.. وجلست ليلي أمامها تتشاغل بتصفح كتاب . وعيناها ترمقان باب حجرة
إبراهيم بين آونة وأخرى ..

وأخيرا ظهر إبراهيم وقد ارتدى جاكته قصيرة من الجلد وتساءل :

— ألا يريد أحد منكما السير على الشاطئ ؟ ..

أجابت ليلي مرحة بالفكرة :

— ولم لا .. هيا يا مديحة ..

وردت مديحة في استنكار :

. — الآن .. وفي هذا البرد ؟

وأجاب إبراهيم :

— الجو في الخارج أدفاً من هنا .. وجلسة العجائز هذه .. تجمد الأطراف

.. هيا بنا ..

ولم تتحرك مديحة .. ونهضت ليلي موافقة وهي تقول :

— هيا يا مديحة ..

— اذهبي أنت معه ..

— ونتركك وحيدة ..

— سأجلس مع نادية ونهى ..

— بل سأجلس أنا معكم ..

— لا داعي لأن تضايقي نفسك ..

وأردف إبراهيم :

— لن نغيب كثيرا .. هيا يا ليلي .. إن مديحة متعودة على الجلوس .

البيت ..

وبدا التردد على ليلي ولكن إبراهيم جذبها من ذراعها . وخرج الاثنان إلى الشاطىء .. ولم يبد على ملاح مديحة الجامدة أى علامات للضييق .. وكانت مديحة قد آلت على نفسها ألا تضيق بشيء .. كانت كبرياؤها تمنعها من أن تحس بأن هناك مبعثا للضييق .. كانت تحاول أن ترى فى كل ما بين ليلي وإبراهيم من مظاهر انسجام ومودة .. أمرا طبيعيا يجب أن يكون بين مضيف وزوجة ضيفه ..

وإبراهيم مخلوق مهذب .. وليلي إنسانة مهذبة .. والمفروض أن يكون بين الناس المهذبين مودة ورقة .. واستلطاف .. وحتى إذا زاد ما بينهما درجة .. عما يجب أن يكون ما بين الضيف ومضيفته .. فماذا يمكن أن يؤدى إليه ذلك .. ما أقصى ما تخشى أن يحدث فى بضعة أيام .. ستمر بالطول أو بالعرض .. وبعدها يفترق كل منهما إلى حيث لا لقاء .. المسألة تحتاج إلى بعض الصبر .. والبرود والأعصاب .. وهى والحمد لله لا تفتقر إلى شيء منها .

لقد أوشك الأسبوعان المفروض أن تمكثهما ليلي على الانتهاء .. وكانت تتوقع أن يعود بها مراد عند عودته هذه المرة .. ولكنه ذهب إلى الإسماعيلية دون أن يذكر شيئا عن سفرها إلى مصر .. ولم يكن من المعقول أن تسأله مديحة لماذا لا يأخذها معه .. والمسافة بين الإسماعيلية والقاهرة غير بعيدة .. على أى حال .. لا بد لها من الصبر والهدوء .. والحذر من أن تبدر منها بادرة ضيق .. فهى أدرى بإبراهيم وبمركب العناد فى نفسه .. إذا ما أحس أن شخصا يحاول أن يمنعه من شيء .. أو يجذب منه شيئا .. إن خير ما يعالج به المسألة هو الاستخفاف والتجاهل ..

والمسألة بعد كل هذا .. ليست مسألة .. إنها مجرد دردشة ورغى بين
الاثنين .. واشتراك في التفاهة .. والخفة .. سينتهى برحيلها ..
المهم أن ترحل ليلي .. قبل أن تضطر مديحة للرحيل .. فليس من اللياقة
والأصول .. أن تبقى ليلي في منزل رجل وزوجته غير موجودة .. وموعد
مدرسة نادية قد حل .. وفات وهي متجاهلة .. حتى تسافر ليلي ..
وهي قد تستطيع الرحيل .. لو أن مراد موجود .. ولكن ذهابه إلى
الإسماعيلية .. قطع عليها كل تفكير في العودة إلى القاهرة .. فليس من المعقول
أن تسافر وتترك ضيفتها وحيدة مع زوجها .. إن هذا ليس من الذوق ..
ولا من العقل ..
لا بأس .. قليل من الصبر يحل الموقف ..
يوم أو يومان ويعود مراد .. ويرحل بها إلى القاهرة .. وإذا لم يرحل .. فهو
على الأقل سيبقى .. مع زوجته ..
وهو قبل كل شيء .. زوج ومستول عن زوجته ..
ولكن .. لماذا تقول .. كل هذا ؟
ماذا حدث ..؟
إن مأخذنا واحدا .. لا نستطيع أن تأخذه على إبراهيم أو ليلي .. ليس بينهما
كلمة واحدة .. يجب ألا تقال .. أو تصرفا واحدا يجب ألا يفعل ..
كل ما بينهما ليس إلا مظهرا من مظاهر الذوق والرقه .. وبينها وبين نفسها
.. هذا ما يغيظها ..
لو أن بينهما شيئا يؤخذ .. أو مغمزا يلام عليه .. لاستطاعت أن توقفه ..
لاستطاعت أن تلوم وأن تغضب ..
وبمثل هذه الأفكار استمرت أصابعها تروح وتجيء بالإبرتين الكبيرتين ..
وعلى مقربة منها بجوار النافذة الكبيرة كانت تجلس الفتاة النحيلة .. ترمقها

بعينها الواسعتين ..
والتقت النظرتان ثم افترقتا .. وأحست مديحة بضيق من عيني الفتاة .. لقد
خيل إليها أنها تستشف ما في ذهنها ..
هذه الفتاة الصامته .. تعرف ما يدور برأسها .. وما يدور برؤوس
الآخرين .. إنها تعرف كل ما تحويه نفوس أهل هذا البيت ..
وهي لا تحبها .. ولا تعرف ماذا ستفعل بها بعد رحيلها .. لقد قال إبراهيم
إنه سيقبها .. وهو يدللها كثيرا .. تدليلا لا مبرر له .. وهو في غير حاجة إليها
.. وهي ليست صغيرة لكي تبقى مع رجل متزوج يعيش وحده ..
إن إبراهيم عاقل .. ولكن الناس ألسنتهم طويلة ..
لماذا لا يعيدها إلى المعسكر ؟ ..
ومرة أخرى عادت مديحة ترمق نهي ..
وكانت نهي تسبح ببصرها في الخارج .. لترقب شبحين يسيران الهويناء على
شاطيء البحر .. وراء النخيل ..
كانا يدوان .. متلائين منسجمين ..
عجيبة هذه الدنيا ..
لماذا تخطيء في التوفيق بين الأشخاص .. أمي وسيلة من القدر لإثارة
الخطايا .. وخلق الذنوب ..
ما ضره لو ألقى بالائنين في طريق واحد قبل ..
إنهما متجانسان .. متشابهان .. متقاربان في كل شيء .. وبنفس كل منهما
للآخر شيء .. مهما حاولا إخفائه أو تحويره .. ومهما حاولا أن يسمياه ..
فهو أولا وآخر .. حب ..
وتلك الجالسة في صمت وهدوء .. ترقب كالصقر .. إنها تفهم كل
شيء ..

كل إنسان في هذا البيت يفهم .. ولكنه يتجاهل .. لأن الفهم يخيفه ..
مخلوق واحد لا يفهم .. لأنه لا يحاول أن يفهم .. هو هذا المقاتل ..
الصاحب العرييد .. المخاصم لكل إنسان .. الثائر على كل شيء .. الذي لا يرى
في الحياة إلا لقمة تؤكل .. وكأسا تشرب .. وجسدا محتضن ..
وعادت نهي تتبع بصرها الشبحين السارين على الشاطيء ..
وانحدر الشبحان ليختفيا وراء الربوة ..
ومست أصابعه أصابعها .. فتوقفت الذراعان المهترتان وتشابكت
الأصابع .. وسرت في الجسدين هزة .. وأطبق الكف على الكف ..
وهمست ليلي وهي ترقب مغرب الشمس وسط السحب الحمراء :
— غروب الشمس جميل ..
— والشروق جميل ..
— والبحر جميل ..
— والسماء جميلة ..
— وأي شيء حولنا ليس جميلا !
— وددت لو داومنا المسير ..
— بلا عودة !!
— وددت أشياء كثيرة .. لا أستطيع نطقها ..
— وأنا وددتها مثلك ..
— وأحسست بالذنب .. لمجرد الرغبة فيها ..
— ولكنني لم أحسه .. ألا يكفي أن نحرم من الإفصاح حتى تود حرماننا
من التفكير ؟ دعنا نحلم .. ونحلم .. فليس أمام المحروم إلا أحلام اليقظة ..
إنها هنيئات مضيئة أشبه بومض البرق .. فلماذا تريد أن نغمض أعيننا
عنها .. ؟
— أخشى أن يخطف الومض بصرنا ويتركنا بعدها في ظلمة مخيفة ..
لا نستطيع أن نبصر حتى الأشباح التي كنا نعيش فيها ..

الفصل السادس عشر

ثورة مظلوم

وقف مراد أمام مصعد العمارة التي تقطنها ريتا في الإسماعيلية وقبل أن يجتاز الباب قال للبواب محذرا :

— اسمع يا عم محمد .. لقد مضى على ٤٨ ساعة لم أذق خلالها النوم .. فإذا كنت تنوى أن تؤذن الفجر .. فأذنه الآن .. الله لا يسيئك .
— نحن الآن في منتصف الليل ..

— ولو .. أذنه مقدما .. وإلا فقسما بالله العظيم ثلاثا .. لن ينقذ عنقك من أصابعي أحد .. إذا كنت تصر على الأذان فصل ركعتين على روحك قبل أن تؤذن .. لأنى سأقتلك .. مفهوم ؟
وضحك عم محمد قائلا :

— مفهوم يا سعادة اليه .. لن أؤذن وذنبي في رقبتك ..
— في رقبتى .. في رقبتى .. دع حسابه لى .. سأضيفه إلى بقية ذنوبى ..
يجلها ربنا يوم القيامة .. المهم أن تدعنى أمام الليلة ..
ودخل مراد المصعد .. واتكأ على بابه منها .. ثم ضغط الزر الرابع ..
وأخذت الأبواب تتوالى أمام عينيه حتى توقف المصعد .. واتجه مراد إلى باب في مواجهته مباشرة .. وكان تعب قد بلغ أقصاه .. ووقف أمام الباب يدق الجرس .. وانتظر برهة فلم يسمع وقع خطوات ولا إجابة .. وعاد يرن الجرس بطريقة أكثر عنفا وأشد إلحاحا .. ولكن الصمت استمر نحيما .. وبدأ مراد يحس بالضيق والغضب .. ومد قبضته يدق بها الباب في حدة .. حتى

كلت قبضته ..

وتلفت حوله في يأس وهو يهز الباب في عنف .. أين ذهبت هذه الحيوانة ؟
غير معقول أن تكون نائمة مع كل هذا الدق .. لعلها لم تعد بعد .. ولكن
لماذا لا تفتح الخادمة ..

لعنة الله عليها .. إنه يريد فقط أن ينام .. يريد فراشا دافئا .. وهز الباب هزة
أخيرة .. ثم اتجه إلى المصعد وكان ما زال معلقا .. فهبط به وهو يكاد يسقط
إعياء ..

لماذا يأبى النحاس أن يفارقه ؟ ..

ألا يكفي ما حدث له في الميدان ؟ ..

لقد كان يمني نفسه .. يحضن لين دافئ .. وعشاء دسم .. ولكنه بات
الآن لا يكاد يحصل على مستقر لجسده .. حتى لكأن القدر يصر على أن يتركه
يقظا ..

والعربة قد صرفها وأمر سائقها بالذهاب إلى المنطقة ..

ووقف في فناء العمارة ينظر حوله في يأس .. واتجه إلى حجرة عم محمد ..
وطرق بابها .. وخرج إليه الرجل يتساءل في دهشة :

— أى خدمة يا سعادة البية ..

— أين مدام ريتا ؟ ..

ويعتبه البساطة أجابه الرجل :

— سافرت ..

— إلى أين ؟ ..

— إلى بلدها ..

— ولماذا لم تخبرني ؟ ..

— لأنك لم تسألني ..

— غيبى .. أهذا أمر يحتاج إلى سؤالك .. ألا تعرف أنى .. صاعد إليها ..
— أعرف أنك صاعد إلى مدام ريتا .. أى ريتا .. أتظن أن لدينا فى العمارة
ريتا واحدة ! ..

— أتمزح يا عم محمد ..

— لا والله يا سعادة البية .. العمارة كلها هكذا .. إنى أؤذن .. فى مالطة ..

— وما العمل الآن .. إنى أريد أن أنام ؟ ..

— لو كانت حجرتى قدر المقام لأخليتها لك ..

— ألا تستطيع أى ريتا أخرى أن تستضيفنى ؟ ..

— فى مثل هذا الوقت يا سعادة البية ..؟

— ولم لا .. سواد الليل فقط ..

وصمت عم محمد برهة .. ثم رفع رأسه قائلاً :

— تعال .. سنطرق شقة مدام فيكى .. إن لديها حجرة تريد أن تؤجرها ..

ومرة أخرى عاد مراد إلى المصعد فى رفقة البواب .. وضغط الرجل على

الزر السادس واتكأ مراد على جدار المصعد وأغمض عينيه ونام ..

وتوقف المصعد .. وفتح الرجل الباب .. وانتظر أن يخرج مراد .. ولكنه

لم يتحرك .. ونظر إليه فوجده قد أغمض عينيه فهتف به :

— اتفضل يا سعادة البية ..

ونفض مراد رأسه ثم سار وراء البواب حتى توقف أمام أحد الأبواب ..

وقبل أن يمدق الجرس التفت إليه فجأة قائلاً :

— مدام فيكى عمرها سبعين سنة يا سعادة البية ..

— سبعين .. ثمانين .. أليس عندها فراش ؟ ..

— إنى أحذرك فقط .. الشرط نور ..

— إنى أريد أن أنام .. يا عم محمد .. لقد مضى علىّ يومان بلا نوم

.. فاهم؟ ..

ودون أن يرد الرجل مديده فدىق الجرس .. ومضت برهة قبل أن يسمع
وقع أقدام مثاقلة توقفت وراء الباب .. ثم علا صوت رفيع يتساءل فى حذر :

— مين ؟

— أنا يا مدام فىكى ..

— أنت مين ؟

— عم محمد ..

— ماذا تريد فى هذه الساعة ؟

— لدى مستأجر للحجرة ..

— فى منتصف الليل ؟ .. دعه يأتى فى الصباح ..

— إنه لا يجد مكانا ينام فيه .. ويريد أن يستأجرها من الليلة ..

وساد الصمت برهة .. ثم سمع صوت دوران المفتاح وفتح الباب فى حذر
.. وأطل وجه نحيل ملء بالتجاويد .. وعندما وقع بصرها على مراد بملايسه
الرسمية فتحت الباب فى اطمئنان وقالت مرحة :

— أهلا وسهلا .. تفضل ..

ودخل مراد مترنحا .. وعيناه شبه مغمضتين .. واستمرت العجور فى
ترحيبها :

— أهلا وسهلا .. اتفضل يا كابتن .. الحجرة ستعجبك جدا .. إن بها
نافذة تطل ..

وقاطعها مراد بقوله :

— أين الفراش يا مدام .. إنى لا أريد أن أطل على شىء .. أريد فقط أن
أنام ..

واجتاز مراد باب الحجرة .. ووقعت عيناه على الفراش .. وبعد دقيقة

واحدة .. كان ملقى عليه يغط في نومه .. تاركا العجوز تحدث نفسها ..
وعندما فتح عينيه .. كانت الشمس تملأ الحجرة .. وظل برهة يحملق فيما
حوله .. دون أن يدري أين هو .. حتى استطاع أن يذكر مدام فيكى ..
ونظر إلى الساعة في معصمه فإذا بها العاشرة ..
وتمطى .. وفرك عينيه .. وأخذ يفكر فيما يمكن أن يفعله في الإسماعيلية ..
وأى مغامرات يستطيع أن يضيع فيها بضعة أيام .. دون ريتا .. وقبل أن يستقر
على رأى .. سمع وقع خطوات تسير خارج الحجرة ..
لم تكن خطوات متناقلة .. كخطوات مدام فيكى .. بل كانت خطوات
أسرع وأخف .. جعلته يستبشرا خيرا .. ودفعته إلى أن يقفز من الفراش ويفتح
الباب ليرى صاحب الخطوات .. أو صاحبها .. كما كان يأمل ..
فتح الباب .. وبدل أن يبصر جسدا أهيف غضا .. أبصر جسدا ضخما
.. ورأسا أصلع .. استطاع أن يميز منه .. من ظهره .. الصاغ عبد العاطى ..
زميله في الفرسان والقائد السابق لكتيبته .. والمتدب بإدارة كاتم أسرار ..
وهتف مراد بلا إرادة :

— عبد العاطى .. يخرب بيتك .. ماذا أحضرك هنا ؟

وتلفت عبد العاطى في ذهول .. ولم يكذب يقع بصره على مراد حتى صاح
به في دهشة أشد :

— مراد ؟ .. ماذا أحضرك أنت .. فقد ظننتك في أرض المعركة ..

— لقد انتهينا من المعركة ..

— مبروك .. لقد كانت عملية رائعة ..

— الله يبارك فيك .. كانت عملية مروعة ..

— احك لى .. تعالى نجلس .. وقص على بالضبط ماذا حدث ..

ودخل الاثنان حجرة مراد .. وأغلق عبد العاطى الباب وجلس على مقعد

كبير .. وجلس مراد أمامه على طرف الفراش ..

وابتسم عبد العاطى وهو يفرك يديه قائلا :

— لا يمكنك أن تتصور فرحتى عندما علمت بانتصاركم وطردكم اليهود ..
لقد أصابنى الحنين إلى الكتيبة وتمنيت لو كنت معكم .. أخوض المعركة إلى
جواركم .. كيف حال الكتيبة .. وكيف حال نفيسة ؟ ..
وأطرق مراد وأجاب فى اقتضاب :

— حرقت ..

— حرقت؟! .. كيف ..؟

— أحرقتها أنا ..

— غير معقول .. لماذا ؟

— حتى لا تقع فى أيدى اليهود .. وعدت وحدى سائرا على قدمى .. تماما
كالعائدين من « مولز » الذين كنا نراهم فى الأفلام التى كانوا يعرضونها علينا
فى الكلية الحربية عن حرب ١٩١٤ ..

— وبقية الكتيبة ؟

— دمر معظمها ..

— ولكننا سمعنا أنكم انتصرتم .. لقد أبلغونا رسميا أنكم كسبتم المعركة
وطردتم اليهود من التبة ٨٦ بعد أن أحدثتم بهم خسائر فادحة ..
— أنا أيضا أبلغت هذا .. لقد أوقعت بقوات اليهود .. شرا مما أوقعوا بى
.. لقد أفنى كل منا الآخر .. ولكن الذى جنى ثمرة المعركة .. والذى فرت
بقايا اليهود أمامه .. دون أن يطلق طلقة واحدة .. هو مرسى .. لقد خسرت
أنا كتيبتى .. ولكن الآلاى كسب المعركة .. هل فهمت ..؟

وأطرق عبد العاطى برأسه .. قائلا :

— فهمت ..

وصمت عبد العاطى برهة .. ثم هز رأسه وأردف ضاحكا ..
— المهم هو أننا طردناهم وكسبنا المعركة .. والفضل على أية حال يرجع
إليك .. وإلى كتيبتنا .. كتيبة الأسود ..

ولم يجاوبه مراد فى مرجه .. بل بدا مستغرقا فى شروء حزىن .. وحاول
عبد العاطى أن يخرجه من وجومه .. وأن يدخل عليه السرور ببعض ذكرىاتهما
المرجة .. فسأله ضاحكا :

— أتذكر عندما ذهبنا سويا فى الإسكندرية .. إلى أم قرنى ..
ولم بيد على مراد أنه يتبع حديثه .. أو أنه يريد أن يذكر شيئا مما يذكره به
.. وقاطعه متسائلا :

— لم تقل لى ماذا أحضرك إلى هنا ؟
— لقد كنت فى طريقى إليكم .. ومررت بقائد منطقة القناة .. وقلت
أبيت ليلتى عند مدام فىكى .. لأنها معرفة قديمة .. عندما كنت أخدم
بالإسماعيلية .. وسأعاود السفر اليوم إلى العريش ..

— وماذا ستفعل فى العريش ؟
— سأقابل قائد الفرقة .. للتفاهم معه على حركة التنقلات التى يود
إجرائها ..

— هل هناك ضباط سينقلون الآن ؟

— بعض الذين لا يريداهم قائد الفرقة ..

— ليتنى أنقل فى الحركة القادمة !

— أمجنون أنت !

— لماذا ؟

— تنقل فى هذه الظروف ؟..

— لقد قرنت ..

- ولكنهم لن يستغنوا عنك ..
— ومتى ستصدر التشرة ؟
— بعد بضعة أيام ..
— تنقلات فقط ؟
— وبعض إنعامات بنياشين وترقيات استثنائية .:
— ترقيات استثنائية ؟
— أجل .. ترقيات ميدان .. للذين أدوا خدمات جليلة في المعركة ..
— ألدريك فكرة عنهم ؟
— ليس بالضبط ..
— من من الفرسان ؟
— وتردد عبد العاطى برهة .. ثم هز كتفيه قائلاً :
— والله لا أعرف ..
— لا تكن خبيثاً .. ولا تعمل عليّ كاتم أسرار .. قل ..
— سأقول .. على أن تعدني بالأخبار أحداً ..
— أعدك ..
— سيرقى منصور إلى قائمقام .. وسينعم على مرسى بنيشان النيل ..
— وأحس مراد كأنما قد لسعته عقرب .. وتساءل كالمأخوذ :
— منصور .. ومرسى ؟ .. لماذا ؟ ..
— بناء على طلب قائد الفرقة لما أبدياه في معركة التبة ٨٦ ..
— وعاد مراد يسأل مشدوها :
— وأنا ؟
— وصمت عبد العاطى وهو يحس حرجاً شديداً .. وتردد برهة .. وبداه
أن ينقذ الموقف بالتراجع أو الكذب فقال :

— ربما .. أنا فى الواقع لا أعرف بالضبط ..

— لا تكذب .. أنت تعرف كل شىء .. قل الحق .. فسأعرفه غدا .. إن لم أعرفه اليوم ..

— الحقيقة .. إنه لم يطلب لك شىء .. لست أدرى لم .. لقد ظننتك لم تشترك فى المعركة ..

— لم أشترك فى المعركة ؟ .. لقد كنت أنا المعركة .. لقد حطمت أعصابى .. وفقدت قواى .. لقد رأيت الموت .. فى لحظة .. لقد خضت الألغام .. واصطليت من القنابل .. أصم أذنى دوى المدافع .. ثم تقول إننى لم أشترك فى المعركة ..

— أنا لم أقل هذا يا مراد .. لقد قلت إنى ظننت عندما رأيت أنه لم يطلب لك شىء ..

واستمر مراد فى هديره .. وهو يكاد ينفجر :

— الذين لم يطلقوا طلقة واحدة .. باعترافهم .. يأخذون الرتب والنياشين .. وأنا الضحية الوحيدة .. كبش الفداء .. مخلب القط .. أخرج من المولد بلا حمص ..

— ربما ستأخذ فى النشرة القادمة ..

— لن آخذ شيئا .. أنا أعرف السبب .. ما دام منصور قائد الآلاى فلن أحصل على شىء .. إنه يكرهنى .. لقد دفعنى إلى الموت .. وسار هو مع مرسى .. فى نزهتهم التى انتهت به إلى التبة ٨٦ .. فأكلوها باردة .. ونسبوا الفضل إلى أنفسهم .. لقد قلت له هذا .. إنى لم أسكت .. لقد شتمته فى وجهه .. ولكنى لم أعرف أن النذالة ستصل به إلى الحد الذى يجرمنى من حقى .. بعد كل ما فعلت يأخذ هو الترقية ويعطى مرسى النيشان ..

— هدىء نفسك يا مراد .. كل شىء يمكن إصلاحه .. إنك تستطيع

التظلم ..

— لن أتظلم .. أنا لست امرأة .. إني سأذهب إلى هناك وأضربه ..

— لا تكن أحمق .. إنك ستضيع مستقبلك ..

— في ستين داهية .. ماذا سيفعلون بي أكثر من هذا .. سيطردونني من

الخدمة .. ليكن .. لقد زهقت ..

ونهمض مراد من مكانه .. وبدأ يرتدى ثيابه وهو مستمر في ثورته وعبد

العاطى يحاول تهدئته ..

وعندما أتم ارتداء ثيابه هم بالخروج .. فسأله عبد العاطى :

— إلى أين ؟

— سأعود إلى العريش .. سأريهم كيف يفعلون بي هذا .. وأنا لست

هفية ..

— انتظرنى .. سأتى معك .. سنأخذ أول قطار ..

— إن معى عربة جيب سأذهب بها ..

— إذن آتى معك فيها .. انتظرنى حتى أددع الحساب ..

وبعد لحظات كانت العربة الجيب تنهب الطريق بالائنين عائدة إلى

العريش ..

الفصل السابع عشر

مزید من الصبر

- دق جرس التليفون في بيت العريش .. وكان النهار قد انتصف وأسرعت
مديحة إلى السماعة مجيبة :
- أفندم ..
وسمعت صوت عامل التليفون يقول :
- معاك البيت يا فندم ..
وتلاه صوت إبراهيم يتساءل :
- مديحة ..
— أجل ..
- ماما تتحدث من مصر وهي تتعجل نزولك ..
— دعنى أتحدث إليها ..
- ودق إبراهيم التليفون بضع دقائق ثم قال للعامل :
- حول الخط على البيت ..
وبعد لحظة وصل إلى مديحة صوت أمها من بعيد يقول :
- صباح الخير يا مديحة ..
— صباح الخير يا ماما ..
- كيف حالكم وكيف حال نادية .. لماذا تأخرت في الحضور .. لقد
فات موعد دخول نادية للمدرسة ..
— سنحضر قريبا إن شاء الله ..

- ومدرسة نادية ؟
- لتأخر قليلا يا ماما لا يهم أن تفوتها بضعة أسابيع .. إن الجو هنا لطيف .. والبحر ممتع ..
- ولكن .. لا بد من الحضور ..
- لماذا ..؟
- لأن بابا .. مريض ..
- كيف .. ومتى ..؟
- لقد مضى عليه أسبوع وهو راقد في فراشه .. والدكتور محسن قال إن كبده متعبة .. والدكتور محمود ابن عمك قال إنها الكلى .. والحالة ملخبطة ..
- ولماذا لم تقولى لى ذلك من أول الأمر ؟
- لقد توقعت أن تجيئى من نفسك لأجل مدرسة نادية .. ولم أريد أن أزعجك ..
- كان يجب أن تخبرينى فى الحال ..
- إن الحالة لا تستدعى مثل هذا الانزعاج ..
- سأحضر فى أول قطار ..
- ووضعت مديحة السماعة .. ثم تلفتت حولها فى حيرة واضطراب ..
- كان يجب أن تسافر من قبل لأجل نادية .. ولكنها ظلت تؤجل السفر يوما بعد يوم ..
- دفعها إلى ذلك إحساسها الداخلى الذى يحيط بزوجها .. خطر ليلى .. لاخطر الميدان ..
- الخطر الخفى الذى تأبى أن تعترف — حتى بينها وبين نفسها — بمجرد وجوده .. ولكنها بغريزتها كأنثى كانت تقف متحفزة لصدده ..
- وكانت تحس أن وجودها بجوار إبراهيم .. يمنحها نوعا من السيطرة على

الموقف .. وحفظ زمامه في يديها .. وجذبه إذا ما أوشك أن يفلت ..
من أجل ذلك .. حاولت التسوية في الرحيل مدعية أنها تريد المزيد من
الاستجمام للطفلة .. حتى يرحل مصدر الخطر .. وتأمين على إبراهيم منه ..
ولكن نبأ مرض أبيها المفاجيء .. قد أوقعها في مأزق .. ووضعها بين شقى
الرحى ..

وهي امرأة واجب .. لا تستطيع أن تهمل واجبها نحو أبيها لمجرد رغبتها في
الاستجمام .. يأتي عليها ذلك سلامة منطقتها .. ودقة تصرفها .. ويأباه عليها
أمام نفسها شعورها نحو أبيها .. شعور ملء بالحب والعرفان بالجميل ..
يوجب عليها أن تكون بجواره في مرضه .. بدلا من أن تلزم جوار زوجها لمجرد
الإحساس بخطره .. خفى موهوم ..

ولم تتردد لحظة واحدة في تقرير السفر بدليل تأكيدها لأمرها بأنها ستسافر
حالا .. دون أن تفكر في حالة الخطر المحيطة بزوجها ..

ولكنها لم تكذب الساعة .. حتى عادت تفكر في ليلي ..

ومرة أخرى بدأت مطارق الغيرة تدق ..

لقد طالت إقامتها من غير ما مبرر .. المفروض أنها حضرت للإقامة بضعة
أيام .. وقد أتت لأنها هي موجودة .. ولأن هناك ربة بيت تستضيفها
وتتحدث معها ..

أما الآن .. فعلام مقامها وربة البيت توشك أن ترحل . أليس من الواجب
أن تسافر معها ؟

وملأها الخاطر إحساسا بالراحة ..

أجل .. هذا هو الشيء الطبيعي ..

ولو عرضت هي عليها .. لما بدا ذلك منافيا للذوق .. ولما ترددت في

قبوله ..

ستخبرها بمرض أبيها وعزمها على الرحيل .. وتسألها عما إذا كانت تود أن
تسافرا سويا .. بحجة الائتناس وقطع وحشة السفر وطول الطريق ..
ولا تظنها ستقول .. لا ..
فمن غير المعقول أن تبقى وحدها ، لم يبلغ بها سوء النية والتبجح هذا
الحد ..

قد تحتاج إلى إذن من زوجها .. أو على الأقل قد تدعى هذا ..
لا بأس من الانتظار حتى يأتي مراد .. وهي لا تظن غيبته ستطول ..
ولا تظنه كذلك سيصبر على إبقائها ..
وملأتها النتيجة التي أوصلها إليها تفكيرها بالطمأنينة .. وكان عليها أن تبدأ
بتنفيذ فكرتها .. وعرض السفر على ليلي ..
ولم تكذب تخطو بضع خطوات .. حتى طرقت أذنيها صرخة حادة جعلتها
تقف في مكانها مشدوهة .. ثم تندفع بعد لحظة إلى مصدر الصرخة في فزع
وذ هول ..

كانت الصرخة .. صرخة نادية .
واندفعت مديحة تصيح في لهفة :
— نادية .. حبيبتى ..

ولم تكذب تصل إلى باب الصالة المؤدى إلى الحديقة حتى أبصرت نادية
معلقة على حافة التكميبة .. وقد انزلق السلم الخشبي من تحت قدمها .. وهي
تحاول أن تمسك بعش عصفور ..

وقبل أن تتحرك مديحة لإنقاذها أبصرت ليلي تعدو من الحديقة حتى
وصلت إلى التكميبة ووضعت السلم الخشبي مكانه واندفعت تصعد لالتقاط
نادية وهي تحاول طمأنتها :

— لا تخافي يا حبيبتى .. أمسكى فتي ..

واحتضنتها نادية .. ولكنها لم تكذب تبدأ الهبوط حتى انزلق السلم مرة أخرى .. ووجدت ليلى نفسها تندفع إلى أسفل لترتطم بالأرض في عنف وهي تضم الطفلة إلى صدرها ..

ولم تستغرق الحادثة أكثر من ثوان .. اندفعت الأم بعدها كالمأخوذة إلى حيث سقطت ابنتها بين ذراعي ليلى ..

ومدت مديحة ذراعيها لتلتقط الطفلة وتحسسها في جزع .. ورفعت ليلى بصرها وهي راقدة على الأرض لتسأل في لهفة وألم :

— أيتها شيء ؟ ..

واستمرت الأم تضم ابنتها وتحسسها في خوف ثم قالت لاهثة :

— لا أظن .. وأنت ؟

وكانت ليلى ترقد فوق السلم وقد التوت ساقها اليمنى تحته ، وبدت على وجهها مظاهر ألم شديد . ولم تستطع أن تكتم أينما انطلق من شفيتها .. وعادت مديحة تسأل :

— ما بك يا ليلى ؟

— لا شيء .. إنها سقطت بسيطة ..

— ولكنك تتألمين ..

وعادت ليلى تكن وهي تحاول جهدها أن تتجدد وأن تنهض من سقطتها .. واستمرت مديحة تسأل وهي تحمل طفلتها ..

— ماذا يوجعك ؟

— قدمي .. لقد التوت أسفل السلم ..

— ألا تستطيعين الوقوف ؟

وهمت ليلى بالوقوف .. ولكنها أحست بوخز شديد في قدمها .. فصرخت ثم عادت إلى الأرض ..

ووضعت مديحة نادية على الأرض ثم انحنى على ليلى تحاول مساعدتها على النهوض قائلة :

— امسكى ذراعى واتكئى على ..

— لا أستطيع .. أنى أحس فى قدمى بألم شديد ..

وفى تلك اللحظة بدت نهى من باب الحديقة .. فصاحت بها مديحة :

— نهى ..

وتلفتت الصبية التى بدت كأنها مقبلة من جولة شروود مما تعودت أن تهيم خلالها على الشاطىء ووسط الرمال ..

ولم تكذب نهى تبصر ليلى راقدة حتى اندفعت تجاهها متسائلة فى جزع :

— ماذا حدث ؟

وأجابتها نادية وقد جلست بجوار ليلى :

— لقد تسببت فى سقوطها .. حاولت أن أحضر عشب العصفير الذى رفضت أن تحضره لى فانزلت لى السلم .. وصرخت .. فأنت لإنقاذى ولكن السلم سقط بنا سويا ..

وانحنى نهى فى جزع على ليلى وقد ترقرقت الدموع فى عينيها :

— أحدث لك شىء ؟

وصاحت بها مديحة :

— اذهبى بسرعة وإطلبى إبراهيم فى التلفون .. وقولى له أن يحضر طبيبا معه لأن ست ليلى سقطت على قدمها .. وأرسلنى إلى عبد الرازق من المطبخ ليعاوننى على نقل ليلى إلى الداخل .. أسرعى ..

— حاضر ..

وانطلقت نهى تعدو إلى الداخل .. وقد بدا عليها الجزع والقلق .. وبعد لحظة أقبل الطباخ مندفعا من الداخل .. وتعاون مع مديحة فى حمل ليلى .. وهى

تكن أننا متقطعا .. وقد بدا على وجهها أشد أمارات الألم ..
وعندما رقدت ليلى في فراشها .. بدا ذهن مديحة يفيق من صدمة الحادثة
.. ليفكر في نتائجها ..

هذه مشكلة جديدة لم تكن في الحسيان ..
بل يبدو أنها معضلة لا تحل .. وإنه ليس هناك من سبيل أمامها إلا التسليم ..
أهذا وقته !!
أهذا وقت تسقط فيه وتكسر ساقها ..
ولكنها لم تكسر .. إن ما بها مجرد جزع .. أو التواء سرعان ما ستشفى
منه ..

ولكن وقته غير مناسب .. كان المفروض أن تعرض عليها السفر الآن معها
.. وأن تبدأ في حزم حقائبها .. للسفر في أول قطار كما وعدت أمها ..
ولكن يبدو أن الظروف تصر على بقائها .. حتى لكأن القدر يدبر أمرا ..
ويعد له خطة ..

لو لم ترها تسقط أمامها .. لظنتها مدعية ..
ولو لم تسقط لإنقاذ ابنتها لقاتل مسألة مدبرة ..
ولكنها رأيتها بعينها .. ولولاها للقيت نادية نفس مصيرها .. بل من يدرى
.. ربما أشد .. لقد افتدت بنفسها ابنتها ..
مع ذلك .. تحاول هي لومها ..
يا للسخافة .. لماذا تنحرف أذهاننا .. في تفكيرنا .. مثل هذا الانحراف
المزرى ..

— لماذا تعيدنا أذهاننا .. إلى ذاتنا ؟ .. لماذا تكرهنا على ألا نفكر إلا في
مصلحتنا ؟ ..

ألأن تفكيرنا .. لا يطلع عليه الغير .. فنحن نتحرر فيه من كل مظاهر الخير

المتكلف المفتعل ..
على أية حال .. إن المسألة من كل وجوهها مزعجة ..
ورقدتها هذه مؤلمة .. من كل وجهات النظر ..
من وجهة النظر العامة والخاصة ..
فهى تكره لها أن تصاب .. لأنها تكره للناس الأذى ..
وهى تكره أن تصاب في هذا الظرف .. لأن المفروض أنها كانت ستسافر
معها .. فتخلصها من وضع شاذ .. مقلق .. لا تعرف إلى أى مدى يمكن أن
تصل نتائجه ..
وجهة نظر .. واحدة .. قد تجد المسألة .. ليست بالإيلام الذى
تتصوره ..
وهى وجهة نظرها هى .. المصابة نفسها ..
أجل .. من يدرى .. قد يسرها أن تبقى فى الفراش مريضة ضعيفه ..
لتلهب المشاعر .. ويهبأ الجو وتكمل القصة ..
ووجهة نظره هو ..
ولكن .. لماذا كل هذا السخف فى التفكير .. لماذا كل هذا الإمعان فى سوء
الظن ..؟
وعلام تلوم ليلي ..؟
وأحست مديحة بشيء من تأنيب الضمير .. إنها تتألم .. ومع ذلك
لا ترحمها مديحة فى انطلاقة ذهنها المتهم .. الوسواس ..
وسمعت صوت عربية تقف فى الخارج ..
واقتربت الخطوات من الباب ..
كان هناك أكثر من شخص .. لا شك أنه إبراهيم ومعه الطبيب ..
ما أسرع ما قدم .. لكأنه قد هبط بالبراشوت .. أكل هذا .. لأن ليلي

سقطت ..

ترى ماذا سيفعل عندما يراها راقدة .. تكن ..
هل يستطيع أن يسيطر على مشاعره أمام الناس .. أم تراه سيفقد
أعصابه ..

ولكن لماذا تتوقع هي أن يفعل شيئا غير عادى ..
لماذا تحس شيئا ..

ولم لا ؟

أليس هناك شيء؟ .. ألم تعترف هي بذلك بينها وبين نفسها .. لماذا تحاول
أن تهرب منه .. لماذا تحاول أن تخفى رأسها في الرمال .. لماذا تهرب ..
واقترب وقع الأقدام .. وتمنت لو تركت الحجرة ..
ولكن قبل أن تغادرها .. فتح الباب ..
ولم يكن الداخل إبراهيم .. بل كان مراد ..
ونظر مراد إلى الحجرة في دهشة .. وتنقل بصره بين وجه مديحة الجزع ..
ووجه ليلي الشاحب من فرط الألم .. ثم تساءل في دهشة :
— ما الحكاية ؟ ..

وأحست مديحة بالراحة .. من وجود مراد .. لقد كان مجيئه حلا سعيدا
للموقف .. إن عليه أن يتولى أمر زوجته .. وأجابته مديحة في إعياء :
— لقد سقطت ليلي على ساقها ..
— كيف ؟ ..

— كانت تحاول أنزال نادية من فوق التكهية .. فسقطت والتوت ساقها
تحت السلم ..

ولم يبد على مراد .. جزع شديد .. وهز رأسه في يأس قائلا :
— بجملة .. المصائب لا تأتى فرادى ..

واقترب من ليلى ونظر إليها وهو يهز رأسه قائلاً :

— تصورى .. بعد كل ما حدث .. رقى منصور إلى قائمقام .. وأخذ
مرسى نيشان النيل .. وخرجت أنا من المولد بلا حمص .. لقد قررت أن
أستقيل .. ولكن بعد أن أضربهم جميعاً .. لا بد أن أقتلهم .. أنا يفعلون بى
هذا ..!؟

ولم تجبه ليلى .. وبدا كأنها توشك أن تروح فى إغماءة بعد أن خفت
أنيها ..

ونظرت مديحة إلى مراد فى دهشة .. إنه لم يأبه كثيراً لما أصاب ليلى ..
لعله لم يقدر حقيقة ألمها ..
أو لعل النيشان والترقية .. أهم كثيراً من ليلى .. لماذا لا يفكر إبراهيم مثله
.. فى ترقية أو نيشان ..

ترى ماذا سيصنع عندما يرى ليلى فى مرقدها ..

وقطع مراد عليها تفكيرها متسائلاً :

— اتغديتم ؟ ..

وزادها سؤاله دهشة .. ولكنها لم تملك سوى الإجابة فقالت :

— لم تغد بعد ..

— إن معى الصاغ عبد العاطى .. ونريد الذهاب إلى رفح بسرعة .. هل

نستطيع أن نتناول لقمة ؟

ونظرت إليه مديحة فى حيرة .. ثم نظرت إلى ليلى الملقاة فى شبه إغماء .. ثم

قالت فى تردد :

— حالا .. بمجرد أن يصل إبراهيم مع الدكتور ..

— دكتور .. أحتاج المسألة إلى دكتور ..؟

— ألا ترى ما بها ؟

— لقد تعودت منها السليطة ..
وقبل أن تجيب مديحة .. وقفت عربية أخرى .. وبعد لحظة دخل إبراهيم
مندفعا .. وقد بدت على وجهه أمارات الجزع .. وصاح كالمشذوه :

— أين ليلي .. ماذا بها ؟

ثم أندفع إلى فراشها .. وأمسك بيدها هاتفيا :

— ليلي .. ليلي .. ماذا بك ؟ ..

وأحست مديحة بما يشبه اللطمة .. أو الطعنة .. ولم تستطع أن تقول
شيئا ..

لم يكن هناك مجال للوم .. أو للغضب .. ماذا كانت تستطيع أن تقول
له ؟ ..

أتقول له لا تجزع .. لا تخف ..

أتقول له إن زوجها .. تحدث عن النياشين والترقية .. وطلب الغداء ..

غير معقول .. هذه أشياء لا تقال ..

إذا فقد هو أعصابه .. فيجب أن تتالك هي أعصابها ..

وتقدمت لاستقبال الطبيب قائلة في هدوء :

— تفضل يا دكتور ..

لقد كان عليها أن تمسك بمزيد من الصبر .

الفصل الثامن عشر

شر التجربة

انتهى الضابط الطبيب من تشخيص ليلى .. وحاولت ليلى أن تكتم
آلامها .. وكانت عيناها تلتقيان بين آونة وأخرى بعيني إبراهيم .. فكانت
تجد بهما شيئا ممتعا ملطفا لآلامها ..
كانت تجد جوابا لإحساسها .. وردا صريحا قاطعا .. جازما من اللهفة
والجزع .. و .. الحب .

كانت بعينيه .. بدل النظرة .. ضمة .. وبدل اللمحة مسة ..
كانت تحس كأنه يتحسسها في رفق ويربثها في إشفاق .. ويضمها في
حنان ..

ومن حولها .. كانت نظرات لهفة أخرى ..
كان مراد .. يتلهف على أن ينتهي الطبيب من فحصه .. حتى يستطيع هو
الذهاب إلى رئاسة الآلاي .. ليفرغ ثورته ويصب جام غضبه .. ويطالب
بحقه في الترقية والنياشين .. ويلعن أباهم .. واحدا .. واحدا ..
وكانت مديحة .. تتلهف على معرفة النتيجة ..

ما مدى إصابتها .. هل تستطيع السفر ؟
هل تحتم إصابتها رقدة .. طويلة ؟
وتحدث الطبيب .. مجيبا على لهفة الثلاثة .. قائلا في تردد :

— أعتقد أن هناك شرخا .. أو كسرا .. لا أستطيع أن أجزم ..
وكانت لهفة إبراهيم أقوى اللهفات الثلاث .. فلم يستطع أن يترك الطبيب
(طريق العودة)

يتم حديثه .. وقاطعه متسائلا :

— والعمل .. ماذا ستفعل ؟

— المفروض أن نعمل للإصابة بصورة بالأشعة .. ويستلزم هذا أن تنزل إلى القاهرة ..

وأحست مديحة .. بأن الأزمة قد انفرجت .. وقالت في حماس :

— أجل .. لا بد من هذا .. إني سأنزل في أول قطار .. ويمكنني أن أرافقها حتى المستشفى ..

ونظر إبراهيم إلى ليلي في جزع .. ثم حول بصره إلى الطبيب متسائلا :

— هل تستطيع السفر وهي على هذه الحالة ؟

وأجابت مديحة بسرعة :

— إني سأتولى العناية بها .. وأعتقد أننا نستطيع أن نحملها حتى المحطة وفي القطار ..

ولم يتركها الطبيب تتم حديثها .. بل قاطعها قائلا :

— لست أنصح بسفرها .. فلست أظن الأشعة ضرورية .. إنها ستؤكد لنا

حقيقة الإصابة .. ولكن علينا أن نوازن بين المتاعب التي يمكن أن تتعرض لها

بالسفر .. وبين مزية التأكد من حقيقة الإصابة .. أنا شخصيا أفضل ألا

تسافر ..

وتساءل إبراهيم في لهفة :

— وكيف نعالجها ؟

— سأضع لها ساقها في الجبس .. وسواء كانت مشروخة أم مكسورة ..

عليها أن تظل راقدة في فراشها .. حتى يلتئم الشرح أو الكسر .. ثم تفك من

الجبس ..

وقال إبراهيم في حماس :

— انتهينا .. لا ضرورة إذن لمتابع السفر وهى فى هذه الحالة ..

ثم وجه القول إلى مراد :

— ما رأيك يا مراد .. أليس من الأفضل أن تبقى ..

وهز مراد كتفيه قائلاً :

— كما يريد الدكتور ..

ثم وجه القول إلى لىلى محاولاً الضحك :

— عسى أن تكفى بعد ذلك عن الشلقة فى التكميمات .. ستكون ساقك

فى الجبس جميلة .. لن أستطيع البقاء الآن حتى أتمتع برؤيتها .. فلا بد أن أذهب

إلى رفح مع الصاغ عبد العاطى .. عن إذناكم ..

وقبل أن يترك الحجره نظر إلى الطيب قائلاً :

— لا تتعجل بالرحيل بعد أن تضع ساقها فى الجبس .. إناى قد أحتاج

إليك .. لأنى سأحوض معركة جديدة ..

— مع اليهود ..

— بل مع رئاستنا .. لقد أخذت أنا العلقه .. وأخذوا هم النياشين ..

سأخرب بيتهم إن شاء الله .. السلام عليكم ..

واتجه إلى باب الحجره وهو يقول فى لهجته المستخفة :

— لن أعيب عليك يا لىلى .. بضع ساعات فقط لأقصف رقبة قائد

الآلاى .. وأشق بطن قائد الفرقة .. ثم أعود إليك .. سأجلس معك على

طول .. وعلام التعب .. ما دامت النياشين تؤخذ من منازلهم ..

وأحست مديحة من الجملة الأخيرة التى أطلقها مستخفا بشيء من

الطمأنينة ..

إن مراد ينوى — على الأقل — أن يكون بجوارها ..

إنه رغم استهتاره واستخفافه بكل شيء زوجها .. ووجوده يمنح المسألة

منظرا لاثقا .. ولن تبدو بها تلك الصورة الشاذة التي كان يمكن أن تبدو بها ..
لو اقتصر الأمر على الاثنين معا ..

زوج .. بلا زوجة .. وزوجة طريجة الفراش بلا زوج .. يضمهما بيت
واحد .. في هذه الوحدة والخلاء .. لا يمكن أن يبدو منظرهما للناس طبيعيا ..
هذا من ناحية الشكل .. والمنظر ..

أما من ناحية الموضوع .. فهي أدرى الناس بتعقيده .. وهي أدرى الناس
بأن لا مراد ولا غير مراد .. يستطيع تسويته ورد أخطاره ..
وإبراهيم ما زال يقف لينظر في جزع ولهفة إلى ليلي .. وفي صدره ..
خافق .. هتاف .. يهمس به :

« ويحك .. ألا تملك لأعز الناس عندك أكثر من نظرتك العاجزة
الحيرى .. افعل شيئا .. ضمها إليك .. مس كسرهما بشفتيك ، ولو عرف
الخافق الهتاف شعرا الردد بيت المجنون :

بربك هل ضممت إليك ليلي قبيل الصبح أو قبلت فاهها
ويحس إبراهيم .. أن الخافق في صدره .. أحرق مجنون ، وأنه لا يملك حتى
مجرد اللفظة والجزع .. بله الضم واللمس .. وإن هذه الرائدة أمامه .. من حق
رجل آخر ، قد تكون أهون لديه من نيشان أو رتبة .. ولكنها مع ذلك ألصق به
من عابر سبيل .. لم يلقها إلا وهو مشدود إلى قاطرة أخرى .. مثقل بحمل
شرعى .. عليه أن يحمله حتى آخر عمره راضيا .. قريبا .. مبتهجا ..
وأخرجته مديحة من صخب أفكاره بقولها :

— كنت أود أن أبقى مع ليلي .. ولكنى سأضطر إلى السفر في قطار
الغد ..

— ولم هذه العجلة ؟

— ماما أنبأتني أن بابا مريض منذ أسبوع .. وأنها كتمت عني النبأ لتوقعها

أن أحضر من تلقاء نفسى لأجل مدرسة نادية .. وقد وعدتها بالسفر فى أول قطار .. ولهذا اقترحت أن تسافر ليلى معى ، لأنى أكره أن أتركها وحدها بلا أحد يقوم بخدمتها ..

وانبعث صوت سمع فى الحجرة لأول مرة .. هو صوت نهى يقول فى إخلاص :

— لن أتركها لحظة واحدة .. إنى سأرعاهما بعينى ..
وأردف إبراهيم قائلا وكأنه يجامل ليلى :
— وأنا أيضا سأكون بجوارها ..
وأجابت مديحة :

— طبعا .. ومراد سيكون أيضا بجوارها ، إن البركة فىهم جميعا ، ولهذا سأسافر وأنا مطمئنة عليها ..
وقال الطيب ضاحكا :

— ما هذا كله .. إن المسألة لا تستحق كل هذا .. إنى سأضع ساقها فى الجبس .. وأمرها بالرقاد .. وأمركم جميعا أن تتركوها فى حالها .. وإن شاء الله بعد أسبوع سأفكه لها .. إنى أرجح أن ما بها لن يكون أكثر من شرخ ..
وقالت مديحة وكأنها وجدت بابا تنفذ منه :

— ولهذا اقترحت أن تسافر .. لأنى لا أعتقد أن السفر سيتعبها .. وهى ستكون فى القاهرة أكثر راحة ..

— لا داعى لإرهاقها بالسفر .. إن الراحة والرقاد خير علاج لها .. إنى لن أحاول إزعاجها حتى بنقلها إلى المستشفى .. سأحضر لها أدوات التجبير هنا .. عن إذنكم ..

وخرج الطيب ووراءه إبراهيم .. وأقبلت الصغيرة نادية هاتفة :
— تنت ليلى .. كيف أنت ؟

وأجابتها ليلي في رقة :

— بخير .. ليس لي شيء ..

وقالت مديحة مؤنية نادية :

— لقد تسببت في كسر ساقها .. مبسوطة .. كل هذا من شقاوتك .. كان

يجب أن تكسر ساقك أنت ..

وقالت ليلي :

— بعد الشر عنها ..

ولكن الصغيرة تساءلت :

— تكسر ساقى .. وتوضع في الجبس ؟

وأجابت الأم :

— أجل ..

— وأضحى كالعروس الجبس ؟

وأزاحتها الأم ناهرة :

— بل كالعفريت الجبس .

وغادرت مديحة الغرفة .. لتجد إبراهيم عائدا بعد أن أوصل الطبيب إلى

العربة .. وتجد مرادا عائدا خلفه وقد بدت عليه العجلة .. وانتحى بإبراهيم

جانبا وهمس به :

— أمعك خمسة جنينيات ؟

— أجل ..

— هاتها ..

والتفت إبراهيم بدوره إلى مديحة وقال لها :

— أمعك خمسة جنينيات ؟

واختفت مديحة لحظة في حجرتها ثم عادت ومعها الجنينيات الخمسة ..

واختطفها مراد قائلا :

— متشكر .. سأردها لك أول الشهر .. وسأعطيك الأرباح .. كأسا من كل زجاجة ..

— زجاجة ماذا ؟

— ويسكى يا حضرة ..

— أخذت الخمسة جنيهاً لتحضر بها ويسكى ؟

— طبعاً .. أكنت تظننى سأحضر بها تين شوكى ؟

— سأحضر بها معى ويسكى .. وزيب زحلاوى .. وعرقى .. سأفتحها

لكم خمارة .. لن أرى المواقع بعد ذلك بعينى .. كله محصل بعضه .. وأحست مديحة مرة أخرى بمزيد من الطمأنينة .. ولم تضق أبداً بالقرض الذى منحته .. ما دام سيضمن لها بقاء مراد بجوار زوجته على الأقل .. حتى تشفى .. وترحل بالسلامة .. أو تعود هى ..

وقبل أن يغادر مراد البيت سألته :

— متى ستعود ؟

— الليلة .

— لا تتأخر .. إن ليلى يجب ألا تبقى وحدها ..

— طبعاً .. طبعاً .. لن أتأخر أكثر من مسافة الطريق ، وزمن المعركة .. سأريهم أنى لست هفية .. وأن ليس كل الطير يؤكل لحمه .. وإذا كنت لم أخذ النيشان فى معركة التبة ٨٦ سأخذه فى معركة رئاسة الآلاى .. كان منصور أفندى يريد قتلى .. فى المعركة .. ولكنى سأقتله .. بلا معركة .. سأتى إليكم الليلة ومعى ثلاثة ويسكى واثنين زيب ونيشان النيل .. خذى بالك من ساق ليلى .. حذرى الدكتور من أن يتلقها الجبس .. إن ساقها خير ما فيها .. حقيقة إنها باردة ، ولكن ساقها جميلتان ..

وأحس إبراهيم بأن دمه يفور من وقاحة مراد .. وكأنما كان هو الزوج ..
ومراد .. ال .. ال .. ماذا يسمى نفسه ؟ أهو عشيق .. حاشا لله .. أهو
حبيب ؟ .. حتى هذا لا يستطيع أن يصارح نفسه به . ماله إذن يغضب ..
وهو لا يستطيع أن يحدد صفته بالنسبة إليها .. إنه مجرد وهم .. لا يستطيع حتى
أن يسمى .. باسمه ..

إنه يحب ويخشى أن يقول إنه يحب ..
لأنه لا يملك هذا .. وهو الإنسان العاقل المتزن .. ذو الأخلاق المثالية ..
لو أنه كان كمراد .. لأراح .. واستراح ..
ولكنه يعترف بالمثل العليا .. والقيم الأخلاقية .. ويكره الانحلال ..
والانحراف .. والزلل ..

ثم .. يحس في جوفه .. بشيء يدفعه إلى كل هذا ..
يحس بأنه يملك نوعا من المشاعر .. لو أطلقها أو سماها .. لما كانت .. إلا
انحرافا وانحلالا .. وخطيئة .. ولما سميت بأكثر من خيانة .. واعتداء .. وقلة
شرف ..

أف له .. وأف للتقاليد .. وللعرف ولكل هذه المسميات القاسية ..
ومرة أخرى .. أخرجه مديحة .. عن معركة ذهنه .. ومشاعره .. وسألته
في هدوء .. السؤال الذى لم يكن يخطر له ببال :

— هل ستسافر معنا ؟

— أنا ؟

— أجل ..

— أسافر معكم متى ؟

— غدا ..

— كيف أسافر معكم ؟

— ألا تستطيع أن تحصل على إجازة ..

وكانت مديحة تعرف الرد .. وكانت واثقة .. إنه لا يستطيع السفر .. من الناحيتين .. ناحية القدرة .. وناحية الرغبة .. ومع ذلك فقد حلا لها أن تسأل علها تصيب رمية من غير رام .. أو لعلها من مناقشتها له تستطيع أن تسوق إليه تحذيرا خفيا .. مستورا ..

وأجاب إبراهيم في شيء من الحدة :

— كيف أحصل على إجازة .. في هذه الظروف ؟

— أى ظروف تعنى ؟

— ظروف العمل ..

— لست أجد هناك ما يمنع ..

— وهذه المناوشات التى يقوم بها اليهود كل ساعة ؟! ..

— مالك وما لها ؟ ..

— والعمل الذى أقوم به بدل الضابط الذى فى إجازة ؟

— يقوم غيرك به ..

وصمت إبراهيم برهة ونظر إليها نظرة فيها شيء من التحدى والعنف ثم

قال :

— والضيعة المكسورة الراقدة ؟

— لديها زوجها .. هل أنت مكلف باستضافة الناس وتمريضهم ؟ ..

— وهل من الذوق .. أن نستضيف الناس ثم نتركهم .. طريحى الفراش ..

وأحست مديحة أنها لو ازدادت فى ضغطها المتسائل .. لأحدثت به

انفجارا .. وهى تعرف انفجاراته .. ولم تجد بدا من التراجع لا سيما وقد

أحست أنها قد بلغت جزءا من أهدافها .. وهو التحذير الخفى ..

ونظرت إليه نظرة أكثر لينا .. وقالت :

— ١٨٦ —

— معك حق .. ليس هذا من الذوق ..
وأحسست أنها قد تنحت عن الطريق وتركته يمر ..
لأنها تحس بثقة فيه ..
والمسألة كلها تجربة .. يجب أن تعينه على أن يجتاز شرها ..

الفصل التاسع عشر

دخان المدفأة

كانت الساعة قد بلغت التاسعة مساءً عندما عاد مراد يطرق باب البيت
ثانية بعد رحيله إلى رفح ..
وكان البيت قد شمله سكون تام .. واستغرق مكانه في صمت عميق ..
وبدت مديحة وقد جلست في حجرتها على حافة الفراش .. ووضعت أمامها
الحقائب فارغة ترص فيها الثياب .. ويداها تتحركان حركة آلية وذهنها قد
انطلق هائما في شروده .
لم يكن بذهنها شيء جديد .. نفس القلق ، ونفس الوسواس .. ونفس
الصراع الذي لا ينتهى .. بين الجزع والصبر .. والخوف والشجاعة .. واتهام
الغير ولوم النفس ..
كان ذهنها كعادته يخوض في رحلته بين دخان الشكوك وسحب
الريب .. لا يستقر على شيء .. ولا يصطدم بشيء .. ولكنه مع ذلك لا
يستطيع أن ينكر أن هناك شيئاً .. أن هناك غيماً يحيط به .. ويطبق عليه ..
ويضيق عليه الخناق .. وهو لا يستطيع صده .. لأنه لا يصد ..
أجل .. إنها تجابه أزمة دخان .. ومشكلة غيوم ..
كأثنة .. ومتطايرة ..
موجودة .. وغير ملموسة ..
ويداها ترصان الثياب .. في هدوء .. وذهنها منطلق خلالها .. في عنف ..
لا يهدأ .. ولا يكل ..

وفي الصالة جلست نهي .. بجسدها الأعجم .. ووجهها الضامر
النخيل .. قابعة في مجلسها المعتاد وراء النافذة الزجاجية العريضة .. التي
تبدى لها الصورة العريضة البراقة .. كل فجر .. صورة الشمس المشرقة
المتصاعدة من وراء الربوة بين النخيل .. وتحمل لعينها النور والإشراق ..
وتحمل لذهنها الآمال الحلوة .. وترسم لها طريق العودة .. وتعيد الوطن
الضائع .. والأهل المشردين ..

وتتصاعد الشمس .. متباعدة إلى كبد السماء .. مضيفة لها الأمانى مبددة
الأحلام .. لا تجسر العين على التحديق فيها .. ولا يجسر الذهن على التعلق بما
منحته في شروقها من آمال ..

ثم تختفي وراء المغرب .. وتسود الظلمة المعتمة ..
المعتمة في العين وفي الذهن ..

وتجلس نهي لترقب حلكمة أوهامها .. ويأس حقائقها .. وتحملق في
النجوم الشاحبة .. تتوارى وراء أكداس السحب .. وتنصت للبحر الهادر
الجياش .. يحمل في هديره .. ما يشبه الصراع والنواح .. ليدفع في نفسها
مزيذا من يأس .. ومزيذا من ضياع ..

كانت نهي تجلس وقتذاك .. وينتابها يأس الليل الخفيف وهي تنقل بصرها
بين الظلمات المكدسة وراء النافذة .. وبين إبراهيم الجالس في صمت أمام
المدفأة .. وقد مد ساقيه وألقى برأسه على ظهر المقعد .. وحملق بعينه في
اللهب المتراقص .. وبين آونة وأخرى يسترق البصر إلى الباب المقابل حيث
بدت ليلي راقدة على فراشها وقد غطت البطاطين ساقها الموضوععة في
الجيبس .. وألقت رأسها على الوسادة في هدوء واستسلام ..

وبدا وجهها الدقيق شاحبا .. وقد فكت جدائل شعرها فتناثرت حوله
على الوسادة ..

وأمامها قد وقفت نادية .. تعبت بخصلات شعرها .. وتستدعى ذهنها
الشارد .. من متابعة بقية الأذهان الشاردة في الدار .. بأسئلتها الساذجة
المضحكة التي تتطلب ردا .. وتستدعى بصرها من رحلته القصيرة الخاطفة
من خلال الباب إلى الجالس أمام المدفأة ..

قالت نادية متسائلة :

— لماذا لا تسافرين معنا ؟

— لأن الطبيب أمرني بالرقاد ..

— متى سيأمرك بالنهوض ؟

— عندما تخف ساقى ..

— ومتى تخف ساقك ؟

— بعد أسبوع أو أسبوعين ..

— ولماذا لا أبقى معك حتى تشفى ساقك .. إني أحبك ..

— وأنا أيضا أحبك .. ولكن يجب أن تسافرى ..

— لماذا ؟

— لأجل المدرسة ..

— المدرسة أستطيع الذهاب إليها بعد أن تشفى ..

— ولأن جدك مريض ..

— وماذا سأفعل لجدى وهو مريض ؟

— ماما لا بد أن تراه .. وأنت لا بد أن تكونى مع ماما .. وكذلك يجب أن

تزررى جدك فى مرضه ..

— لماذا ؟

— لأن المرضى يحتاجون إلى رعاية ..

— وأنت ألا تحتاجين إلى الرعاية .. لماذا لا نبقى معك .. من سيرعاك ؟

- إن معى أنكل مراد ..
- إنه لا يراعى أحدا .. إنه مشغول دائما .. وهو غير موجود ..
- سيأتى الليلة ..
- وسيدهب غدا .. لا بد أن يركك أحد غيره .. سأخبر بابا ألا يفارقك
- لأنى أحبك .. ولأن ساقك كسرت من أجلى ..
- واندفعت الطفلة تعدو إلى أبيها صائحة :
- بابا .. أليس المرضى فى حاجة إلى الرعاية ؟
- طبعا ..
- ألسنا مسافرين لرعاية جدى لأنه مريض ؟
- طبعا ..
- أليست تنت ليلى مريضة ؟
- وانحنى إبراهيم على ابنته وأجابها فى حيرة .. وهو لا يدرى ماذا يمكن أن
- تتمخض عنه أسئلتها :
- أجل .. إنها مريضة ..
- من سیرعاها إذن ؟
- سیرعاها كلنا .. أنكل مراد .. وأنا .. ونهى ..
- بل ترعاها أنت وحدك .. لأن أنكل مراد لا يبقى هنا أبدا .. ونهى
- سارحة .. فأياك أن تفارقها .. ابق معها دائما .. لقد قلت لها هذا ..
- وقبل أن يمد يده ليربت على ظهرها ويجيبها :
- حاضر يا حبيبتى ..
- انطلق صوت مدیحة يصيح فى حدة :
- نادىة ..
- وأجابت نادىة :

- نعم يا ماما ..
- لماذا لم تذهبي إلى فراشك ؟
- لقد كنت أتحدث مع تنت ليلي ..
- كان يجب أن تكوني نائمة الآن .. إننا سنستيقظ مبكرين غدا ..
- سأذهب لأنام الآن ..
- هل تعشيت ؟
- لا ..
- وصاحت مديحة بصوت أكثر حدة :
- نهى ..
- ونفضت نهى من مجلسها وأسرعت إلى باب الحجرة مجيبة :
- نعم ..
- عشي نادية واذهبي بها إلى الفراش .. كان يجب أن تفعل هذا دون أن أنبهك .. ألا تكفين عن هذا السرحان ؟
- طأطأت نهى رأسها وأجابت :
- سأعشيها حالا .. تعالى يا نادية ..
- وسارت بالطفلة إلى حجرة المائدة والطفلة مستمرة في سيل أسئلتها قائلة :
- لماذا لا تسافرين معنا ؟ .. لو أتيت معنا لأريتك في مصر أشياء كثيرة ..
- مثل ؟
- القروود في حديقة الحيوان .. إنها تفتلي بعضها ..
- أهذا كل ما عندكم في مصر ؟
- وسأريك الفيل أبو زلومة ..
- فقط ..
- وسأذهب بك إلى السينما لأريك ميكي ماوس ..

— وماذا أيضا ؟

— وسأشترى لك جلاس .. وسندوتش ..

وضحكت نهى ورفعتها بين ذراعها وقبلتها فى لطفة :

— ستوحشيني يا نادية ..

— وأنت أيضا ..

وأحست نادية بشيء يبلل خدها ورفعت بصرها إلى نهى متسائلة :

— لماذا تبكين ؟

— لا شيء ..

— بل تبكين .. إني أحس دموعك على خدى ..

— لأننى سأفتقدك .. لقد حملت إليّ جزءاً من أهلى الضائعين .. لقد رأيت

فيك إخوتى الصغار .. لقد أحسست منك بأجمل ما فى الإنسان .. لقد قصد

أبوك أن يمنحنى الحنان والحب .. ومنحته أنت لى بلا قصد ..

واحتارت الصغيرة كيف تجيب .. وأنقذها من حيرتها الجرس الذى

دق ..

ووضعت نادية .. وأسرعت إلى الباب لتفتح ..

ودخل مراد بغباره .. وضجيجه .. وزجاجات الويسكى التى يحملها ..

ودفع إليها بحمله صائحا :

— هذا كل ما جئنا به من المشوار ..

وألقى التحية إلى إبراهيم المسترخى أمام المدفأة ..

— مساء الخير يا أبو خليل ..

— مساء الخير ..

— تصور بعد كل هذا المشوار .. لم أجد أحداً فى رئاسة الآلاى .. لقد نزل

القائد إلى القاهرة .. نزل سعادة البية القائم مقام بعد أن لطف الرتبة .. على

حسابى .. على حساب مرطتى وتشريدى .. ورجوعى سائرا على قدمى بلا جنود ولا دبايات .. لقد لطفها على حساب سمعتى الضائعة وكان يمكن أن تكون حياتى هى الضائعة ..

وتلملم إبراهيم فى مكانه وقال فى ضيق :

— يا مراد .. الرجل لم يقصد شيئا من هذا .. إنها معركة ..

— بل قصد .. لقد قصد قتلى .. إنه يكرهنى .. لماذا لم يضع مرسى بدلا

منى .. لماذا تركه يأكلها باردة وذهب هو معه ..

— ربما لثقته بك ..

— لثقته بى .. ولماذا لطف هو الرتبة .. ولطف الحيوان الآخر النيشان ..

أهذه هى الثقة ؟

— يا أخى ربما .. طلب لك .. ولم تصدق الرئاسة ..

— ملعون أبو الرياسة .. ماذا تعلم هى عما فعلت ؟

— قد يكون فى ملفك ما يمنع من ..

— يمنع من ماذا .. لقد كدت أقتل .. ألا يكفى هذا ؟ .. هل تعرفون ما

حدث لى ؟

ونفد صبر إبراهيم فصاح به :

— أرجوك كفى .. لقد هوستنا .. نحن نعرف كل ما حدث لك .. ولكن

لا نملك شيئا .. فلماذا لا توفر صياحك ؟ لماذا لا تحمد الله على بقائك حيا .. فى

ستين داهية .. الرتبة والنيشان ..

ونظر إليه مراد وصمت برهة .. ثم أطلق ضحكة ساخرة وقال وهو يهز

رأسه :

— معك حق .. فى ستين داهية الرتبة والنيشان .. فى ستين داهية .. الآلاى

بأكمله .. فى ستين داهية أنتم جميعا .. الدنيا كلها على جزمى ..

(طريق العودة)

وصاح ينادى بأعلى صوته :
— نهي .. هات الزجاجات .. أعدوا الى الحمام .. وجهزوا العشاء .. دين
الآلاى لدين الجيش .. لدين الدنيا ..
ثم أردف منشدا بصوت نشاز :
— أنا من ضيع في الأوهام عمره .. نسي القتال في ٨٦ أو أنسى ذكره ..
واتجه إلى حجرته وصاح بليلى الراقدة :
— يعيش الويسكى .. ويسقط الحمير ..
ونظرت إليه ليلي نظرة استنكار ودهشة .. فأجابها بسؤاله :
— إزيك يا وليه .. كيف حال ساقك الحلوة ؟
فأجابته في ضيق وألم :
— الحمد لله ..

— المهم .. هل ستمنعك من أداء واجباتك الزوجية ؟ ..
وسمع كل من بالبيت سؤاله .. وأحس إبراهيم أنه يود لو قام ليصفعه ..
ولكنه لم يملك إلا أن يخفض رأسه ويحملك في اللهب المتراقص في جوف
المدفأة ..

أشياء كثيرة يجب أن يكتمها في باطنه .. وأن يتركها تحرك جوفه ولا
يسمح حتى لدخانها بالتصاعد أمام الناس .. بل يبتلعه .. كما تبتلع المدخنة ..
دخان المدفأة .. حتى لا يؤذى أنوف الغير .. ويضايق أنفاسهم ..
وعاد مراد يكرر سؤاله وهو يخلع ملايسه ويقذف بها على طول ذراعه ..
— لماذا لا تجيبين يا حلوه .. أنا لم أجرب النوم مع ساق مجبسة .. لماذا لا
تدعيني أجرب الليلة ..

وأجابته ليلي في مرارة وألم :
— بطل سخافتك .. وكف عن قلة الأدب .. كفى فضائح أمام الناس ..

وخفض مراد صوته وقال ضاحكا :
— أهذا كل ما يزعجك .. الفضائح أمام الغير .. سأعيد سؤالى بصوت
واط .. وأجيبى عليه ..

وقاطعته ليلى هامسة فى مرارة :
— أنت لست آدميا .. أنت حيوان ..
— ومن أنكرك ذلك .. ولماذا أكون آدميا .. والناس يجعلوننى كبش فداء
ومخلب قط .. لماذا أكون آدميا .. وقد زجواى إلى مذبحه .. وحرمنى من
جزائها .. لقد ضاعت الرتبة والنیشان .. هل تريدن أنت أيضا أن تضيعى
الليلة لساقك المجبسة .. لا لا .. لن أحرم حقوق الحيوان بعد أن فقدت حقوق
الآدميين .. استعدى لى .. إياك أن تنامى .. سأستحم .. وأتعشى .. وأهلف
زجاجة الويسكى ثم أعود إليك ..

وانحنى فوقها فقبلها فى غلظة وعنف .. ثم اندفع إلى الخارج عاريا إلا من
السروال .. وهو يغنى بأعلى صوته :

— مسكين وحالى عدم من كتر هجرانك ..
وكانت مديحة قد تركت الحجرة على صوت ضوضائه .. ووقفت أمام
إبراهيم .. تنقل البصر بينه وبين المدفأة وحجرة ليلى ..
ورفع إليها إبراهيم بصره .. وجوفه يغلى .. وملاحه يكسوها هدوء
مفتعل ..

والتقى البصران .. ولم يدر كل منهما مدى .. ما يعرف الآخر .. من
محتويات ذهنه ..

ولم يطل بهما الصمت .. وفى لهجة مقتضية .. قال إبراهيم فى لهجة الأمر :
— اذهبى إلى ليلى .. وتامى معها .. وسأدع مرأد ينام معى .. إنها لا شك
ستكون فى حاجة إلى من يرعاها .. غير هذا الحيوان ؟

ولم تستطع مديحة أن تقول لا ..
فقد بلغ بها النفور من حديث مراد .. والضيق بوحشيته والخوف من
حيوانيته على الراقدة العاجزة .. ما دفعها إلى قبول الرجاء بلا مناقشة ..
وسارت إلى حجرة ليلي .. راضخة .. راضية ..
شيء واحد كان يطن في رأسها .. من قول إبراهيم ..
« إنها ستكون في حاجة إلى من يرعاها .. غير هذا الحيوان » ..
وهي سترعاها الليلة .. فمن يرعاها .. في الليالي القادمة ..
هل ستركها للحيوان .. أم سيرعاها هو ؟ ..
كيف ينوى أن يحل مشكلتها ؟
ولكن ماله هو وماها ؟
لماذا لا يتركهما وشأنهما ؟
عندما كانا في بيتهما .. هل كانا في حاجة إلى تدخله .. وهل كانت في
حاجة إلى رعاية أحد غير زوجها الحيوان ؟
ولكنهما ليسا في بيتهما ..
وساقها قد كسرت من أجل ابنتها ..
ومن الوحشية .. أن تتركها وحدها .. لهذا الحيوان .. لا سيما إذا سكر ..
ثم إن إبراهيم .. قد أمرها ..
ودلفت إلى حجرة ليلي .. واقتربت منها .. وأمسكت بيدها تشد عليها ..
ويدها الأخرى تتحسس جسدها ثم قالت في رفق :
— أسمحين لي أن أشاركك في حجرتك الليلة .. إنك قد تكونين في
حاجة إلى من يخدمك ومراد متعب الليلة .. ولا أظن أنه يستطيع أن يقوم
بخدمتك ؟ ..
وأجابت ليلي في صوت متعب :

— لست أريد أن أزعج أحدا .. إني سأنام .. ولا أظننى سأحتاج لشيء ..
كل ما أريده أن تغلقى علىّ الباب بالمفتاح ولا تدعى أحدا يدخل الحجره ..
— بل سأبقى معك .. إن مراد سينام مع إبراهيم .. سأعود إليك بعد أن
أضع نادية فى فراشها ..
وخرجت مديحة لتضع نادية فى فراشها .. وعلا صوت مراد فى الحمام
منشدا بصوته النشاز ولهجته العابثة المستهتره ..
— حججوك عنى العواذل ليه يا نور العين ..

الفصل العشرون

الذهب والوقود

جلس مراد على البار وقد وضع الكأس أمامه .. ورص صحاف العشاء
بجواره ..

وكان إبراهيم لم يزل في جلسته ممددا ساقيه محدقا في لهب المدفأة ومديحة قد
آوت إلى غرفة ليلى وأغلقت الباب ..

وأفرغ مراد الكأس في جوفه .. ثم مصمص بشفتيه قائلا :

— ولا تسقنى سرا .. إذا أمكن الجهر ..

ولم يجب إبراهيم .. كان يحس بجوفه أكذاسا من الهم والحزن تثقل تفكيره
وتشل لسانه .. وكان كل ما يوده هو أن يظل مسترخيا في مكانه لا يكلم أحدا
ولا يكلمه أحد ..

كان يحس برغبة في البكاء ..

وعاد مراد ينغص عليه صمته .. صائحا في شبه قهقهة :

— هاى .. ما بالك .. كأنك خسرت معركة وعدت سائرا على

قدميك ..

ولم يجب إبراهيم .. واستمر مراد في ثرثرته قائلا :

— أتريد كأسا ؟ ..

ومد يده بكأس مترعة ..

وهز إبراهيم رأسه رافضا .. فأفرغها مراد في جوفه وعاد يتساءل :

— أتريد رتبة ؟

ولم يجب إبراهيم .. وازداد تحديقا في نيران المدفأة .. ولم يكف مراد عن
تساؤله :

— نيشان ؟

وأطلق إبراهيم زفرة .. ورفع عينيه إلى مراد .. فبدا له مخلوقا غريبا .. قد
لف جسده في برنس بدت منه ساقان مكتنزتا السماتين ككتا الشعر .. وقد
اعتلى مقعد البار في جلسة عجيبة تشبه القرفصاء .. عارى القدمين معصوب
الرأس ..

ولم يكذ يسمع زفرة إبراهيم ويلمح نظرتة .. حتى أطلق قهقهة عالية
وصاح كأنما عثر على إجابة لما حيره :

— أتحب ؟ ..

واستمر إبراهيم يرقبه بنظراته الصامتة .. وقد أحس بشيء من القلق .
وصاح مراد :

— إبراهيم أفندى قيس .. أين العامرية ؟

وبدأ إبراهيم يحس بسخرية الموقف ومرارته ..

ولم ينتظر مراد إجابة .. واستمر في لهجته العريضة الصاخبة :

— لست أجد حولك شيئا يستحق .. لا تقل لي إنها اللاجئة العجفاء .. إلى

أستطيع أن أضع عشرة منها في سندوتش مع المزة .. إنها لا تسمن ولا تغني من

جوع .. قل من تكون المعشوقة التعسة .. وأنا أحضرها لك من شوستها ؟

ولم يستطع إبراهيم أن يكبح جماح زفرة أخرى انطلقت من صدره .

من يصدق هذا ؟

هل يمكن أن يخطر ببال صاحبه .. حقيقة الرد على سؤاله ؟

مستحيل ..

إنه لا يشك فيه قيد أمثلة ..

ومعه حق .. فالمفروض في إبراهيم أنه على خلق .. وأنه — على الأقل —
بالنسبة لخلق كمراد إنسان نموذجي .. لا يمكن أن يستغل ظروف
الصدّاقة .. والضيافة .. ويعشق زوجة صديقه .. وضيّفه ..
أجل .. إن مراد نفسه — على انحلاله — لا يستطيع أن يتصور أن علاقة ما
يمكن أن تنشأ بين إبراهيم وزوجته ..
ولكن هل نشأت هذه « العلاقة ما » ؟
هل هناك شيء ؟

هل يكفي لكى توجد العلاقة .. أن يحس بها .. أم لا بد لها من مظاهر
مادية .. ملموسة .. تخرجها من حيز التفكير والحس .. إلى حيز الوجود ؟
هل العلاقة الحسية الكائنة بينهما .. يمكن أن تدخل في باب الخيانة
والغدر .. وأن تعتبر « علاقة ما » ؟
وإذا كان الرد بالإيجاب .. فما ذنبه هو .. وهل كان يملك منعها أو
وقفها .. وهى مجرد إحساس اضطرارى لا سلطان لقدرة مادية .. مهما
كانت .. من السيطرة عليه أو توجيهه أو وقفه ..
ترى ماذا يمكن أن يكون رد هذا المخلوق العايب المهذار .. إذا ما أجابه
إبراهيم على سؤاله ؟

ماذا يقول إذا أنبأه أن ليلاه .. هى ليلى .. زوجته ؟
بم يجيب إذا أنبأه بمنتهى البساطة .. بأنه يعبدها .. وأنه يحس بأنها المخلوقة
التي ظلمه القدر بأن أخر لقاءه بها .. فلم يدفعها إليه — وهى جزء من كيانه ،
ونصف نفسه كما يقول الشعراء — إلا بعد أن سد الطريق إليها ووضع الحوائل
وأقام العقبات ؟

ماذا يمكن أن يكون حال مراد .. إذا ما كشف الغطاء عن الخافق في
صدره .. وفك قيده وأطلق سراحه .. وتركه يهتف بأحب الأسماء إليه ..

ليلي .. وأنبأه أن زاده في عينيها وأن أحب ساعات العمر إليه .. ساعات
جوارها ؟

سيظنه — لا شك — مازحا ..

إن هذا مجرد هزل ..

وهو — حقيقة — هزل ..

هزل يقض المضجع .. ويؤرق الجفن ..

هزل .. لا بد له من نهاية ..

إنها مجرد تجربة من القدر .. ولعله خارج منها عن قريب .. بمجرد أن تشفى

ساق ليلي .. وتعود إلى مصر ..

ترى هل أفاد من التجربة ؟

لا يدري ..

لا يستطيع أن يقدر الآن مدى خسارته وربحه ..

لقد كسب كثيرا ..

كسب ذلك الإحساس الممتع .. بالحب .. والذي لا نستطيع أن نمنحه

لأنفسنا في أى وقت نشاء .. ولا بأى مخلوق نشاء ..

كسب الإحساس بالحب ..

الإحساس الذى يصبغ تفكيرنا بلون وردى .. فيجعل تفكيرنا مريحا ..

ممتعا .. وكأننا راقدون من حياتنا على فراش هزاز في حديقة ناضرة عاطرة ..

لا نرى سوى الشفق الأحمر .. ولا نشم سوى الرياحين .. ولا نسمع سوى

غناء الورق وهديل الحمام ..

لقد كسب الإحساس بالحب ..

الإحساس الذى يقرب إلى أذهاننا صورة الجنة .. فيجعل منها مراحا

نتطلق فيه مع أحبائنا .. ومرتعا نرتع وإياهم فيه .. بالإحساس والوهم ..

لقد كسب الإحساس بالحب ..
الإحساس الذى يجعلنا نتوهم فى شفتى إنسان .. ينبوعا لا ينضب من
الهناء معينه .. مذييا للهموم .. مفتتا للأحزان ..
الإحساس الذى يجعلنا نتخيل .. فى طاقتى أنف إنسان مهيا لغير منعش
ونسيم عطر ..

لقد كسب شيئا ضخما ..
كسب « حالة » .. جعلته أكثر إحساسا بحياته وتعلقا بها ..
باختصار .. لقد كسب شيئا .. جعل لحياته قيمة ..
أو باختصار أشد .. لقد كسب حياته .. ولو إلى حين ..
وهل يمكن أن يكون أكثر من هذا ربما ؟
والخسارة !؟
ما هو حسابها ؟

خسارته .. هى — ببساطة — ضياع ذلك الربح ..
هى زوال هذه الحالة .. لأنها لم تكن من حقه ..
لقد كانت عملية اختلاس .. كانت سرقة .. ولا بد أن يرد لها ..
ولمن ؟ .. للذى لا يشعر بها .. الذى لا تكون عنده حالة .. ولا
أحاسيس .. ولا شيء أبدا .. إنها عنده مجرد مادة ..
مجرد سلك لا يجد طرفه الآخر .. ليكون معه شررا .. أو يتنج طاقة من
الإحساس والمتعة .. والضيء ..
عجبا لحياتنا .. تلقى بنا فى لخبطة عابثة .. بلا توليف .. ولا ترتيب ..
فتضيع طاقتنا .. وتتركنا مجرد خردة ..
وهبط مراد بكأسه على الرخامة .. فى قرعة كادت تحطمه .. ثم صاح فى
قهقهة أخرجت إبراهيم من دوامة أفكاره :

— هاى .. الظاهر إنك تحب بجد .. مسكين .. أبعد هذه السن تنطلى عليك هذه الخدع ؟
ولأول مرة رد إبراهيم .. وتساءل فى صوت خافت :
— أية خدع ؟

— خدع الحب .. هذا شغل حواء .. كان ينطلى علىّ وأنا فى الرابعة عشرة .. لقد أحببت مرة .. وخيل إلىّ أنى أهم فى السماء .. وأذوب فى بحر من العسل .. ثم أفقت بعدها .. وفهمت القولة .. فلم تعد تنطلى علىّ أبدا ..
— ما هذا الذى لم يعد ينطلى عليك أبدا ؟

— الحب يا أستاذ .. كلهن امرأة .. كلهن جسد مفروض أن يحمل وولد .. ومن الأداة ؟ نحن .. نتخيل فى كل واحدة شيئا جديدا .. سحرا فى عينها .. وعسلا فى شفتيها .. و .. إلى آخر كل هذه الأوهام .. ونضعها فى مصاف الملائكة نلمسها كما نلمس أضرحة الأولياء .. ونشمها كأوراق الورد ثم .. رويدا رويدا .. نشد عليها ونقر بها .. وفجأة نعبطها بين أحضاننا .. مجرد جسد .. والنتيجة ؟ .. انتفاخ وذرية .. والكاسب هو الحياة التى أضيف إليها نتاج جديد .. والخاسر هو نحن .. مزيد من المسئولية والشقاء والتعب .. لا .. لا .. لقد فهمت القولة .. لم أعد أصدق خدع الحب وأباطيله .. امرأة يعنى امرأة تتساوى فى الفراش مع غيرها من النساء .. لا فرق بينها وبين امرأة أخرى .. لا تزيد أمثلة عن زوجتى أو زوجتك .. إياك أن تحدعك إحداهن فتظن بها جديدا ..

وأحس إبراهيم كأن أحدا يدور به كما ندوخ الصغير .. ثم تركه فجأة ليرتطم رأسه فى الأرض ..

هذا العرييد الثائر .. يقول كلاما مخيفا .. إنه يتحدث عن البشر .. وعن المشاعر الطيبة .. وعن القيم الجميلة التى تتعلق بها فى حياتنا .. بطريقة مهينة ..

— ٢٠٤ —

مفجعة .. تبعث فينا اليأس من كل شيء ..
ولكن ما مدى الحق في آرائه ؟
لا حق فيها بالطبع ..

لا يمكن لنا أن ننكر مشاعرنا ..

لا يمكن أن نجرد حياتنا .. ونتركها عارية إلا من الواقع لأن المشاعر شيء
كائن .. ولأن حياتنا مشاعر أكثر منها أى شيء آخر .. إن الواقع لا وجود له إلا
بالطريقة التي تعكسه لنا بها المشاعر ..

هذا الأنف أو الفم .. أو الصدر .. وهذه الشجرة .. وهذه الثمرة .. لا
وجود لها إلا بالطريقة التي نحسها بها ..

والمرأة جميلة لأنى أهم بها .. لأن بي شيئا يرينى إياها كذلك .. وجسدها
مثير لأن بي إحساسا يغرينى بها .. ولو ضاع هذا الإحساس لتساوت مع
الحجر ..

فحديث هذا العرييد الجرد من الإحساس .. لا يمكن أن يضع للواقع قيمته
الحقيقية ..

والمرأة التي يراها مجرد جسد .. ليست كذلك إلا لأنه هو نفسه مجرد
جسد بلا إحساس ..

ليس فى الأمر .. إذن .. خدع ولا أباطيل ..

ومع ذلك .. فقد أحس بمرارة من حديث هذا العرييد .. الصاحب وبداله
كأن كلماته رشاش من الطين أصاب مشاعره البيضاء .. النقية ..

وخيل إليه أن فراشه الهزاز الذى يرقد به بين الأزهار والبلابل .. قد هبطت
به يد عنيفة .. لكى تشعره بأن كل شيء فى حياتنا قائم على هذه الأرض ..
الصلبة السوداء .. وإنه ما من شيء يمكن فى دنيانا أن يعلق فى الهواء .. بلا سند
من الأرض وقاعدة من الطين ..

وعلت دقائق الساعة المعلقة فوق المدفأة .. وعد إبراهيم في سكون الليل
اثنتى عشرة دقة .. ونظر إلى مراد .. وكان ضجيجيه قد خفت .. والتعب
والسُكر قد تركاه أشبه بالذبالة المترنحة في مهب الريح ..
وقال مراد وهو يطوح ببقية الزجاجاة في جوفه :

— كم الساعة ؟

— اثنتا عشرة ..

— متى سننام .. إلى أكاد آخر صريعا ..

— قم بنا ..

وكان إبراهيم يخشى أن يحاول مراد دخول حجرته .. ويتوقع أن يلقى
جهدا لإقناعه بالمبيت معه ..

ولكن حالة السكر والإعياء التي بلغها .. جعلته أشبه بالخرقة البالية ..
وكان لا يكاد يقف على قدميه .. فساقه إبراهيم إلى حجرته .. ولم يكذ يبلغ
الفراش حتى ألقى بنفسه فوقه كجثة هامدة .. وبعد ثوان كان شخيره قد
علا ..

وفي الصباح كانت مديحة أول من استيقظ .. وفي عجلة ارتدت ثيابها
وساعدها إبراهيم في رص الحقائق وراء الباب استعدادا لنقلها إلى القطار ..
وقبل الرحيل .. وقفت تودع ليلي .. بقدر ما استطاعت من ثبات ورقة ..
شدت على يدها قاتلة في شبه اعتذار :

— أنا متأسفة لأنى لا أستطيع البقاء للعناية بك .. أنا أعرف أنها قلة ذوق

منى أن أتركك .. ولكنى أعرف كذلك أنك تقدرين موقفى ..

وأجابت ليلي في صوتها الرقيق بلا افتعال :

— أشكرك جدا .. أنا مقدره جميلك ولطفك ..

— أوكد لك .. لولا شدة مرض أبى لبقيت معك .

وكانت مديحة مخلصه في قولها كل الإخلاص ..
وأجابت ليلي :

— ربنا يشفيه ..

— ويشفيك .. وإن شاء الله نراك في مصر قريبا ..

— إن شاء الله بمجرد أن أستطيع النهوض .. سأذهب إلى مصر ..
وسأزورك ..

ودخلت ناديه هاتفة :

— سأنتظرك يا تنت ليلي .. إياك أن تتأخرى .. هيا بنا يا ماما .. مع
السلامة يا تنت ..

— مع السلامة يا حبيبتى ..

وتحرك الراكب إلى الخارج .. وكان إبراهيم قد ارتدى ملابسه ووقف في
الصالة ينتظر وداع مديحة لليلي .. وقبل أن تغادر مديحة البيت ألقت بنظرة على
الحجرة المغلقة التي رقد فيها مراد وتساءلت :

— ألم يستيقظ مراد ؟

— لا ..

— بلغه سلامي .. وأوصه خيرا بليلى .. هل ينوى أن يقيم في البيت كما
قال ؟

— أعتقد هذا .. لقد شرب أمس بطريقة تجعله لا يستطيع أن يغادر البيت
عاما بأكمله ..

وبعد لحظة كانت العربة تحمل الثلاثة إلى المحطة .. وفي الطريق صاحت
نادية كأنما قد تذكرت أمرا :

— أين نهي .. إني لم أرها ؟

وأجابت مديحة :

— لقد استيقظت من الفجر .. وقامت بما طلبت منها أن تعمله . ثم اختفت
بعد ذلك ..

وعلق إبراهيم على قولها :

— لعلها انطلقت في طريق العودة .. الطريق الذى ترقبه من النافذة كل
صباح .. مسكينة هذه البنت ..
وردت مديحة :

— لا تخش عليها .. ستجدها في البيت عندما تعود .. الظاهر أن طريق
العودة ذهاب وإياب ..
وقالت نادية :

— لماذا لم تنتظر حتى أراها ؟ .. إلى أحبها ..

وقبل أن يجيبها أحد .. وقبل أن تقف العربية أمام المحطة .. صاحت نادية :

— ها هي .. نهي ..

واندفعت نهي تعدو إلى رصيف المحطة .. ورفعت نادية بين يديها وصمتها
إلى صدرها .. وصاحت نادية :

— يا خائنة .. ظننتك خرجت دون أن ترينى ..

— حاولت .. ولكنى لم أستطع .. إلى أكره وداعك .. ولكن لم أطق أن
أتركك ترحلين دون أن أراك ..

وأحست نادية مرة أخرى بسخونة دموع نهي على خدها .. وسمعت
صوت أمها تنادياها :

— ياللا يا نادية ..

وأحست نهي بذراعى الصغيرة تضمانها .. ودموع تمتزج بدموعها !
وهبطت بها إلى الأرض .. ومسحت دموعها بطرف كمها وحاولت
التضاحك قائلة :

— لا تبكى .. سأت إليك قريبا ..
— ولكنك قلت إنك لن تأتي .. وأن بلدك هنا ..
— بل سأتي .. إن بلدنا واحد .. وطني أوسع من هذه الرقعة الصغيرة التي
احتلتها الأفاعي .. إن وطني عرني .. أنت وأبوك ملامتاني إحساسا بوطني
الرحب المتسع ..

وعادت مديحة تصيح بناادية ..
وبعد لحظة تحرك القطار .. وناادية تشير لنهاي ولأبيها .. ومديحة تلوح بيدها
في الهواء .. وذهنها معلق في جولته الحائرة بين الشكوك والأوهام .. وهي
تتساءل عما إذا كانت قد وضعت اللهب بجوار الوقود .. ثم تطمئن نفسها بأن
مراد سيقفي في البيت ليحول بين اللهب والوقود ..
واختفى القطار .. وعاد إبراهيم إلى البيت وهو يحس — برغمه — نوعا من
الراحة .. وكأنما أزاح عنه عبئا .. أو أزال حاجزا ..
ولم يستطع ضميره المؤنب أن يمنع هذا الإحساس الممتع من التسرب إلى
نفسه ..

ولم يدر سبب هذا الشعور بالراحة ..
— إنه لا يعرف ماذا يريد .. ولا ماذا ينوي ؟ .. وهو لا يعرف بالتالي ..
لماذا كان وجود زوجته يجرمه منه .. ولا ماذا أباحه رحيلها ..

لقد استراح .. وكفى ..
وأقبل على البيت .. ولم يكده يفتح الباب حتى قوبل بضجة من مراد ..
وسأله إبراهيم عما به .. فأجاب :

— هذا عبث .. هذه مسخرة .. تصور أن التليفونجي قد أبلغني إشارة
الآن بأن كل الضباط تبقى في مواقعها .. وأنه ممنوع على كافة الرتب مغادرة
المواقع .. لن أذهب .. سأستقيل ..

— ٢٠٩ —

وبعد لحظة كان مراد قد ارتدى ملابسه .. وكانت العربة تنهب به الأرض
نهباً إلى موقعه ..
وكان إبراهيم يقف أمام الباب .. وهو يحس — يرغمه أيضاً — أنه أزاح
بقية العبء .. وأزال الحاجز الآخر ..

الفصل الحادى والعشرون

الحقيقة الثالثة

دلف إبراهيم إلى الصالة وبنفسه مزيج من أحاسيس عجيبة متناقضة ..
تركته في شبه ذهول ممتع .. أو غيبوبة لذيدة .. أشبه بأحلام الغفوة .. أو نشوة
الخدر ..

كان في حيرة من أمره .. ومن مشاعره ..
لقد وجد نفسه فجأة .. وأمانيه الحلوة ملء يديه ..
لقد أحس وكأن الضجيج من حوله قد خفت .. والضباب قد تبدد ..
والموج قد انحسر ..

وإذا به .. وإياها .. وحيدان .. بلا شريك ولا رقيب ..
هذا البيت النأى .. الساكن .. بين الأمواج والرمال .. بيت الأحلام .. قد
خلا إلا منهما ..

في ساعات الشرود والهيام .. كان يتصور نفسه وإياها .. في معزل عن
العالم .. في بقعة حاملة .. ينصت إلى حديثها الخلو .. ويفسح لها من صدره
مسنداً لرأسها الجميل .. ويتناول وإياها الشاي المحلى بأربع قطع .. وتلفحهما
موجة برد فيضمهما إلى صدره أكثر وأكثر .

أشياء كثيرة كان يحلم بها .. إذا ما ضمهما بيت الأحلام في البقعة النائية ..
بعيدا عن الناس .. هو بلا زوجة .. وهى بلا زوج .. والحياة ممتدة أمامهما
كالمرعى الخصيب .. أو البحر الهادئ بلا أنواء ولا رياح هوج ..
كانت مجرد أحلام .. لا طائل منها إلا متعة التفكير فيها .. أو أمانى .. لا

تصل إلى مرتبة التحقيق .. وإنما يعيش المرء بأوهامها زمنا رغدا .
ومرة واحدة .. وبمنتهى البساطة .. وجد نفسه فيها ..
لقد رحلت مديحة .. ورحل مراد ..
وأضحى هو وهى .. والأمانى ملء يده والأحلام طوع بنانه ..
إلى متى؟! .. وإلى أى مدى يمكن أن يحقق أحلامه؟!
لا يدري ..

إنه لا يستطيع أن يفكر فى شىء .. المهم .. إنه وجد نفسه فى الحالة التى
كان يتلهف عليها .. حالة الوحدة معها ..
أما إلى متى .. وماذا سيفعل؟! .. فمسألة لا يجب التفكير فيها .. لأنه
— إلى حد ما — يخشاها .. ولأنها تسبب له هذا القلق الخفى .. والخوف
المبهم .. اللذين يشوبان متعته ..

وظل إبراهيم يتنقل برهة بين الصالة وحجرته .. وهو حائر قلق .. يبدو
كأنه يفعل شيئا .. وهو يتحرك ويقوم ويجلس بلا هدف .. وأخيرا اتجه إلى
باب الحجرة التى رقدت بها ليلى وطرقه بخنقة ..
وسمع صوتها الرقيق يهتف :
— ادخل ..

ودفع الباب .. واقترب من الفراش ..
والتقت عيناه بعينها . وأحس من نظراتها عناق الوحشة وضمة الشوق ..
ولم يغيب عن إحساسه لحة الراحة والاستقرار التى بدت فى نظراتها ..
ومد يديه .. فضم كفها .. وأغمضت عينها وقد تملكها نشوة لذيدة وهى
ترك كفها فى يديه ..
ونظر هو برهة إلى عينها المغمضتين .. وبلا وعى رفع كفها ودفن شفنيه
فى راحتها ..

وبلا وعى منها هي الأخرى .. والعينان مغمضتان .. والروح هائمة ..
والفؤاد ذائب .. والقلب خافق .. أخذت يدها تتحسس وجهه في رفق
وتؤدة .. كما تتحسس الأم الضريرة ملامح ولدها بعد طول غيبة ..
مست شفثيه .. وطرف أنفه .. وذقنه .. وعينه .. ثم استقرت على شفثيه
مرة أخرى .. لتضغطهما برفق حنون ملؤه الشوق والوجد والحب ..
وفتحت عينها ورمقته في رضاء وطمأنينة .. وفتحت شفثها ثم أغلقتهما
ولم تقل شيئا .. وإن بدا كأنها تود أن تقول ..
« وأخيرا » ..

وقبل أن تقول شيئا طرق الباب .. وبدت نهى بوجهها النحيل تتساءل :
— أحضر الشاي ؟
وأجابت ليلي :
— أجل يا نهى ..

وأحس إبراهيم بأن صوت الفتاة قد أعاده إلى وعيه .. وكأنه نذير يذكره
بالحقائق الواقعة التي لا تستطيع القلوب الخافقة .. أو الأحاسيس المرهفة ..
أن تتجنب وجودها .. أو تبدل حقيقتها ..
لقد ذكره الصوت .. بأنه ليس بمعزل عن العالم .. وبأنه ليس بمنأى عن
الناس .. وأن بيت الأحلام الذي رسمه في أوهامه لم يتحقق بعد .. وأن البيت
الذي يعيش فيه هو بيت زوج .. وما زال عليه أن يراعى تصرفاته أمام الغير ..
لقد جذبه الصوت من لحظة الهيمن .. التي مست فيها الكف الناعمة
شفثيه .. ووضع أمام نفسه كطفل مذنب .. لم تكذب تغفل عين الرقيب عنه
حتى أسرع باللهو والعبث ..
ولام نفسه ..

كان يجب أن يكون أرجح عقلا .. وأكثر اتزاناً .. وأشد صبراً ..

ولكنه لم يكن كذلك لأنه يجبها ..
أجل .. إن حبه لها حقيقة واقعة .. تتساوى مع بقية الحقائق الواقعة ..
تتساوى مع حقيقة ارتباطها بزواج .. وارتباطه بزوجة .. وهو إذا كان لا يملك
إنكار هاتين الحقيقتين .. فهو أيضا لا يملك إنكار الحقيقة الثالثة ..
الحقائق الثلاث .. موجودة مؤكدة ..
والحقيقة الثالثة .. وهى حبه .. أشد تأكيدا .. وأكثر وضوحا .. رغم
انطوائها فى باطنه .. وإنكارها عن الغير ..
وتلك هى العقدة ..
إن حبه حقيقة .. لا وهم ..
وقد حاول أن يحوله إلى أحلام .. وأوهام .. ولكنه أبدا يأتى التحول ..
وقد حاول أن يجعل منه ذنبا .. وخطيئة .. وقد نجح إلى حد ما .. ولكن
ذلك لم يمح وجوده كحقيقة ثابتة لا تتحول ..
حقيقة .. كل خطيئتها أنها وجدت إلى جوار حقيقة أخرى .. مضادة ..
متنافرة .. تأبى أن يكون لها كيان بجوارها ..
إن حقيقة حبه ليست خطيئة فى حد ذاتها .. ولكنها خطيئة لأنها وجدت
بين حقيقتين تأبيان أن يكون لها وجود إلى جوارهما .. وهما حقيقة زواجها ..
وحقيقة زواجه ..
وحقيقه حبه شعور عميق .. والحقيقتان الأخريان مجرد شئ ناتج عن
تنظيم وتقنين ..
وأحس فى وقفته أن رأسه مثقل ..
وأحس أن تجربة بيت الأحلام .. والخلوة النائية .. تجربة شاقة عسيرة ..
إذا استمرت الحقائق الثلاث تتصارع فى نفسه ..
وأفلتت يد ليلي .. وهمست هى .. وقد بدا لها كأنه يتسرب من أصابعها

ليذهب بعيدا .. بعيدا :

— فيم سرحت ؟

وابتسم ابتسامة باهتة .. وأجاب :

— أبدا ..

— لقد بعدت عنى ..

— أنا لا أبعد عنك أبدا :. إني بجوارك دائما ...

— أقصد ذهنك .. فيم شرد .. قل لي ..

— في الحقائق الثلاث ..

— أى حقائق تعنى ؟

وطرقت نهي الباب ثم أقبلت بصينية الشاي .. وعليها فنجانان ووضعتهما

على منضدة صغيرة بجوار الفراش .. ثم انصرفت في هدوء ..

ونظر إبراهيم إلى الساعة في معصمه .. ثم قال وهو يهيم بالانصراف :

— سأتركك الآن ..

— لم تقل لي بعد ما هي الحقائق الثلاث ..

— بعدين ..

— بل قل الآن ..

— أيهمك كثيرا أن تعرفي ؟

— ليس هناك شيء خاص بك .. لا يهمني أمره ..

— حتى التفاهات ؟

— ليس بك تفاهات ..

— ما من إنسان إلا وله تفاهاته ..

— إلا أنت .. كل ما بك أحس به حيويا بالنسبة لي ..

— لا يمنع ذلك من أن يكون تافها .. إن تقديرنا الشخصي لا يدل على

حقيقة أمره ..

— لا تخرج عن الموضوع .. حدثني عن الحقائق الثلاث .. ما هي الحقيقة الأولى ؟

وصمت إبراهيم برهة .. ثم رفع رأسه وأجاب ببساطة :
— مديحة ..

وأحست ليلى بمرارة مفاجئة .. وبدا الضيق على وجهها .. ولكنها استمرت تسأل في إصرار :

— والثانية ؟

— مراد ..

— والثالثة ؟

وتهمل إبراهيم برهة وهو يرقب وجهها الذي بدا وقد غيمت عليه سحب الهم والاكئاب ..

وعادت ليلى تكرر سؤالها :

— والثالثة ؟

وأجاب إبراهيم في لهجة هي مزيج من اليأس والتشبت والإصرار :
— حينا ..

وكانت المرة الأولى التي ينطق فيها التعبير الصريح .. لما بينهما ..
وأحست ليلى بنشوة من كلمة الحب .. وانقضت غيوم الهم عن وجهها .. وانبسبت أساريره ..

كانت الكلمة حلوة الطعم في نطقها .. حلوة الوقع في مسمعها ..

وتمنت ليلى لو سمعتها ثانية ..

وتمتت تقول متسائلة في همس :

— ماذا قلت ؟

— حيناً ..

— قلها ثانية ..

وأخذ يردد الكلمة .. وهو يحس بنشوة من نطقها ..

وهمست ليلي وعيناها تضحكان :

— ليس هناك حقائق ثلاث .. إنما هي حقيقة واحدة ..

وضحك إبراهيم وتساءل :

— وما هي ؟

— الحقيقة الثالثة ..

— سميا باسمها ..

— حيناً ..

— قولها ثانية ..

— حيناً ..

— قولها ثانية ..

— حيناً ..

— وثالثة .. ورابعة .. لا تكفى عن قولها أبداً ..

وأخذت ليلي تهمس باللفظة المحرمة .. وكأنها تزيل بها كبتا طالت

وطأته .. وثقل عبئه ..

وسمع إبراهيم صوت كلاكس العربة ..

ومرة أخرى .. شدَّ من عليها أحلامه .. وتذكر أن وراءه عملاً .. وأنه لا

يستطيع أن يقضى يومه .. هائماً .. يستمع إلى ألفاظ الحب ..

ومد يده فشد على يدها مودعاً .. ولكنها لم تترك يده .. بل قالت في شبه

رجاء :

— ألا تشرب الشاي ؟

— لا بد أن أذهب ..

— لقد أعدت نهي فنجانين ..

وجلس إبراهيم على حافة الفراش وأخذ يصب الشاي .. وتساءل ضاحكا
وهو بهم بوضع السكر :

— كم قطعة ؟

— كما تشاء .. إني أحب كل ما تحب .. وأكره كل ما تكره .. كم أجد نفسي
شبيهة بك .. في كل ما تحس .. وكل ما تفعل ..
— أنا شبيه بك أنت .. أنا رقيق مثلك .. هذا خير ما يمكن أن أسمع من
مدح ..

وناولها الفنجان .. وأخذ كل منهما يحتسى الشاي وعيناه ترمقان عيني
الآخر في لهفة وشوق ..

وبعد برهة أقبلت نهي ترفع الصينية .. ونهض إبراهيم مودعا ليلي متجها إلى
المعسكر ..

واستقر إبراهيم بين الضباط .. شاردا الذهن .. وبنفسه إحساس المقبل على
أمر جليل ..

لم يكن هناك شك في خطورة الحقيقة الثالثة .. ولا سيما بعد أن بدت
صريحة سافرة .. طاغية على غيرها من حقائق .. مقنعة بأنها وحدها الحق ..
وغیرها زائف باطل ..

وحاول إبراهيم أن يهرب من أفكاره التي تدفعه إلى التشبث بالريح
الجديد .. وإلى الانطلاق إلى البيت لكي يركع بجوار ليلي .. ولكي يهتف بها
ويسمع منها .. كل ما يمكن أن يقال عن حبهما ..

وأخذ الوقت يمر به بطيئا متاقلا .. وبدأ له أن كل هذه الأعمال التافهة
التي يقوم بها لا تحتاج إلى وجوده في المعسكر .. وأنه يستطيع ببساطة أن ينهها

وهو في البيت بالتليفون ..
وعندما انتصف النهار نهض من مكتبه في تبرم .. وعزم على العودة إلى
البيت ..
وقبل أن يغادر المكتب .. أقبل عليه عامل التليفون يحمل دفتر
الإشارات ..
وقرأ إبراهيم الإشارة .. وبدأ عليه الضيق والامتعاض .. كانت الإشارة
تطلب ذهاب قواد الوحدات إلى مكتب قائد الفرقة في رفح ..
وألقى إبراهيم بالدفتر على المكتب في ضيق .. ورفع سماعة التليفون قائلاً :
— أعطني أركان حرب الفرقة ..
وبعد لحظة أجابه عامل التليفون :
— موجود عند سعادة القائد ..
— أعطني أى ضابط في الفرقة ..
— أتفضل يا فندم .. معاك ضابط الإشارة ..
وبعد لحظة سمع ضابط الإشارة يتساءل :
— أفندم ..
— أنا اليوزباشى إبراهيم شكرى ..
— أهلاً إبراهيم .. أنا الصاغ حسين زكى ..
— وصلت إلينا الآن إشارة تطلب قواد الوحدات لمقابلة قائد الفرقة ..
— أجل .. أنا الذى أرسلتها ..
— ما هو المقصود بقواد الوحدات .. هل أنا منهم ؟
— طبعاً .. أتظن نفسك صغيراً يا أبا خليل ؟ .. أنت قائد على سن ورمح ..
ولم يحس إبراهيم برغبة في المزاح .. فتساءل في ضيق :
— وما هو المطلوب منا ؟

- حضور مؤتمر ..
— وهل ضرورى أن أكون موجودا به ؟
— طبعا ضرورى .. نحن لا نستغنى عن المهندسين أبدا ..
— ومتى تريدوننا ؟
— الساعة الواحدة .. يعنى تركب عربتك وتأتى حالا ..
— ومتى سننتهى ؟
— علم هذا عند القائد ..
— متشكر ..
— مع السلامة ..
ووضع إبراهيم السماعة .. وهو يحس بقلق .. إلى متى سيطول المؤتمر ..
وماذا يريد قائد الفرقة منه .. وكيف يترك ليل وحدها ؟
على أية حال .. ليس هناك مفر من الذهاب .. والمؤتمر لا يمكن أن يطول
أكثر من ساعة أو ساعتين على الأكثر ثم يعود بعدها إلى ليلى ..
وسارت العربية تنهب به الطريق إلى رفح .. وفي خيمة أر كان حرب الفرقة
التقى بمراد .. وكان قد سمع ضجيججه وهو فى طريقه إلى الخيمة .. ولم يكذب يراه
حتى أقبل عليه متسائلا :
— ماذا أتى بك إلى هنا ؟
— المؤتمر ..
— مؤتمر ١٢ .. وماذا تنوى أن تقول فى المؤتمر ١٢ ؟
— لا أنوى أن أقول شيئا .. إنى سأستمع فقط وأجيب إذا ما سئلت عن أى
شئ أستطيع الإجابة عنه ..
— ألم تحضر مؤتمرات قبل هذا ؟
— لا ..

— اسمع .. أنا حضرت مئات المؤتمرات قبل هذا .. وخرجت منها كما دخلت فيها .. لت وعمجن .. وعمجن ولت .. نحن نريد أسلحة .. دبابات ومدافع .. والمؤتمرات للأسف لا تلد لنا إلا كلاما وحكما ..

وبدأ المؤتمر .. وقيل فيه كلام كثير .. سرح إبراهيم في معظمه .. ولم يحس بندم كثير .. فقد أحس بتفاهة الجزء الذى استطاع ذهنه أن يلتقطه .. فى الهتبهات التى كان ينصت فيها إلى المؤتمر ..

وطال المؤتمر .. وطالت المناقشات فيه .. وأحس إبراهيم بقلقه يتزايد كلما أوشك النهار على الانتهاء ..

كان يكره أن يترك ليلى وحدها .. إذا ما سقطت الظلمة ..

وكان يخشى أن يكون القدر قد نوى السخرية منه .. وأن رحيل مديحة .. ورحيل مراد .. عن البيت .. سيعقبه رحيله هو أيضا .. وأن بيت الأحلام قد خلا حتى منه ..

ولكن قلقة لم يطل .. وما لبث المؤتمر أن انتهى .. وأسرع إبراهيم يقفز إلى عربته ومراد يلوح له مودعا وهو يهتف به :

— مع السلامة .. سلم لى على ليلى .. وخذ بالك منها .. لا تتضايق منها لأنها دلوعة .. احتملها حتى أعود .. وسأحاول أن أخطف رجلى إليكم فى كل فرصة أستطيع فيها التزويغ ..

وانطلقت العربة عائدة بإبراهيم فى ظلمة الليل إلى العريش .. ونصيحة مراد ما زالت تطن بأذنه « احتملها حتى أعود » .. يا للسخرية .. إنه يتمنى لو احتملها طول العمر ..

الفصل الثاني والعشرون

بلا نهاية

كانت الأمطار قد أخذت تتساقط .. واشتد عصف الريح .. نхим الصمت
إلا من طرق قطرات المطر على النوافذ والأسطح .. ولطم موجات الريح
لأفرع الشجر وفحيحها بين أوراقها .. وطرفعة شرر يتطاير من رابية نار
حولها المراسلة والجنائين يصطليان بدفتها في كشك الحديقة ..
وداخل الدار رقدت ليلى على الفراش وقد بدا عليها شروء شديد وجلست
أمامها نهي تحاول أن تقطع الصمت بكلمات متقطعة لا تلبث أن تذوب على
شفتيها ..

كانت ليلى تحس بقلق شديد ..

كانت ترهف سمعها .. عليها تسمع صوت وقوف عربة .. أو دق
جرس .. وكان السمع يخدعها .. بأصوات سراوية مستمرة لعربة تقف
وجرس يدق .. وكانت تشد يدها على الوسادة وترفع رأسها .. هاتفة بنهي:
— أحد بالباب .. أسمعت دقا ؟

وتنصت الفتاة برهة ثم تهز رأسها قائلة :

— لا أحد هناك ..

ويغرق كل منهما في صمت .. وينطلق بهما الذهن في جولته الهائمة ..
وراء هذا « الأحد » الذي يجلسان في انتظاره ..

لماذا طالت غيبته ؟

إنه لم يفعلها من قبل .. لم يرغب قط عن البيت مثل هذه الغيبة .. إنه دقيق

المواعيد .. منتظم الروحات والغدوات ..
أتراه قد ذهب إلى الخطوط الأمامية .. إلى قلب المعركة ..
من يدري .. يحتمل أن يكون هو الآخر قد أمر بالألغام يغادر مواقعه ..
وأحست ليلى بعبء يجثم على صدرها ويثقل أنفاسها .. ولعله أيضا .. في
طريقه إلى القتال .. أو هو يقاتل فعلا ..
ولكن أى دور يمكن أن يقوم به في المعركة .. لقد سمعت من مراد .. أن
المهندسين لا يحاربون .. وإنما هم يساعدون فقط في المعركة .. ييثون ألغاما ..
أو يرفعون ألغاما .. يتسفون طريقا .. أو يصلحون طريقا ..
وأحست بنوع من الطمأنينة .. ما لبث ذهنها حتى نفضها .. وعاد يعم في
إقلاقها ..
إنه على أى حال في أرض المعركة .. ومحتمل أن يصيبه لغم .. أو تصيبه
طلقة طائشة ..
وبدأ ذهنها يضع التفاصيل .. ويصور الدقائق .. وأحست بالألم يعتصر
جوفها .. وضغطت على شفتها حتى تمنع نفسها من البكاء ..
وحاولت أن تطرد عنها الوسواس .. ومقنعة نفسها بأن غيبته لا تحتم
خوضه معارك أو اشتراكه في قتال .. وإنه قد يأتي بين لحظة وأخرى ..
وعادت تتساءل مجيبة على محاولات التهدة ..
ولكن لماذا لم يخبرها ..
ما ضره لو أنبأها في التليفون أنه سيتأخر ؟
أترى لو أن مديحة موجودة .. هل كان يفعل هذا ..
هل يتركها بلا كلمة واحدة ..
ولكن مديحة زوجته .. وهذا حقها عليه ..
وملأت نفسها مرارة أليمة ..

أجل .. أى حق لها في أن تطلب منه الاستئذان في التأخير .. إنها لم تطلب
هذا من زوجها .. إن مراد يغيب بالليالي دون أن ينبعها أو يستأذنها ولم تشعر
مرة واحدة بالقلق عليه .. أو بالرغبة في لومه ..
ومع ذلك فهي ترتجف الآن جزعا وقلقا ؟ ..
لماذا ؟!

لأنها تحبه !؟

وما آخرة هذا الحب .. وسا جدواه !؟

حرمان أبدي .. أم علاقة أثيمة محرمة ؟

لو أن الأمر .. كان بيدها وحدها ..

لو أن المسألة .. كانت مسألة ارتباطها هي .. لما بدا يمثل هذه الاستحالة ..
إنها لم تحس يوما ما .. بارتباط روحى .. مع مراد .. ولا تعتقد .. أنها يمكن
أن تحس به .. لأن مراد كائن بلا روح .. إنه مجرد جسد مندفع كالصاروخ ..
لا يمكن أن يأتلف مع غيره .. أو يعبا بمن حوله ..

وفي أيامها الخالية .. طالما تاقت .. إلى الإلف الحنون .. إلى النظرة
الرقيقة .. والمسمة المطمئنة .. والأذن المنصتة .. والبسمة العذبة ..

لقد افتقدت كل هذا طوال حياتها .. إنها لا تكاد تذكره إلا في أمها
الراحلة .. منذ أمد بعيد .. وهى بعد طفلة لا تذكر الأحداث إلا وقائع
مهزوزة هائمة كأنها الأحلام ..

ومرت بها حياتها بعد ذلك .. وهى وحيدة فى داخلية المدارس .. ثم ضمها
البيت كغريبة مع زوجة أبيها .. وبعد ذلك التقطها مراد .. ليضعها فى بيته ..
مجرد آلة .. تشبع نهمه عندما يحتاج إلى أنثى فى فراش ..

لا حب .. ولا حنان .. ولا ألفة .. ولا وداد .. ولا مشاعر متبادلة .. ولا
رغبات مشتركة .. ولا .. ولا .. ولا شئ أبدا .. مما يشعرها بأنها مخلوقة

سامية .. ذات روح وقلب .. ومشاعر .. وأمانى وأحلام ..
حتى لقيت أخيراً هذا المخلوق المحرم ..
ولو كان الأمر بيدها .. لسألت مراد أن يعفيها ببساطة من ارتباطها به ..
إنه قطعاً في غير حاجة ماسة .. إليها بالذات ..
أية مخلوقة أخرى .. لها جسد طرى .. وصدر وساقان وأرداف .. يمكن
أن تقضى حاجته ..

ليس لها في اعتباره .. من الملامح الخاصة ما يميزها عن سواها ..
وليس هناك من الارتباطات ما يعذر عملية الانفصال .. لا أولاد .. ولا
مشاعر .. ولا أية تعقيدات أخرى ..
وهو لا يعبأ بشيء .. ولا يقيم وزناً لشيء .. ولا جدال في أنه سيعفيها من
ارتباطها به .. بمنتهى البساطة ..
ولكن إبراهيم ..

هل يستطيع أن يخلى نفسه بمثل هذه السهولة التي تفكر بها ؟
هل ارتباطه مع طرفه الآخر .. يمكن أن يحل .. بنفس السهولة التي تتوقعها
من طرفها الآخر ؟
لا تظن ..

ليست الحال واحدة في الناحيتين ..
إنه في حياته أكثر استقراراً .. ولولا اعتراضها طريقه .. لما كان هناك ما
يجعل حياته أمراً غير طبيعي .. ولما بدا له أنها كانت يمكن أن تكون شيئاً غير
هذا ..

وهو مخلوق له ضمير .. لا يستطيع أن يبنى سعادته .. على شقاء الغير .. أو
يطلب مزيداً من الهناء .. على حساب هناء الآخرين ..
هو يكره أن يتسبب في إيذاء إنسان .. ولو أدى هذا إلى منحج مزيداً من

الربح من حياته .. مهما كان هذا الربح حيويا بالنسبة إليه ..
إنها تعرف جيدا .. تعرف مدى إحساسه .. بمشاعر الناس .. وتقديره
لآلامهم ..

ومن المستحيل .. أن يقدم على أمر .. يعرف أنه يسبب ألما لكائن ما مهما
كان شعوره لهذا الكائن ..
وهو لا يكره مديحة .. لأنه لا يكره أحدا .. وهي تجزم أنه يحترمها
ويقدرها ..

ومن أجل هذا .. تحس ليلي أن فك الارتباط بينهما .. مسألة لا يمكن إقناع
النفس بها ببساطة .. حتى ولو على سبيل .. التمنى ..
ثم إن هناك .. نادية ..

هناك الحلقة التي تحكم .. الوثاق بينهما .. والتي تجعل الانفصال شاقا
أليما ..

هناك الكائن الحي .. الذى يمثل .. الصلة الدائمة بينهما .. والتي تفتقدها
هى مع الطرف الآخر ..

هناك المخلوق الذى سيظل معلقا بقلبيهما .. بيد هنا .. ويد هناك .. مهما
فصلت بينهما الظروف .. وفرقت الأقدار .

أجل .. مسألة حريتها .. قد تبدو سهلة ميسورة أمام حرته فإنها شاقه
عسيرة .. بل إنها .. لإنسان .. فى مثل خلقه .. تكاد تكون مستحيلة ..
فماذا يمكن أن تأمل بعد هذا ؟.

علاقة .. مستترة ؟

كيف .. وإلى أى مدى ؟ .. وما نتيجتها ؟ .. هل يمكن أن تستمر مدى
الحياة ؟

هل يمكن .. أن يشد أحدهما إلى الآخر .. خفية .. وبلا عواقب ..
(طريق العودة)

ولا نتائج .. إلى ما لا نهاية ..

مستحيل !! ..

وأحست برأسها يوشك أن يتحطم .. وهي تجدد نفسها تصل .. إلى نفس
النتيجة التي تصل إليها دائما .. كلما خاض ذهنها في التفكير والاستنتاج ..
وكرهت تفكيرها .. ولم تجد لنفسها مخرجا .. سوى الهروب منه ..
يجب ألا تفكر في النتائج .. لتركها للقدر .. يفعل بها ما يشاء ..
ليس من شأنها أن تدبر المصائر .. إنه من شأن القدر وحده ..
إنها لا تريد شيئا .. يكفيها جدا .. اللحظات التي تعيش فيها ..
ماذا يمكن أن تجني من عمرها .. خير من تلك اللحظات المشرقة التي ..
تضمها وإياه .. في حب واحد .. ومشاعر وأمانى واحدة ليفعل القدر بعمرها
بعد ذلك ما يفعل ..

لن تعبأ بكل ما يأتي به إليها .. « وقد يهون العمر إلا ساعة » ..

فقط .. ليعث به إليها الآن ..

لماذا تأخر؟ .. إنها لم تحس بحاجتها .. إلى شيء في حياتها .. كما تحس بحاجتها
إليه في تلك الساعة ..

ونظرت إلى نهي .. وبعينها نظرة التساؤل الجزعة اليائسة ..

وأجابت نهي مطمئنة :

— لا بد أنه قادم في الطريق .. ما دام لم يقل أنه سيبيت خارج البيت ..

— ولكن ماذا أخره ؟

— لا بد أن هناك مشاغل .. إن الحالة ليست على ما يرام وقد سمعت من

محمود السائق .. أن هناك تحركات في جميع الخطوط .. وأن أمرا ما يوشك أن
يحدث ..

وأحست ليلي بخوف من ذلك « الأمر ما » ..

ولكن نهى .. أطلقت الكلمة بغير خوف .. ولا خشية .. كأنها تريد ،
وتتوقع ذلك « الأمر ما » .. ولم يكن وقوعه .. يخيفها .. رغم أنها لم تستطع أن
تمنع نفسها من اللهفة على عودة إبراهيم ..
كانت نهى حائرة .. في مشاعرها ..

لقد تمت دائما أن يشق لها إبراهيم طريق العودة .. كانت تضعه في موضع
فارس الأحلام .. يدك بسلاحه .. حصون اليهود .. ويمزق أوصالهم ..
ويقذف بجثثهم إلى البحر ..

كانت تركز فيه كل أحلامها .. وأمانها .. وكان وسيلتها للثأر من خسة
اليهود .. وضعتهم .. ووسيلتها للعودة إلى أهلها الغائبين وأرضها الطيبة ..
وربوتها الخضراء ودارها الرحبة .. وشمسها المشرقة .. كانت تريده أن يخوض
المعارك .. من أجل وطنها المسلوب .. وقومها المشردين ..
كانت تتوق إلى أن يخرج ليضرب ويثأر .. ولكنه لم يكده يغيب .. حتى
أحست بلهفة عليه ..

ولكنها هفوة .. بلا جزع ..
كانت أحاسيسها أبسط كثيرا من أحاسيس ليلي ..
كانت مشاعرها لا يشوبها إحساس بغيرة أو يأس لأنها لم تحس أن هناك من
يشاركها فيه ..

كانت مطالبها منه .. تختلف تماما عن مطالب غيرها .. ولم تكن تضع
نفسها أبدا طرفا ثالثا .. مع الطرفين الآخرين .. ليلي .. ومديحة ..
لم تكن في مشاعرها نحوه .. تنطلع إليه كبشر .. بل كان في أحاسيسها ..
مجرد صفات .. تحتاج إليها .. وتتلهف عليها ..
كان حنانا .. يعوضها .. عن أهلها الضائعين ..
وكان قوة .. تعيد إليها وطنها .. المسلوب ..

ولم تكن ترى هناك منافسا لها .. فيما تطلب .. ولا كانت تحس أن أحدا ..
يستطيع أن يسلبها .. ما تأمل منه .. ولا يشاركها ما ترجو فيه ..
ولم تكن تخشى عليه من المعارك .. ولكنها فقط كانت ترجو أن تكون إلى
جواره ..

كانت تحس أنها تستطيع أن تفعل له الشيء الكثير ..
وكانت في أحلامها .. لا تتركه وحده قط .. كانت تسهر على راحته ..
كانت تعد له الطعام .. كانت تضمد جرحه .. كانت تحذره من العدو ..
كانت تفعل له شيئا كثيرا ..
وكانت في انتظارها قلقة ..
لا لخوفها من أن يكون قد ذهب إلى المعركة .. بل لخوفها من أن تكون
معركة الأحلام قد بدأت .. دون أن تكون هي في أثره .. ملاصقة له ..
كان يجب أن تنبهه إلى ذلك ..
كان يجب أن تحذره من أن يذهب إلى المعركة وحده ..
فقط .. لو عاد الآن ..
وانتهت نهي إلى نفس الأمنية .. التي انتهت إليها ليلي لو أنه عاد ..
ودق الجرس ..
دقا حقيقيا هذه المرة ..
وقفزت نهي إلى الباب .. وشدت ليلي قبضتها على الوسادة ومدت رأسها
لترى الداخل ..
وفتح الباب .. ودخل إبراهيم .. مبتل الثياب معفر الوجه ..
وسأل في لهفة :
— كيف حال ليلي ..
واسترخت ليلي في فراشها متهددة في راحة ..

وأجابت نهى :

— بخير .. كيف حالك أنت ؟ .. لماذا تأخرت ؟ ..

— لقد كنت في مؤتمر في رفح ؟ ..

وسار إبراهيم إلى حجرة ليلى ونهى تتبعه قائلة :

— ظننا أنك ذهبت إلى القتال .. وقد نسيت أن أرجوك ..

والتفت إليها إبراهيم متسائلا :

— ترجو في فيم ؟ ..

— ألا تذهب إلى المعركة .. إلا إذا أخذتني معك ..

وضحك إبراهيم وتساءل في دهشة :

— آخذك إلى المعركة ؟

وكان قد وصل إلى حجرة ليلى .. ووقف أمامها .. ينظر إليها في شوق ..

وأحس بنفسه لهفة جارفة على ضمها إلى صدره ..

ولكنه لم يملك إلا أن يقف صامتا أمام الفراش .. يرقبها في حنان شديد ..

وابتسمت ليلى .. وقد تبددت من نفسها كل مشاعر اليأس والجزع .. ولم

تعد تحس إلا بشعور عميق من الرضاء والراحة .. وتمنت لو مدت إليه ذراعها

ليأخذها في صدره ..

ولكنها لم تجرؤ على أكثر من مديدها .. تشد بها على يده .. وهمست قائلة :

— لماذا تأخرت ؟

— استدعونا إلى مؤتمر ..

— ولماذا لم تنبئني ؟

— ظننت أني لن أتغيب كثيرا ..

— لقد كدت أجن .. إياك أن تفعلها بعد ذلك ..

— إلى هذا الحد قلقت عليّ ! ..

— وأكثر من هذا ..

وكانت نهى قد غادرت الحجرة .. وهى تحس أن شيئاً ما يوشك أن
يقال ..

وأردفت ليلي وهى ترتعد :

— إني دائماً أعجز عن الشرح لو كانت المشاعر تُرى .. لأراحتنى
كثيراً ..

وضغط إبراهيم على يدها وهو يحس بها مرتجفة باردة وقال هامساً :

— لا حاجة بك إلى شرح مشاعرك .. لأنى أحسها فى مشاعرى .. ليس
علّى لكى أعرف ما بك .. إلا أن أراجع ما بى ..
وصمت برهة ثم قال :

— أنت بردانة .. لماذا لم توقدى المدفأة ؟ ..

— لقد كنت فى غيبتك لا أفكر إلا فى شىء واحد .. هو عودتك ..
— أما وقد عدت .. فأظننا نستطيع أن نفكر فى أشياء كثيرة نفعلها معا ..
سأذهب لأخلع ملابسى وأوقد المدفأة ..

وترك إبراهيم يدها ثم ذهب إلى حجرتة .. فأبدل ملابسة ثم حمل بعض
الوقود فملاً به المدفأة .. وأشعلها ..

وسأله نهى :

— أين إبراهيم الطباخ ؟

— لقد ذهب إلى بيته .. هل أعد العشاء ؟

— أهنالك شىء جاهز ..

— أجل .. لا يحتاج إلا للتسخين ..

اختفت نهى فى المطبخ .. وعاد إبراهيم إلى ليلي وكانت قد جلست فى
فراشها ترقب نيران المدفأة التى بدت من خلال الباب ..

وأمسك إبراهيم بيدها وأخذ يفركها بين يديه .. قائلاً :
— ما زلت بردانة ؟ لن تؤثر فيك المدفأة وأنت على هذا البعد ..
وصمت برهة ثم تساءل قائلاً :
— ما رأيك لو انتقلت أمام المدفأة ؟
— كيف ؟
وضحك إبراهيم مجيباً وهو يمد يديه ليرفعها من الفراش ..
— هكذا .. هل ترينها مشكلة ؟ ..
وسار بها يحملها من ذراعها ببساطة كأنها طفلة .. وتملكتها نشوة عجيبة
وهي تحس بجسدها مضموماً إليه .. ورائحة جسده وأنفاسه تنفذ إلى أنفها ..
وكانت عملية النقل مفاجأة بريئة .. ولم يقصد من ورائها إلا مجرد النقل ..
ولكنها مع ذلك كانت أمتع من كل عمليات العناق والضم ..
ووضعها على أريكة أمام المدفأة قائلاً وهو يضحك :
— لم أكن أظنك خفيفة بهذا القدر ..
وضحكت ليلي مجيبة :
— مع أن بي نصف قنطار جبس ..
ووضع إبراهيم وسادة وراء ظهرها وجر الغطاء على ساقها قائلاً :
— أظن هذا خيراً بكثير من رقدة الفراش .. تستطيعين الآن أن تستمتعي
بالمدفأة ..
وأقبلت نهي من المطبخ فذهلت من وجود ليلي أمام المدفأة وصاحت :
— كيف أتيت إلى هنا ؟ ..
ومد إبراهيم ذراعيه قائلاً :
— على كرسي السلطان ..
وضحكت نهي قائلة في خبث :

— وأين يريد السلطان أن يتناول عشاءه ؟
— أمام المدفأة طبعاً .. سنتناول العشاء كلنا معا ..
وبدأت نهي تعد الطعام على منضدة صغيرة أمام الأريكة التي تتمدد عليها
ليلي .. وعندما انتهت من إعداده قال إبراهيم :
— اجلسي يا نهي ..
— لقد تعشيت ..
— متى ؟
— الآن في المطبخ .. أتريدان شيئاً .. أم أستطيع الذهاب إلى النوم ؟
— لماذا لا تجلسين معنا ؟
— إذا لم تكونا في حاجة إليّ .. فأني أفضل أن أستريح ..
وكانت نهي تحس أنها ثالث غير مرغوب فيها .. ولم يضايقها الأمر .. ولم
تحس بغيرة ..
على النقيض .. لقد تملكها إحساس بالراحة وهي تشعر أن إبراهيم قرير
هائى ..
إنها تطلب منه أشياء أخرى غير التي يمكن أن تحصل عليها ليلي .. فلا داعي
للغيرة ..
وهي تحب راحته .. أكثر من أى شىء آخر .. فلا مجال للضيق ..
وهي تستطيع بعد كل ما تأخذه منه ليلي .. ومديحة .. والآلاف غيرها ..
أن تجد منه .. ما تريد هي منه .. فعلام الأسف ؟
وعادت في هدوء فاستقرت في فراشها ..
وبعد برهة بدا البيت في صمته العميق وسكينته التامة .. وقد أطفئ
الضوء .. إلا من الألسنة الحمراء تتراقص في جوف المدفأة .. وقد استند رأس
ليلي على الوسادة .. وتمدد جسدها على الأريكة .. وأمامها قد جلس إبراهيم

— ٢٣٣ —

ممسكا بكفها بين يديه .. محذقا في وجهها الذي يتراقص عليه الضوء الأحمر
وخصلة ذهبية قد تهذلت على جبينه ..
وملأ كل منهما إحساس عجيب بالراحة والاستقرار .. ولم يعد لديهما من
أمل .. إلا في أن يجمد الزمن وتطول جلستهما حتى تصبح بلا نهاية ..

الفصل الثالث والعشرون

الخيوط القاتم

تمطى مراد في فراشه السفري داخل الكشك الصاج .. ماذا ساقبه حتى
حافة الفراش .. وذراعيه حتى ارتطمت إحدى كفيه بجدار الكشك البارد ..
والأخرى بحافة المنضدة السفري .. وتقلصت عضلات وجهه في ثناؤب
شديد دفع فكه السفلي حتى كاد يلامس عنقه ..
وأعقب تمطيه .. وثناؤبه .. استرخاء شديد تركه كالجثة الهامدة .
وتمطى .. وثناءب .. واسترخى ..
ثم تمطى وثناءب واسترخى ..
وظل يمارس حرركاته الثلاث .. دون أن تبدو عليه بادرة يقظة ..
كان مراد قد شبع نوما .. ولكنه لم يجد هناك مبررا لليقظة ..
أى شيء حوله يستحق يقظته ؟
وفتح عينيه نصف فتحة .. فوق بصره من خلال رموشه المبللة بدموع
الثناؤب .. على السقف الأسود المعرج ..
أى جديد فوق السقف أو تحته .. يستحق أن يستيقظ من أجله ؟
أما فوق السقف .. فلا يظن هناك جديدا ..
فراغ عريض .. تكدست فيه السحب .. وعوت فيه الريح ..
دبابات ومدافع .. ووجوه غبراء تسعى بينها كالثمل الحائر ..
ورئاسات حمقاء جالسة في الخيام .. ومعها خرائط ، بلا مواقع .. وأوراق
بلا أوامر ..

ولا أحد يدري شيئاً عن أى شيء .. كأنهم كلهم مجاذيب حول أضرحة
الأولياء ..

أما أسفل السقف ..

وألقي نظرة عابرة على محتويات الكشك .. ثم أغمض عينيه مرة أخرى ..
كأنما قد استخسر فيه النظرة ..

لا جديد هناك .. اللهم إلا ساكن احتل أحد الفراشات الخالية ..
عود طرى .. كان نصيب كتيبه من آخر حزمة حشت من الكلية
الحربية ..

لقد احتل محسن فراش عسران .. واستلم سريره ..

إنه شديد الحماس .. فرح بدباباته .. وعساكره .. فرح بالنجمة التي فوق
كتفه .. والخوذة التي فوق رأسه .. فرح بثياب الميدان التي يأبى إلا أن يرتديها
كاملة .. نظيفة مكوية ..

إنه فرح لكل شيء .. حسن الظن بكل شيء .. وبنفسه شوق إلى
الحرب .. التي رآها في الأفلام .. وقرأ عنها في الروايات ..
وقد سأله ذات مرة عما إذا كان يستطيع أن يأخذ دباباته ويذهب .. ليدق
اليهود ثم يعود ..

ولم يقل له مراد أنه قد لا يعود .. أو قد يعود سائراً على قدميه .. كما فـ

هو ..

لم يكن هناك ما يدعو لخذلانه .. ولهز الصورة الرائعة التي تملأ ذهنه ..

ألم يكن هو نفسه يحس بهذا قبل المعركة الأولى ؟

ألم يكن يتوق إليها ؟

ألم يخضها باستهتار .. وبلا إحساس بأى خطر ..

هل أحس والشظايا تتطاير من حوله والرصاص يصفر ويثـ .. أن حياته

معلقة بخط سير هذه الأشياء الصلبة المارقة حوله ؟
هل خطر له أن وجوده في خط سير هذه الشظايا أو الرصاصات أمر محتمل
جدا .. وأن حركته .. أو حركتها لا تملك قوة — سوى قوة القدر — أن
تضبط إحداها مع الأخرى لكي تمنع .. أو تحدث .. الالتقاء القاتل ؟
هل خطر بباله .. وهو يتحرك في حماس في أرض المعركة أنه ليس هناك
أشد بساطة ولا أكثر احتمالا من قتله ؟
أبدا .. لم يخطر بباله هذا .. إلا بعد انتهاء المعركة .. وبعد أن وجد نفسه ما
زال يسير ويتحرك ويتنفس كأي كائن حي ..
ترى هل تكون تلك هي أحاسيسه في المعركة الثانية ؟
لا يظن ..
إن خير معاركنا .. هي المعركة الأولى ..
دعك من التجربة .. فالمعركة تحتاج إلى شجاعة الجاهل أكثر منها إلى علم
المجرب ..
فلماذا يفسد جهل الصبي بالمعركة .. بعلمه بها وتجربته فيها ؟
ولم يملك وقتذاك أكثر من أن يجيبه :
— اصبر عليهم .. قريبا سندقهم معا ..
ولم يكن هناك جديد تحت السقف أكثر من هذا ..
العود الأخضر .. الشديد الحماس .. الشديد الفرحة .. الذى ملأ أحد
الفراشات الخالية .. بجسده النحيل ووجهه البض الذى لم يفضن بشرته نبت
لحية ولا تجاعيد تجربة ..
وقام مراد نصف قومة ..
وتمطى وتثاءب .. ولكنه لم يسترخ .. بل صاح بصوته الصاخب :
— مراسلة ..

ولم يجبه أحد .. كان الكشك خاليا والضباط الثلاثة قد انطلقوا إلى سراياهم ..

وتذكر أن عبد الرحيم أنبأه بالأمس أن هناك مؤتمرا عند قائد الآلى .. ومد يده إلى المنضدة فتناول الساعة .. وحرك سبائنه وإبهامه على المسمار الصغير ليملاها ..

كانت الساعة قد بلغت الثامنة والنصف ..
والمؤتمر في التاسعة ..

ودلى ساقيه من الفراش وهو يحس بمزيد من السخبط ..
ألم يشبعوا مؤتمرات ؟
وعاد يصيح بصوت أعلى ولهجة أحد :

— مراسلة ..

وعاد صوت العسكرى مجييا من الخارج :
— أفندم ..

ثم اندفع إلى داخل الكشك محيا ..
وصاح به مراد :
— اعمل شاي ..

وخرج العسكرى .. ومد مراد يده فتحسس ذقنه .. وحدث نفسه ساخطا :

— لا بد من الحلاقة .. لست أدري ما لزوم كل هذا الشعر .. عشر دقائق في اليوم ضائعة في الحلاقة .. أى ساعة في الأسبوع .. أى ٥٢ ساعة في السنة .. وأنا أحلق ذقنى وأنا في الخامسة عشرة .. قبل أن تنبت .. أى قضيت من عمري ألف ساعة في الحلاقة .. سخافة .. لن أحلقها اليوم .. وليفعل سى زفت ما يشاء ..

وكان يعنى بسى زفت قائد الآلاى .. الذى لم يشك فى أنه سيلومه على ذقنه الطويلة .. وسيدعى أنه مثل سبى للضباط والجنود .. ومد يده إلى علية الخلاقة ففتحها .. ثم صب بعض ماء الزجاجة فى الكوب الصاج .. وأخذ فى وضع الموسيقى فى العدة وهو يزفر قائلا :
— نخلق وأمرنا إلى الله .. ونوفر الخناقة لسبب أهم ..
وبدأ الخلاقة ..

وشرد به الذهن فى أشياء كثيرة .. متناقضة .. اليهود الكلاب .. والبث كوثر الراقصة فى الكوفنت جاردن .. وضابط الصيانة الذى يعطل نصف الدبابات فى ورشته ..

وقطع عليه شروده المراسلة .. ودون أن يرفع بصره من المرأة الصغيرة المشروخة الموضوععة على المنضدة .. تساءل :
— عملت الشاى ؟

ولم يجيب العسكرى وبدا عليه التردد .. ورفع مراد نظره عن المرأة وصاح به :

— أين الشاى ؟

وبلع العسكرى ريقه وأجاب :

— ليس هناك جاز ..

ونظر إليه مراد فى غيظ وقال :

— جاز ؟ .. ومن قال إننى أريد أن أشرب جازا ؟

وتلجج المراسلة وبدت عليه الدهشة .. وقال موضحا :

— لا يوجد جاز .. ولا مؤاخذة .. لعمل الشاى ..

وصرخ به مراد :

— اعمله بينزين .. اعمله بحطب .. اعمله بنار جهنم .. امش هات

شأى ..

وعاود حلاقته متمتا :

— أهذه حال .. لا يستطيع الإنسان حتى أن يشرب فنجانا من الشأى ..
طبعاً ما داموا هم يستريحون فى قياداتهم لماذا لا يفعلون بنا هذا .. لماذا لا
يرموننا فى المواقع ويمرحون علينا مغادرتها .. وإلى متى سنبقى فى مواقعنا ..
ولماذا؟ .. قسماً بالله لأنزلن العريش اليوم .. بل سأنزل كل يوم .. وملعون أبو
الأوامر .. أجل .. لن أمكث ثانية واحدة بعد المؤتمر .. ما الذى يكرهنى على
تنفيذ مثل هذه الأوامر البلهاء التى تعطى بلا مبرر ولا سبب ..
وأحس بوقع أقدام تقترب .. وظنه المراسلة .. ودون أن يرفع عينيه
تساءل :

— أأحضرت الشأى ؟

وأجابهم صوت اليوزباشى عبد المنعم أركان حرب الآلاى قائلاً له فى
انزعاج :

— شأى إيه يا حضرة .. أمازلت تحلقى .. والدنيا قائمة؟! ..

ونظر إليه مراد وأجاب فى سخرية :

— دعها قائمة .. مسيرها تقعد ..

— ليس هذا وقت مزاح ..

— ما شاء الله .. هل حددتم أيضاً وقتاً للمزاح .. هل عملتم له نوبة .. لماذا

لم ترسلوا لنا إشارة بهذا ؟

— اسمع يا مراد .. إن هناك أوامر بالتحرك ..

— تانى؟! .. نتحرك أكثر من هذا؟! ..

— أجل ..

— إلى أين؟! .. نرتمى فى حضن العدو .. أم نعود إلى القاهرة ؟

— بل تعود إلى العريش ..

— العريش؟ .. لا .. بسيطة .. عز الطلب .. بعد بضع دقائق سأكون في العريش .. عمرك أطول من عمري .. قبل أن تدخل كنت مصمما على أن أعود إلى العريش بعد المؤتمر . إلى في حاجة إلى حمام ساخن .. لو رأيت البانيو هناك ..

وصاح به عبد المنعم مقاطعا :

— مراد .. ليس هذا وقت مزاح .. لا بد أن تتحرك الكتيبة إلى العريش .. ونظر إليه مراد في دهشة وتساءل :

— الكتيبة ؟

— طبعاً ..

— الكتيبة .. الكتيبة .. بدباياتها وعساكرها ؟

— أجل .. الكتيبة كلها لا بد أن تتحرك الآن إلى العريش ..

— ومواقنا؟ .. والجبهة؟ .. هل نتركها خالية .. أمام تهديد اليهود ؟

— إن اليهود يهددون العريش ..

ونفض مراد كالمسوع وصاح مستنكرا :

— غير معقول .. لا يمكن أن تبلغ بهم الجرأة هذا الحد؟!!

— إنهم يتجهون إليها عن طريق العوجة .. متقدمين من بير سبع ..

— وماذا سنفعل نحن ؟

— ستتحرك كتيبتك لتكون قبل سقوط الظلام في العريش .. لتعاون

القوة المدافعة ..

وبدا التفكير العميق على وجه مراد وقال متسائلا :

— كيف ستتحرك؟ .. إننا نحتاج إلى وقت طويل ..

— ستتقل الكتيبة بالسكة الحديد .. لقد أعدت العربات وستكون بعد

نصف ساعة جاهزة للتحرك بالدبابات .. يجب علينا الآن أن ننقل الدبابات إلى الرصيف ..

— هذه ليست مشكلة ..

— ما هي المشكلة إذن ؟

— إن نصف الدبابات عاطلة ..

— ولم ؟

— أعطال صيانة ..

— يا أخي نصلحها .. إن الصيانة كلها ستكون تحت أمرك .. هيا اليس

ثيابك بسرعة ..

وبعد برهة كانت الكتيبة كخلية النحل .. وكان مراد ينتقل بين السرايا في انفعال وقلق .. وبدا الوجوم على الجميع وهم يتحركون بين الدبابات الرابضة .. وقد مدت مدافعها في صمت .. كما يمد الكلب الرابض أنفه إذا ما اشتم ريح الخطر ..

مخلوق واحد .. هو الذى كان يتحرك في حماس وجدل .

كان يصيح بالعساكر أن يسرعوا في عملهم .. وأن ينشطوا في حركتهم .. كان يصعد ويهبط من الدبابات ..

وكان يتحسس خوذته ليتأكد من وجودها .. ويثبتها جيدا على رأسه .. كمظهر من مظاهر المعركة التى يوشك أن يخوضها ..

كان محسن .. يشعر بالكثير من السعادة التى يشوبها القليل من الارتباك .. كأنما يوشك أن يبدأ لعبة جديدة طالت لهفته عليها ..

وبدأ السائقون يحملون الدبابات على عربات السكة الحديد .. وعندما انتهى تحميل جميع الدبابات وشدها إلى العربات ..

أقبل محسن على مراد يؤدى له التحية بشدة .. بعد أن ضرب كعبه

(طريق العودة)

ببعضهما كما يفعل الطلبة .. وقال في حماس وابتهاج :

— تمام يافندم ..

ونظر إليه مراد وقد بدا عليه الشرود .. ولم يجب ..

وعاد محسن يقول وكأنه يتعجله :

— تمام يافندم .. الدبايات حملت .. متى تبدأ النسير ؟

وهز مراد رأسه وأجاب في لهجة بها كثير من حماس الصبي :

— ستتحرك الآن ..

وعاد محسن يتساءل :

— هل سنبدأ المعركة بمجرد وصولنا ؟

وضحك مراد وأجاب :

— مستعجل على إيه يا أخي .. بكره تشبع حرب .. وضرب .. اصبر على

رزقك ..

وتحركت القاطرة .. وعلا صفيرها وهي تشد العربات التي حملت فوقها

الدبايات ..

ونظر مراد إلى العود الأخضر .. وهو يضحك في مرح كأنه ذاهب إلى

رحلة ..

وتذكر المعركة الأولى ..

وتذكر عسران ..

وأحس أنه يحتاج لبعض الجهد لكي يوقف المرارة التي أفعمت فؤاده ..

ولكى يكبح الدمع الذي أوشك أن يتصاعد إلى مقلتيه ..

وأحس أنه يحتاج لجهد أكبر .. لكي يمنع ذلك الخيط القاتم من الخوف

الذي أخذ يتسرب إلى نفسه ..

الفصل الرابع والعشرون

كيف ودعتك

استقر مراد في العريش بما تبقى من الكتيبة بعد أن فرقت سراياها للعمل مع الوحدات المدافعة .. واحدة مع الكتيبة التاسعة المشاة .. وأخرى من آلي السيارات .. غير التي بقيت في رفح مع رئاسة الفرقة .
وكان الليل قد ادلمهم .. وظلمة قائمة تلف الوجود .. بعد أن حجبت السحب السوداء الخيمة في السماء كل منفذ لبارقة ضياء .. وريح جنوبية لاسعة ينفذ صقيعها إلى العظام ويصفر فحيحها في الآذان .
وقبع مراد وسط عربتين شد بينهما مشمع يقيه لسع الصقيع وعصف الريح .

وبدا المكان أشبه بالجحر الضيق أو القبو الموحش .. ولم تفلح محاولات المراسلة في سد منافذ الريح فأخذت تصفر من أسفل العربات وتفتح من وصلات المشمع .

وجلس مراد على الأرض فوق صندوق ذخيرة فارغ . وقد ارتدى أفراول كاكي مبطنًا بالفرو كان قد حصل عليه من مخلفات الطيران البريطاني . ورفع ياقته حتى حجبت أذنيه وصدغيه ولف حول رأسه وعينيه كوفية كاكية . وتكور في جلسته ضامًا ركبتيه بذراعيه إلى صدره وقد أخذ يلوك آخر لقمة من ساندوتش البلوبيف الذي بلعه برشقات من علبة البيرة الملقاة بين قدميه ..

وعلى ضوء الفانوس الهاريكين المتراقص .. بدا محسن وقد اتخذ مجلسه

منكمشا فوق صفيحة بنزين فارغة .. وقد زالت عنه أبهة ثياب الميدان بعد أن حشر جسده في معطف الكلية الحربية الأزرق .. واستبدل بالخذوة المهيبة طرطورا من الصوف كبسه على رأسه حتى وصل إلى عنقه وحاجبيه .. وكانت أمه قد دست المعطف والطرطور في حقيته رغم أنفه .

كان محسن هو الوحيد الذى بقى مع مراد بعد أن تفرق بقية الضباط بسراياهم .. وتملكه ضيق بمقارة الجلسة .. ونظر إلى قائده القاعد القرفصاء على صندوق الذخيرة يلوك اللقمة في استرخاء بين شذقيه .. وقد ألقيت أمام قدميه علبه البيرة الفارغة ..

وتذكر قيادات المعارك .. وما كان يتصورها عليه .. الخرائط المنشورة .. وإشارات اللاسلكى .. والأوامر المتتالية والحركة الدائبة .. وبدت له قيادته .. أشبه بماوى لشحاذين منها بمقر القيادات .. ووصل إلى سمعه دوى بعيد فتمنى لو أنه انطلق بسريته وسط الدوى وبين النيران .. بدلا من الانكماش في هذا الجحر الموحش .. بجوه المقيض وحقارته المذلة .. وطال الصمت .. صمت بغيض موحش .. لا يقطعه .. سوى كركبة العساكر وهمتهم ..

ورفع محسن رأسه وفتح شفثيه ليقول شيئا .. ولكنه ما لبث حتى ابتلع كلماته ..

وزفر مراد زفرة ضيق من أنفه .. وقال فى سخط وكأنا يحدث نفسه :
— مسخرة ..

ثم استغرق فى صمته دون أن يعلن لأحد عما هى المسخرة .. ولا من الذى فعلها ..

ولم يطل صمته هذه المرة .. ونظر إلى محسن وأردف قائلا :
— بعثروا الكنيية .. مغفلين .. ماذا ستفعل الدبابات مع كنيية المشاة ..

وما لزوم بقاء السرية التي تقيم في رفح مع رئاسة الفرقة .. عياقة؟!
ولم يعرف محسن بماذا يعلق .. ولم يدع له مراد فرصة التعليق .. فقد أردف
وهو يرفع كتفيه في استخفاف ..

— أنا مالي .. يفعلون بها ما يريدون .. إن شاء الله يبعثونها تسير في
المحمل .. أريح لي .. ولم يعد عليّ إلا أن أرسل بك أنت أيضا حيث
يشاءون .. وحيث تشاء عبقرية قيادتهم .. ثم أجلس .. تحت المشمع لآكل
بقية غلب البلوييف وأشرب بقية زجاجات البيرة .. وأتفرج عليكم .. عندما
تعودون .. أو عندما لا تعودون ..

— ولماذا لم تقل لهم هذا ؟

— لكى يقولوا إننا جنباء ؟ أى اعتراض على أوامرهم .. تهمة الجبن ..
ليفعلوا ما يشاءون .. إني لست محدث قتال .. سأنفذ أوامرهم بلا اعتراض ..
وساد الصمت مرة أخرى .. وعادت الريح تصفر .. حاملة معها صدى
الدوى البعيد ..

وقطع محسن الصمت هذه المرة وقد ضاق ذرعا بالجلسة الموحشة
البيضة .. وتساءل في قلق :

— متى سأتحرك ؟

— ولماذا العجلة ؟

— إني أتوق لحوض المعركة ؟

ونظر إليه مراد نظرة فاحصة .. وكاد يقول له « اتلهى » ولكنه بلعها ..
ولماذا يحطم معنويات الصبي .. ألا يكفي كل ما حوله من محطات ..
إنه « سيتلهى » بعد المعركة .. فلماذا يتعجل « اللهو » له ..

وأجاب مراد في لهجة تطمين وتأکید :

— حالا .. لن يطول بك الانتظار .. غير معقول أن يتركونا نتفرج على

المعركة .. لإنهم في حاجة إلى كل مدفع وكل طلقة .. لا بد لكل منا أن يأخذ
يدا في المعركة ..

ولم يكذب ينتهي من قوله .. حتى سمع صوت عربة تقف في الخارج أمام
المأوى .. وسمع صوتا يسأل :

— أين القائد؟ ..

وصوتا يجيب :

— هنا يا فندم ..

واقتربت الأقدام من باب المأوى وانحنى اليوزباشي عباس ضابط إشارة
الآلاى ودلف إلى المأوى وتحرك منحنيا تحت المشمع متلفتنا حوله حتى أبصر
مراد في جلسته المتكورة فجلس أمامه على ركبتيه وأخذ يفرك يديه وينفخ
بأنفه .. وقد تدثر بمعطف كاكي ثقيل وهتف في عجلة وجزم :

— سرية تتحرك حالا .. إلى تقاطع الطريق القادم من أبو عجيلة ..

وأجابه مراد في غير عجلة ولا جزع :

— حاضر ..

واستمر عباس في أوامره العجلى الجزعة :

— ويقدم قائدها نفسه إلى قائد المدفعية ليعمل تحت إمرته ..

ورفع مراد حاجبيه .. وهو متكور في جلسته وتساءل في غيظ :

— تحت أمره ؟

— أجل ..

— أمر قائد المدفعية ؟ لماذا ؟

— هذه هي الأوامر ..

— أينوون أن يستخدموا الدبابات مدفعية ؟

— ليس هذا وقت مناقشة .. إن اليهود يقتربون بدباباتهم من الطريق

الجنوبى .. ولا بد من وقفهم .. وأنتم أقرب قوة إلى القطاع .. يمكن تعزز الدفاع فيه ..

وهز مراد كتفيه وقال فى استخفاف :

— أمركم .. ستتحرك السرية كما تريدون ..

ونفض عباس من مكانه وهو يؤكد فى لهجته العجلى الجزعة :

— تتحرك حالا .. لقد نزل اليهود من بير سبع إلى الخلصة والعسلوج

وهاجموا آلاى السيارات والكتيبة الخامسة الموجودين أمام العوجة .. وهم

مستمرون فى اتجاه العريش ..

وغادر عباس المأوى وسمع صوت عربة تدور ثم صوت احتكاك عجلاتها

بالرمال يتحرك فى عنف ..

ورفع مراد بصره إلى محسن .. ورمقه فى شرود قائلا :

— لم تنتظر كثيرا ؟

وبدا له وجهه وقد كيس الطرطور الصوفى الأبيض فى رأسه بملاحه

الدقيقة .. وبشرته الملساء كأنه وجه طفل .. وانطلق منه سؤال مفاجئ .. لا

يتم بصلة إلى الأوامر التى يتوقعها محسن :

— من أين لك بهذا الطرطور ؟

وعلت حمرة خفيفة وجه محسن وابتسم قائلا :

— أعطته لى أمى ..

— أهى تحيك كثيرا ؟

ودهش محسن من أسئلة قائده فى هذه اللحظة الدقيقة الحرجة التى تلقى

فيها نبأ اقتراب اليهود من العريش .. وساوره شك فى أن يكون قد ثمل ولكنه لم

يملك إلا أن يجيب :

— أظن هذا ..

— ماذا فعلت عندما أتيت إلى هنا .. قل الحق .. لا تحاول أن تصفها
بشجاعة لا وجود لها في صدر أمهاتنا ؟
وأطرق محسن وأجاب :
— لقد بكيت طول الليل !!
— وكيف ودعتك ؟
وتذكر محسن أمه وهي تضمه إلى صدرها وعيونها هامية تبلل وجهها
ووجهه .. وأجاب في ضيق :
— كما تودع الأمهات أبناءهن ..
— هل قالت لك لا تقطع الرسائل .. ولا تطل غيبتك ؟
وأطرق محسن برأسه ولم يجب ..
ولم يدر مراد ماذا دفع بعسران إلى رأسه في هذه اللحظة وتخيل الدبابة
المشتعلة المتفجرة ..
وتصور الفراش الخالي سيخلو مرة أخرى .. والأم التي تنتظر رسائل
الصبي .. وتلهف على عودته .. لا يصلها سوى نبأ استشهاده .. ولا تلقى
سوى .. بقاياها .. إن استطاعوا الحصول عليها ..
ونظر إلى الصبي ذى الطرطور الأبيض والمعطف الأزرق الذى وقف
ينتظر أمر التحرك .. أو .. أمر الموت ..
وأحس مراد بمرارة فى حلقة .. لم يدر .. من البلوييف والبيرة .. أم من
هو اجسه ..
وفجأة نهض من فوق صندوق الذخيرة .. واتجه إلى باب المأوى ومحسن فى
أثره ..
وبين صفير الريح .. والدوى البعيد .. علا صوته الأجنس .. مصدرا
أوامره لمحسن :

— اسمع .. ستبقى أنت مع الحملة .. وسأذهب أنا مع السرية .. مفهوم ؟

ودهش محسن وبدت على وجهه إشارات الخيبة ..

— ولكن .. إنها سرىتى أنا .. ولا بد أن أقودها ..

— قلت لك إني سأقودها وستبقى أنت ..

— ولكنى لا أرغب فى البقاء ..

— وأنا لا أرغب فى قتلك .. أنت ما زلت حديثا ولا يجب الزج بك فى

معركة منفردا ..

— ولكننى أستطيع ..

— كفى غلبة .. إنك لن تستطيع شيئا .. بمجرد أن تنفرد وحدك بالسرية

ستحس أنك ضائع .. تائه .. إني أعرف هذا الإحساس جيدا .. والعملية

ليست سهلة ..

وتحرك مراد بضع خطوات ونادى بصوته الصاحب ..

ومن الظلام أجابه صوت :

— أفندم ..

— نادى الباشويش بقرى والجاويش حنفى ..

واستمر مراد سائرا تجاه الموقع الذى وقفت فيه سرية محسن وبعد لحظة

بدت أشباح تهرول ناحيته .. ووقف بقرى وحنفى يحميان فى الظلام ..

وبلهجة حاسمة قال مراد :

— اسمع يا باشاويش .. سأتحرك الآن بسرية محسن أفندى .. وسيبقى

محسن أفندى مع الحملة ورئاسة الكتيبة .. لا أريد بوظان .. مفهوم ؟

— مفهوم يا فندم ..

— وأنت يا حنفى .. سنتحرك الآن .. حالا .. إلى مفترق الطرق للعمل

مع المدفعية .. إن اليهود يقتربون من العريش .. هل الدبابات جاهزة ؟

ورد محسن بمرارة :

— جاهزة تماما .. تمنيت أن تتحرك في رئاسة .
ونظر إليه مراد ومد يسراه فأمسك بكفه الأيمن وسارا متجاورين في
الظلمة إلى الدبابات ..

وقال مراد في لهجة اعتذار :

— لا تضيق بي يا محسن .. إن العملية أشق من أن تقوم بها وحدك ..
والمعارك أمامك كثيرة .. عندما يشتد عودك ستشبع مرمطة .. إنك لم تعرف
العساكر ولا الصف ضباط بعد .. أنت ما زلت غريبا على الكتيبة .. وعلى
الدبابات .. ابق الآن .. اجلس واكتب إلى أمك لتطمئننا عليك .. وبلغها
تحيات قائدك .. الذى ذهب ليقود السرية بذلك .. وقل لها أن تدعو له
بالسلامة ..

الفصل الخامس والعشرون

حساب خاص

وصل مراد ومحسن إلى الدبابات .. وقبل أن يصل مراد إلى الدبابة .. سمع صوت عربية تقترب ووقفت العربية .. ثم علا صوت اليوزباشى عبد الرحمن أركان حرب الآلاى يصيح متسائلا :

— أين حضرة اليوزباشى مراد ؟

وأجاب مراد صائحا :

— هنا يا عبد المنعم .. عند الدبابات ماذا تريد ؟

وسار عبد المنعم تجاه مراد واقترب منه .. حتى كاد يلامسه .. ثم أسر إليه هامسا ..

— سعادة القائد أمر بأن تتحرك أنت مع السرية ..

وأحس مراد كأن الجملة قد لطمته .. وضغط على أضراسه حتى يكتم بغضبه وقال متسائلا :

— أنا أذهب مع السرية ؟

— أجل أنت ..

— ولماذا لا يذهب بها قائدها .. ما دام لها قائد ..

— تلك هى أوامره ..

— أنا قائد كتيبة .. ولست قائد سرية ..

— ليس هذا وقت مناقشة .. إن اليهود يقتربون .. والعملية خطيرة .. وقد أمر القائد بأن تقود السرية .. وأنا هنا لإبلاغ الأمر .. ليس لشرح أسبابه .. أمر

يعنى أمر ؟

وتذكر مراد أمر المعركة الأولى .. الأمر الانتحارى .. ثم تذكر الرتبة الضائعة والنيشان المفقود ..

هذا إذن أمر انتحار جديد ..

إن سعادة القائد يأبى إلا أن يمنحه فرصة أخرى للموت ..

لقد ضاعت عليه الفرصة الأولى .. ومن حقه أن يمنحه فرصة جديدة ..

وملأت المرارة صدر مراد .. وأفعم الحقد نفسه ..

لقد نوى من تلقاء نفسه أن يقود السرية .. لأنه كره أن يصدر للصبي

الصغير أمرا بالموت ..

أما وقائده .. يأبى إلا أن يصدره له .. فهو لن يذهب ..

وانفجر في عبد المنعم قائلا :

— قل لقائدك .. إني لن أذهب .. قل له إنه وأوامره على حدائى .. إني قائد

كتيبة .. ولن أقود سرية .. إذا كانت العملية خطيرة .. فليأت ليقودها هو ..

أم تراه ينوى أن يأخذها باردة هذه المرة أيضا .. كما أخذها في معركة

التبة ٨٦ ..

ونظر إلى محسن الذى وقف ينظر إليه فى دهشة وقال له :

— محسن أفندى .. تفضل قد سريتك ..

والتفت ثانية إلى عبد المنعم قائلا فى حدة :

— تفضل .. قل لقائدك إني رفضت أن أخرج بالسرية .. ودعه

يحاكمنى ..

وهز عبد المنعم كتفيه وأجاب فى يأس :

— كما تشاء .. لقد نقلت إليك الأوامر وأنت حر فيما تفعله بها ..

وركب عبد المنعم عربته وانطلق فى الظلمات ..

ونظر إليه مراد حتى اختفى .. ثم حول بصره إلى محسن وقد اعتلى دبابته ..
وبدأ يصدر أوامره إلى الشاويش حنفي ..
وأحس مراد أن رأسه يوشك أن ينفجر .. ما هذا الذي يفعله ؟
ألم يكن هو من تلقاء نفسه ينوى أن يتحرك بالسرية ..
ألم يسلم بخطورة المعركة .. وبعجز محسن عن خوضها وقيادة السرية
فيها .. وبضرورة تسلمه هو لها ..
لماذا بعد كل ما رأى .. يغير رأيه ؟
ألمجرد العناد والغضب ؟
أيحكم على الصبي الصغير بالقتل .. لمجرد أنه توهم أن قائده يريد به شرا ..
وما ذنب محسن في نوايا قائد الآلاى ..
ثم .. ما ذنب المعركة نفسها ؟ .. أتضيع من أجل مجرد عناد وحقده
وغضب ؟
أيضيع الجيش .. والبلد .. من أجل عناده مع قائده ..
غير معقول ؟!
غير معقول أن يقدم على مثل هذه النذالة ..
غير معقول أن يصم نفسه بهذه الوصمة ..
يجب أن يخوض المعركة .. من أجل أم الصبي ومن أجل الكتيبة والآلاى
والفرسان والجيش والبلد .. ومن أجل المعركة ذاتها ..
ودارت الدبابات وهمت بالتحرك ..
ليؤجل حسابه الآن مع قائد الآلاى .. وبعد المعركة — إن عاش — فله معه
حساب عسير .. لا بد أن يقتله .. ويشرب من دمه ..
وأحس بشيء من الراحة ..
وقبل أن تتحرك الدبابة الأولى انطلقت صيحته :

— محسن ..

وأجابه محسن من فوق الدبابة :

— أفندم ..

— انزل ..

— لماذا ..

— سأقود أنا السرية ..

— ولكن .. إني ..

وصاح به في حدة :

— قلت لك انزل يعنى انزل .. هذه أوامر .. أليس عندك ضبط وربط ..

ونسى كيف قال لعبد المنعم أن أوامر قائد الآلى على حذائه ..

وقفز إلى الدبابة وشد ياقة الأوفرول حول عنقه .. وهبت الريح عابثة

بشراشيب الكوفية ..

وبدأت الدبابات فى التحرك وقد علا ضجيجها حتى غلب صوت الريح

وصوت الدوى البعيد ..

وبين الضجيج والصفير والدوى شرد ذهن مراد فى المعركة الجديدة التى

يوشك أن يخوضها ..

ولم يجد الخيط القاتم من الخوف الذى أوشك على التسرب إلى نفسه مجالا

ليستشرى ويستفحل .. لقد سدت عليه السبل .. أحاسيس الغضب

والحنق .. وبددته طبيعة مراد المستهتر المندفعة القوية ..

وأحس مراد برغبة عنيفة فى القتال .. قتال الناس جميعا ..

كان يستبطن سير الدبابة .. ويود لو اندفعت كالصاروخ لتضعه وجها

لوجه أمام العدو ..

كان يحس بكره عميق وحقد شديد على اليهود .. هؤلاء الكلاب قد ملأوا

نفسه بالمرارة ..

إن بينهم وبينه مسألة شخصية ..

وبينه وبينهم قضية خاصة ..

دعه من القضية العامة .. قضية اعتدائهم الوحشى الصارخ على شعب
آمن وادع .. سلبوه أعز ما يملك .. سلبوه موطنه .. أرضه .. ماءه .. سماءه ..
هواءه ..

مزقوا شمله .. ونهبوا ماله .. يتموا أبناءه .. وبقروا بطون حبالاه ..
دعه من فظائهم .. وظلمهم .. وتيجحهم .. وسفالتهم ونذالتهم .. دعه
من مساوئهم الطبيعية .. واعتداءتهم العامة فسيسويها .. حساب عام بينهم
وبين العرب .. وحساب أعم .. بينهم وبين الله ..
دعه من كل هذا ..

إن الذى يشغل ذهنه الآن .. حساب خاص .. بينه وبينهم ..

ذلك هو الذى يؤجج صدره .. ويشعل حقدته ..

إن بينه وبينهم .. نأرا شخصيا ..

بينه وبينهم .. دم عسران ..

الصعيدى .. الذى سفكوا دمه .. دون أن يأخذ بثأره أحد ..

ومن أحق بأخذ الثأر منه ؟

لا يكفيه عشرة من الأنجاس المناكيد .. سيجعلهم .. خمسة عشر .. أو
عشرين إن أمكن .. وسيذهب بنفسه إلى أبى عسران الصعيدى .. ليطفىء
غلتته .. ويبرد ناره .. وينبئه أن نأرا ابنه لم يضع .. ويصف له كيف قتل
العشرين نجسا .. وكيف أحرق جثثهم .. وروى الرمال بدمائهم ..
وبعد ؟!

هل هذا هو كل ما بينه وبين العدو .. لا .. لا .. هناك معركة

الخاسرة .. وكتيبته المشتتة .. ودباباته المحطمة .. هناك مذلة أخفضوا بها رأسه .. حين عاد بعد المعركة .. وهو ضابط الفرسان الراكب أبدا .. سائرا بجر ساقيه ذليلا .. مهينا ..

حقيقة أنهم هزموا وارتدوا ..

ولكنه لم يذق حلاوة النصر .. ذاق علقمه .. وشرب مرارته .. شخصيا .. لم يعتبر نفسه منتصرا .. إن المعركة كانت في حسابه الشخصي هزيمة ..

أما الفائز .. المنتصر .. الذى كسب المعركة دون أن يخوضها .. والذى ذاق حلاوتها .. وترك له المرارة فهو عبد الرحيم .. ومعه بسلامته .. قائد الآلاى ..

ودفع ذكر قائد الآلاى .. فى نفسه بشعلة جديدة من الحقد .. بعد أن كادت الأولى تخبو بأحلام النار وأمانى الاقتصاص ..

هذا هو خصمه الثانى .. بعد اليهود ..

ألا يريد هو الآخر موته ؟

لا فرق بين الاثنين سوى أن القائد يريد أن يقتله .. والعدو سيقتله دون أن يريد .. واحد يدفعه إلى المذبح .. والآخر .. يذبح ..

ألم يدفعه مرتين إلى الموت ؟

لقد نجا فى المرة السابقة ..

وفى هذه المرة .. سينجو أيضا ..

ولكنه لن يعود سائرا على قدميه .. بل معتليا برج دبابته .. سيعود منتصرا

بعد أن يصد هجوم اليهود .. ويبيد قواتهم .. وسيسير بدباباته حتى خيمة القائد .. ولن يتوقف أمامها .. بل سيخترقها ويدوس على من فيها ..

ولكن لا .. لن يشفى هذا غليله .. لأنه لن يرى من فيها .. سينزل من

الدبابة .. ويدخل في هدوء إلى الخيمة .. ويقبض على زمارة رقية القائد .. ثم يجره إلى الخارج .. ويجمع الآلاى .. والفرقة إذا أمكن .. ثم يرنه علقه .. جامدة .. يضحضحه ويمرط به الأرض .. ثم يجره من ساقيه إلى الخيمة .. ويصرف الآلاى .. أجل هذا خير حل .. علقه كفاية .. لا داعى للدبس .. أو الذبح أو شرب الدماء .. إن دمه ثقيل ولا يصلح للشرب .. وأحس مراد بالكثير من الراحة .. وابتسم لنفسه في الظلام وبدأ ينقل ذهنه إلى أشياء أجمل .. إلى ريتا .. وكوثر .. والمرأة التى أبصر ردفيها على محطة ترام شبرا .. و .. و ..

ولم يتم تفكيره .. فقد لاح لعينيه وسط الظلمات شبح عربة همبر مدرعة تقف على تقاطع الطرق .
وعندما اقترب منها صاح بالسائق :

— قف ..

وقبل أن يصيح مستفسرا .. عن أصحاب العربة .. سمع صوتا يصيح به متسائلا :

— مراد ؟

ولم يصعب على مراد أن يميز في الصوت .. صوت قائد الآلاى .. الذى لم يفرغ من ضربه العلقة إلا منذ بضع ثوان ..
وأحس بمراجل الغضب تغلى في جوفه .. لقد أتى ليتأكد بنفسه .. من أنه فى طريقه إلى الموت ..

ماذا يفعل به .. أيدخل عليه بالدبابة فيحطمه هو وعربته ؟
أيصوب عليه المدفع .. وبناقص طلقة .. وبناقص قائد آلاى ؟
ولكن ليس هذا وقته ..
إن أمامهم معركة .. ودم عسران لا بد أن يؤخذ بثأره .. ومذلة المعركة

- الأولى لا بد أن ترفع ..
وأكثر من هذا .. العريش .. لا بد أن تنقذ ..
لا بد من الصبر ..
ليس أثقل على نفسه المندفعة الثائرة من الصبر .. ولكن ماذا يفعل ؟ لا بد
من المعركة أولاً ..
وعاد الصوت يتساءل مرة أخرى :
— مراد ؟
وأجاب مراد وهو يكظم غيظه :
— أفندم ..
— مساء الخير ..
— مساء النور ..
— كيف حالكم .. السرية جاهزة ؟
— جاهزة ..
— الذخيرة كفاية ؟
— كفاية ..
واقتربت العربة من دبابه مراد .. وهدأت نبرة الصوت وقال القائد في
صوت أخفض ولهجة أرق :
— وأنت .. كيف حالك ؟
وحدق مراد في وجه القائد في دهشة من تطفه .. وكان عبد المنعم يقف
في العربة بجواره ..
وأجاب مراد في خشونة :
— أيهمكم حالي ؟
— طبعاً .. من عندنا غير مراد يسد في الزنقات ..

— ألهذا تدفعون بى إلى الموت ؟

— لا موت هناك .. ستعود سليما منتصرا إن شاء الله .. لا ينفذ في هذه المعارك غيرك يا مراد .. لهذا أمرت بأن تقود أنت السرية .. أتذكر العملية السابقة ؟

— العملية الانتحارية ؟ التي دبتمونى فيها وحدى .. ولفتم حول المعركة مع عبد المنعم ؟

وأحس القائد بما فى قوله من سخريه ومراره .. فأجاب ضاحكا :
— بالضبط ! هذه هى عملية انتحارية أخرى .. ولكن هذه المرة لن أدبك فيها وحدك .. ولن ألق حول المعركة .. كما قلت .. بل سأقدم أمامك .. وأندب فى المعركة ..

وحملق مراد فى دهشة شديدة .. ولم يصدق أذنيه ..
وأردف القائد يأمر السائق بالتقدم وهو يقول لمراد ضاحكا :
— سأسبقك إلى الانتحار .. أيها العجل الطيب الجرىء ..
وقبل أن تتحرك العربية صاح مراد متسائلا فى دهشة :
— ولكن لم أكن أنوى أن أنفذ أوامرك .. لقد كنت مصمما على ألا أقود السرية ..

ثم التفت إلى عبد المنعم قائلا :

— ألم تقل له ؟

وأجاب عبد المنعم وهو يهز رأسه :

— لم أقل له شيئا ..

— لماذا ؟

— لأنى كنت واثقا أنك ستخرج مع السرية .. أنا أعرفك جيدا يا مراد

وأعرف أنك كنت ستخالف الأوامر .. إذا قلنا لك ابق ..

وتحركت العربية المدرعة .. وتحركت الدبابات حتى وصلت إلى التبات
المقاطعة للطريق والتي احتلتها المدفعية ..
وبدأت الدبابات تتخذ مواقع دفاعية مستترة وراء التبات لا يبدو منها
سوى فوهات مدافعها .. المظلة على الفراغ المظلم العريض .. كأنها عيون
ساهرة مترقبة ..
وجلس مراد يرقب الظلمات .. وبنفسه قلق واضطراب وهو يتوقع
ظهور أشباح الظلام بين آونة وأخرى .. وأذناء مرهفتان .. منصتان .. إلى
الطلقة الأولى التي ستؤذن بالمعركة .. وإحساس مريح يملأ نفسه .. وهو
يشعر .. إنه لم يعد له إلا خصم واحد .. هو ذلك المقبل عليه من الظلمات ..
أما قائده .. فقد ظلّمه كثيرا بسوء ظنه ..
لا بأس عليه ..
عندما تنتهي المعركة .. وينجو بجلده ..
سيذهب إليه .. ويقبله ويعانقه ثم يسأله .. أن يختشى على دمه .. ويطلب له
رتبة .. أو نيشانا ..

الفصل السادس والعشرون

دوى الصوت

دقت الساعة اثنتى عشرة دقة .. تشق السكون الذى خيم على البيت ..
وانتهى إبراهيم من عدها وهو جالس أمام المدفأة .. وليلى قد تمددت على
الأريكة تنقل بصرها بين ألسنة النيران المتراقصة .. ووجه إبراهيم قد بدا عليه
الشروود والقلق ..

كان هناك شىء بالجو ..

كانت هناك رائحة خطر .. تتخلل النسائم العطرة الهادئة التى غمرت
وكرهما خلال الأيام القلائل الماضية .. لقد مرت بهما الليالى سريعة خاطفة .. لم
يحسا خلالها بالزمن والكائنات .. لم تكن الحياة فى نظرهما .. كتلك التى تعودا
أن يحيياها .. لم يكن هناك وقت .. ولا كانت هناك تفاصيل ولا حدود .. لم تكن
حياتهما إلا حسوا للأمانى .. أو حلما فى الدجى .. أو جلسة المختلس ..

ولم يفعلا خلالها ذنباً .. أو ارتكبا معصية ..

لا شىء يمكن أن يلوم أحد منهما عليه نفسه ..

ولا شىء يمكن أن يزيد عما كانا يفعلانه .. فى حضور الطرفين
الآخرين .. ومع ذلك .. مرت بهما الأيام والليالى فى نشوة عجيبة ..

كانت نشوتهم مستمدة .. من الإحساس بوحدتهما معا وبالاستقرار فى
هذه الوحدة .. بلا خوف ولا قلق .. وبأن كلامهما .. فى خلالها يحيا
للآخر .. ولا ينظر إلا إليه .. ولا يتحدث إلا معه .. بلا رقابة .. ولا
حساب .. ولا خوف ولا إحساس بالخطأ ..

كانت نشوتهما .. مستمدة من الإحساس بطبيعة الوجود تحت سقف واحد .. لا شريك لكل منهما .. إلا صاحبه .. ولا سلطان لأحد عليه .. إلا هو .. ولا اعتبار لكائن في الحياة سواه .. تلك هي المتعة الكبرى ..

متعة كفتها مؤونة الخطيئة .. ومشقة الزلن .. كانا يتحدثان ويضحكان .. ويأكلان .. ويشربان الشاي .. كانا يعيشان .. كأنهما في فترة عادية .. من حياة زوجين .. لا عشيقين .. وكان لديهما الكثير مما يستمتع به .. بمجرد الحياة الطبيعية التي لا يحس بمتعتها أى زوجين .. قصت عليه حياتها .. قطعة من هنا .. وقطعة من هناك .. طفولتها .. وحياتها .. وشبابها ..

وقص عليها من حياته الكثير .. كيف كان يلعب في الحارة .. وكيف كان يعاكس المدرسين في الحصص .. وكيف دخل المهندسخانة .. وكيف شق طريقه ..

وبين هذا كله .. بين هذه القطع من الحياة الطبيعية التي استمتعا بها .. كانت تمر بهما .. فترات صمت طويلة .. من الإرهاف .. والحساسية .. والوله المنطوى في الباطن .. ولم يكونا يفرجان عن اللهفة المكبوتة بأكثر من تشابك الأيدي أو إسناد رأسها على صدره .. أو تخلل شعرها بأصابعه .. كان ذلك أقصى ما جرؤا على فعله مما يمكن أن يلوما عليه نفسيهما .. و١٤ لا يستطيعان فعله .. والطرفان الآخران موجودان ..

وكانت فترات الصمت هذه .. هي أقسى .. ما يتعرضان له ..

كان كل منهما يحتاج إلى قوة .. للمقاومة ..

مقاومة ما يمكن أن يدخل بصفة أكيدة في باب الخطايا .. مقاومة رغبة كل منهما في الارتقاء في أحضان الآخر .. في ضمه إلى صدره .. وفي مس شفتيه ..

وشم أنفاسه ..

مقاومة .. حاول كل منهما أن يخفى وجودها .. وينكر حاجته إليها ..
حتى ظهرت جلية .. في إحدى فترات الصمت .. الصاخب .. أو الصخب
الصامت .. الذى يصطخب في صدرهما .. ويضج في قلوبهما .. عندما طال
الصمت .. وزاد الحنين .. واشتدت اللهفة .. واستعصت المقاومة ..
فاندفعت ليلى في نوبة بكاء عنيفة .. تركتها كريشة في مهب الريح .. واضعة
رأسها في صدره .. تاركة دموعها تنهر كسيل العاصفة ..
وعندما انتهت من البكاء . رفعت إليه وجهها في أسف وكأنها تعتذر عن
بكائها ..

وابتسم إبراهيم .. فابتسمت .. وبدت الابتسامة بين دموع عينيها كأنها
إشراقة الشمس المفاجئة بين قطرات المطر .. أو كأنها ضحكة الطفل
الباكى ..

وهست تقول معتذرة :

— أنا متأسفة ..

— علام ؟ .. لقد فرج بكاؤك عنى .. كما فرج عنك .. وأراحك .. كما
أراحنى .. عندما نفترق .. سأتذكر بكاءك .. كما أتذكر كل شىء منك ..
— لماذا تكفر من ذكر الفراق .
— لأنه نتيجة حتمية لما بيننا ..
— تقصد نتيجة شكلية ..
— لست أفهم ..

— إنا سنفترق ككائين .. آليين .. ولكننا لن نفترق كإحساسين أو
روحين .. إنى لن أكف عن حبك أبدا ..
— ليت هذا يصدق !

— ألا تثق بي ؟

— لا أثق بطبيعة الحياة .. إن الكائنين الآلين هما اللذان .. يحددان سير الحياة .. إن المشاعر والأحاسيس تخمدها .. مشاغل واحتياجات وارتباطات .. الكائنات الآلية .. والفرقة تعنى فرقة ..

— إني أكره فلسفتك .. سأحبك مدى حياتي .. أيا كان وضعنا الشكلي .. لقاء .. أم فرقة .. رؤية .. أم ذكرى ..
هكذا مرت بهما أيامهما ولياليهما حاملة خاطفة ..
ممتعة .. بلا زلل .. متشبية .. بلا خطيئة ..

قطعة هائلة من حياة زوجين .. تقطعها فترات من الصمت الواله ..
واللهفة المطوية .. والشوق المقاوم ..

وفي هذه الليلة .. عندما أذنت الساعة بانتصاف الليل كانت تمر بهما إحدى فترات الصمت .. ولكنها لم تكن كلها حنيناً ولهفة .. بل كان يشوبها .. ذلك الإحساس بخطر مبهم .. تسرى رائحته الخانقة في نسماتها الهادئة ..

وتحدثت ليلى لتقطع الصمت وتستدعي إبراهيم من شروده .. قالت متضحكة :

— إلى أين وصلت ؟

وابتسم وهو مستمر في صمته وشروده ..
وعادت تسأله :

— أذهبت بعيداً ؟

— إني معك ..

— كلك !

— تقريبا ..

- والباقي ؟
— في القشلاق ..
— ماذا يفعل ..
— يجول في قلتي ..
— ألم يكل ؟ ..
— هيبه كل .. ما الحيلة ؟
— استدعه ليهدأ ..
— لا أستطيع ..
— له ..
— كان يجب أن أكون كلي هناك ..
— ما الداعي ..
— هناك حال من القلق شديد ..
— أقد جد شيء ؟
— اليهود يتحركون ..
— ومتى كانوا لا يتحركون ..
— هذه المرة تبدو حركتهم جادة ..
— كيف ؟ ..
— يقال إنهم هبطوا من بير السبع .. متجهين إلى العريش ..
— غير معقول ..
— بل هو ما حدث فعلا ..
— هل ينوون دخول العريش ؟ ..
— الله أعلم بنياتهم ..
— أليس هناك من يوقفهم في الطريق ؟ ..

- طبعاً هناك قوات ستلقاهم ..
— أتظنها تستطيع أن توقعهم ..
— لا بد أن توقعهم ..
— أجل .. غير معقول أن يصلوا إلى العريش .. لا بد أن تكون مغامرة ..
أو تهويشة ..
— لا أظن .. إن الهجوم جدى .. لقد نقلت قوات جديدة إلى العريش ..
ومن بينها الدبابات ..
— هل أتى مراد معها ..
— لم ألقه .. ولكن أغلب ظنى أنه قد حضر معها .. فإن كتيبته أقرب كتيبة
إلى العريش ..
— لو أنه أتى لكان قد مر علينا ..
— لا أظن لديه وقتا .. لقد تحركوا من السكة الحديد إلى المواقع رأساً .. إن
الحالة تبدو خطيرة ..
وساد الصمت برهة ثم أردف إبراهيم وكأنما يحدث نفسه :
— كان يجب أن أكون هناك ..
— وماذا تستطيع أن تفعل ..
— أى شيء .. غير الجلوس أمام المدفأة ..
— هل كلفك أحد بعمل ما ؟ ..
— كلفونى بتعزيز حقول الألغام على جانبى الطريق .. وقد انتهيت من
تعزيزها خلال النهار ..
— ماذا تريد إذن أن تفعل أكثر من ذلك ؟
— لست أدرى .. إلى فقط أحس بقلق ..
— لا تدع ضميرك يثقل عليك بلا مبرر .. عندما يحتاجون إليك

سيطلبونك ..
وفجأة .. سمع دوى ..
شيء آخر .. غير تلك الأصداء التي كانت تصل إلى مسامعهم خافتة
متباعدة بين آونة وأخرى ..
دوى شديد .. أعقبه دوى شديد آخر ..
وأنصت إبراهيم مأخوذاً ..
وبدا الجزع على وجه ليلي ..
وساد الصمت برهة .. وما لبث حتى قطعت له ليلي قائلة :
— أتظنهم قد اقتربوا ؟ ..
وهز كتفيه في حيرة وقلق وضيق وأجاب :
— من يدري ..
— اقتربوا إلى هذا الحد ..
— لا أظن ..
— إذن ما هذا الدوى ؟ ..
— قد تكون مدافعنا ..
وتوالى الدوى .. شديداً قريباً ..
وعادت ليلي تتساءل :
— ولماذا تستمر مدافعنا في الضرب إذا لم يكونوا قد اقتربوا ..
ولم يجب إبراهيم وغادر مقعده متجهاً إلى التليفون .. ولكن قبل أن يصل
إليه فوجيء بمخلوق يندفع بشدة إلى الصالة .. ويصيح في جزع :
— إنهم يهجمون .. لقد وصلوا إلى العريش ..
وأبصر إبراهيم نهي بجسدها النحيل .. وقد أغرق المطر شعرها وثيابها ..
وهي تندفع من باب المطبخ الخلفي المؤدى إلى الحديقة ..

وتساءلت ليلي في ذعر :

— من ؟

— اليهود ..

وتمالك إبراهيم نفسه وأقبل على نهي يربت ظهرها ويهدئ روعها قائلاً :

— لا تخافي يا نهي ..

— لست خائفة .. إني أريد أن أخرج لألقاهم .. كيف يجروون على

الوصول إلى هنا ..

— هدى نفسك .. ما الذى أخرجك فى هذه الساعة ..

— لقد كنت هناك .. فى أقصى الطريق .. لقد أنبأنى السائق أن هناك

شيئاً .. وجلست على الرهوة لأرقب ..

— أنت مجنونة .. اذهبي وغيرى ملابسك .. وأوى إلى فراشك ..

وصرخت نهي فى حدة وهى تنتفض :

— كيف .. أنا آوى إلى فراشى واليهود على الأبواب .. سأذهب

لقتاهم .. سنذهب كلنا .. سأمسك سكيناً وأذبحهم ..

وجرها إبراهيم من يدها بشدة تجاه المدفأة ..

— اجلسى هنا .. إنك ستموتين .. من البرد أيتها الغبية .. أى سكين .. هذا

الذى ستذبحينهم به .. اجلسى ..

ولم تجلس نهي وأجابته متوسلة والدموع تخنقها :

— لا أستطيع أن أجلس .. عندما جلسنا أول مرة .. دخلوا علينا

وذبحونا .. لا يجب أن نتظر حتى يصلوا إلينا .. لا يجب أن نجلس لنصطلى أمام

المدفأة .. وهم يدقون أبوابنا ..

وأحس إبراهيم بلسعة من قول الفتاة .. ألم يجلس هو ليصطلى بنيران المدفأة

واليهود على الأبواب ..

وأى جلسة ؟

جلسة غرام ..

ومع من ؟

مع زوجة .. صديقه .. المقاتل .. الذى لا شك قد اتخذ مجلسه الآن .. ليس على مقعد مريح .. ولا أمام مدفأة بين يدي امرأة .. بل فى برج دبابة أو وراء مدفع وفى عصف الريح ولفح الصقيع .. وطرق المطر .. وبين يدي العدو .. أو على الأصح بين شظاياها ونيرانه .. عجباً له .. كيف أجاز .. لنفسه هذا ..

كيف أباحه .. وارتضاه .. ببساطة .. وبلا لوم ولا تأنيب ..

لقد كانت الصبية النحيلة خيراً منه .. إنه ينتظر حتى يكلفه أحد بواجبه .. وهى تريد أن تخرج لتذبح اليهود بالسكين .. ودون أن ينبس بكلمة رفع السماعه وطلب العربة ثم اتجه إلى حجرتة .. وبعد لحظة كان قد ارتدى ثيابه ..

ونظرت إليه ليلي ودموعها تنحدر فى صمت .. وقالت فى صوت مختنق ..
— أظن عبثاً أن أوقفك ؟

وشد إبراهيم على يدها وهمس :

— أترضين لى هذه الوصمة ؟

وهزت رأسها فى يأس ثم قالت :

— إني أعبدك ..

— وأنا أيضاً ..

وعضت على شفتها وهى تحاول أن تكتم بكاءها وعادت تهمس :

— عدنى أن تعود ..

— طبعاً سأعود ..

— إني أحبك ..
— وأنا أيضا أحبك ..
وسمع صوت العربة تقف بالباب ..
وهم إبراهيم بالسير ..
ولكن ليلى لم تفلت يده وهمست تستعطفه وبكائها يغلب صوتها ..
— ألا تقبلني ؟
وساد الصمت برهة .. وعادت همس :
— إنها الأولى .. والأخيرة أيضا .. والله سيغفرها .. ومد إبراهيم ذراعيه ..
وضمها إليه .. ومس شفتيه بشفتيها .. وضغطها .. برفق ..
ثم ابتعد عنها .. واتجه بسرعة إلى الباب .. واندفعت نهى تعدو وراءه مادة
ذراعها بالخوذة قائلة :
— خذ هذه .. إنك ذاهب للقتال ..
وتناول إبراهيم الخوذة ثم شد على يدها قائلا :
— أشكرك ..
وقالت نهى متوسلة :
— لماذا لا تأخذني معك .. إني أستطيع أن أفعل لك شيئا .. أى شيء ..
— إذن فابقى .. إلى جوار ليلى .. خذى بالك منها .. أنت تعرفين معزتها
عندى ..
وأطرقت نهى برأسها وأجابت ودموعها تنحدر :
— أجل أعرف .. أعرف جيدا ..
وهتفت ليلى وهى تراه يختفى وراء الباب :
— ستعود بسرعة .. لا تتأخر ..
وانطلقت العربة بإبراهيم .. واشتد الدوى وتلاحق ..

الفصل السابع والعشرون

قبل العاصفة

وصل إبراهيم إلى الشكنات .. وبنفسه إحساس غامض مبهم لا يدري كنهه .. لم يكن خوفا .. ولم يكن حماسا .. ولا غضبا .. ولا ضيقا .. ولا جزعا .. لا شيء من هذا كله .. وإنما هو إحساس أشبه بإحساس المشدوه .. المأخوذ .. الذى دفع به إلى جو جديد عليه .. غريب على مشاعره .. لم يكن يدري ماذا يمكن أن يفعل .. لم يكن أمامه عمل محدد واضح .. كان فقط يعلم أن هناك قتالا دائرا .. ومعركة ناشبة .. وخطرا يقترب .. وأن اليهود يتقدمون .. لا يدري إلى أى مدى وصلوا .. ولكن لا بد أنهم قد أضحوا على مرمى المدافع .. ما دام الدوى قد بدأ .. والمصريون قد احتشدوا لضربهم .. وكل فرد من القوات المسلحة لا بد أن يكون الآن قائما بعمل في المعركة .. وهو من أجل هذا لا بد أن يعمل شيئا .. أى شيء .. عدا الجلوس في استرخاء أمام مدفأة ..

ووجد الضابط التوتجى قد وقف في مكتبه يحملق من وراء زجاج النافذة تجاه أرض المعركة .. حيث بدت شعل المدافع تبرىق بين آونة وأخرى .. والتفت إليه الضابط محييا وتساءل إبراهيم :

— كيف الحال ؟

— يبدو أنهم قد اقتربوا جدا .. إنهم يهجمون بقول مدرع ضخم ..

— من أدراك ؟

— ضابط ملاحظة المدفعية ..
— لست أدري ماذا يقصدون بهذا الهجوم .. أحقا يريدون الاستيلاء على العريش ؟
— ربما .. على أية حال .. لقد عزز الخط أمامهم .. وطيراننا سيدقهم بعنف ..
— إنها مغامرة منهم ..
— ستكلفهم غالبا ..
— وازداد الدوى .. وتتابع شعل تبرق في الظلام .. وبدا القلق على وجه إبراهيم .. وتحرك إلى العربة في عصبية .. وتساءل الضابط النوبتجي :
— إلى أين ؟
— سأذهب إلى خطوطنا ..
— ولم ؟
— قد يكونون في حاجة إلى شيء ..
— لا أظن لديهم الفرصة في التفكير في هذا الشيء الذي سيطلبونه ..
— قد تقدمه دون أن يطلبوه ..
— لا أظننا نستطيع أن نقدم إليهم شيئا الآن .. إن خير ما نفعل هو أن ننتظر أوامر القيادة ..
— انتظر أنت .. وإذا احتجت إليّ فأرسل في طلبى ..
— ومرة أخرى انطلقت به العربة ..
— ومرة أخرى عاوده الإحساس الغامض المبهم .. إحساس المشدوه المأخوذ ..
— كان يقترب من أرض المعركة .. وصوت الدوى يزداد عنفا .. وتلاحقا ..

ولم يكن يدري إلى أين يذهب .. ولا ماذا يفعل ..
كانت المرة الأولى التي يقترب فيها من معركة .. ويوشك أن يلمسها
بيديه .. ويجول بين أسلحتها الحية .. وقنابلها المتفجرة .. ورصاصها
المتحرك ..

كان يكره القتال ..

وما زال يكرهه ..

ولكنه يكره أكثر منه .. جلسة المقعدين العاجزين أمام المدفأة ..

وهو لا يحس بخوف منه .. وإنما يحس فقط بدهشة .. وحيرة ..

وبدأ السائق يتمهل به وهو يجد العربة قد وصلت إلى قلب المواقع ..

وبدت لعينيه من بعيد أشباح المدافع والدبابات وهممة العساكر بينها ..

وتساءل السائق أخيرا وهو يقف بالعربة :

— إلى أين يافندم ؟

وبدت الحيرة على وجه إبراهيم ..

لم يكن يعرف هو نفسه إلى أين يذهب .. ولا ماذا يفعل .. كل ما كان يريد

هو أن يوجد في المعركة .. ويحس بالمشاركة فيها .. وهو يحس بشيء من الراحة

النفسية بعد أن وجد نفسه فيها فعلا ..

ولكن لم يكن معقولا أن يقف هكذا حائرا بين المواقع .. كان لا بد أن يرى

أحدا أو يكلم أحدا ..

وقال للسائق وهو يشير إلى أقرب المواقع إلى الطريق :

— اتجه إلى هذا الموقع ..

ووقفت العربة أسفل التبة التي احتلها الموقع ..

كان موقعا لمدفع مضاد للدبابات .. وقد استقر على التبة بماسورته الطويلة

السوداء المظلة على الفراغ المظلم وقد وجه فتحته تجاه الطريق ..

وكان يقع وراءه طاقمه وقد رصت بجوارهم الذخيرة .. وكانت العاصفة قد استرخت والريح قد هدأت .. ولكن الصقيع جعل الجنود ينكمشون كأنهم كتلة واحدة مستقرة وراء المدفع .. وبجوارهم استقر الملازم أول عمر جلال منكمشا في معطفه .. مسددا بصره إلى الظلمات المحيطة بالطريق أمام المدفع ..

وسمع عمر صوت العربة تقف وراء المدفع .. فالتفت وراءه .. وأبصر إبراهيم يهبط منها فتهض لملاقاته .. وهو يظنه أحد ضباط الرئاسة .. جاء ليطمئن على الموقع أو ليلقى بأوامر جديدة .. وعندما اقترب الاثنان عرف كل منهما الآخر .. وصاح عمر في دهشة :
— إبراهيم .. ماذا تفعل هنا ؟

وأحس إبراهيم بشيء من الراحة وهو يجد الضابط يعرفه .. وزال عنه الكثير من إحساس الغريب المأخوذ .. وأجاب ضاحكا :
— أتمشى ..

وتساءل عمر ضاحكا :
— على كوبرى بنا ؟
وأجاب إبراهيم مقهقهها وقد زاد إحساسه بألفة المكان واعتياده على جو المعركة :

— ورضا الحلو طَرفَ عيني !
وضحك عمر ثم عاد يتساءل :
— قل حقيقة ماذا تفعل هنا ؟
ورفع إبراهيم كتفيه في حيرة وقال :
— لا شيء بالذات .. أردت فقط أن أكون بينكم ..
ونظر إليه عمر في دهشة :

— تكون بيننا .. هنا .. أجنون أنت .. ماذا ظننتها .. وليمة؟ .. اذهب يا
جدع وأوى إلى بيتك .. واسترح في فراشك ..
— ولماذا لم تفعل ذلك أنت؟

— ابتلاني الله بهذه الرمية السوداء .. فماذا يكرهك أنت عليها .. ماذا
يكرهك على الصقيع .. والسهر .. والتجول بين القذائف .. ألم تؤد واجبك
في رص الألغام؟ ..
— أجل ..

— إذن فعد إلى بيتك واسترح .. استرح أربعة وعشرين قيراطا .. لو كنت
مكانك لما فعلت أكثر من هذا ..
— أنت واهم .. لو كنت مكاني لما فعلت سوى ما فعلت أنا .. هل
تتصور أنى لم أحاول الاسترخاء في البيت؟ ..
— وماذا حدث؟

— كنت أكثر ضيقا وقلقا .. منى هنا .. هل تظن من السهل على المرء أن
يغمض عينيه .. ويسترخى .. وهو يعرف أن على مقربة منه قتالا يدور ..
ومعارك تنشب .. وقذائف تتبادل .. وأنه بين لحظة وأخرى قد يصل كل هذا
إليه .. هل تظنه يستطيع بسهولة أن يسترخى ويغمض عينيه؟ .. إن المثل
يقول : وقوع البلاء ولا انتظاره .. وأنا أقول بعد تجربة الليلة : دخول المعركة
ولا الاسترخاء فيها ..

— أنت وشأنك .. ما دمت تأبى أن تجلس في الدفء .. فهيا بنا ..
وسار الاثنان صاعدين التبة متخذين مكانهما وراء المدفع .. وتساءل
عمر :

— هل معك سيجارة؟

— متأسف .. أنا لا أدخن ..

— نسيت أنك لا تدخن .. هل تصدق أنى لا أحتاج لشيء كاحتياجى إلى
سيجارة ..

لو علمت عذا لأحضرت لك معى علة بأكملها ..
ومضت فترة صمت حملق كلاهما فى الظلمات المكدة أمامه .. وتوالى
الدوى فتساءل إبراهيم :

— من الذى يطلق هذه النيران ؟

— مدفعية الميدان .. إنها تضرب تجمعات العدو .. أعتقد أنها آذته كثيرا ..
وأخرت هجومه .. والطيران أيضا دقه جيدا بعد أن جاوز العوجة .. لقد دمر
الكثير من مدرعاته ..

— ومع ذلك فهو مستمر فى تقدمه ؟ ..

— دعه يتقدم .. إن شاء الله سنقضى على البقية الباقية منه .. حتى لا يعود
إلى فعلها مرة أخرى ..

— هل تظن أننا سنصده بسهولة ؟

— طبعا .. إن « سمبو » وحده كفيل بهذا ..

— « سمبو » من ؟

— ألم أعرفك به بعد ؟

وهز إبراهيم رأسه .. فأشار عمر إلى المدفع الرابض أمامه قائلا :

— هذا الأسد المتحفز للانقضاض .. هو « سمبو » .. ألم تسمع عنه .. لقد

ضرب رقما قياسيا فى تدمير دبابات العدو .. إنه مدفعى الخاص ..

ومد يده فربت ماسورة المدفع برفق كما تربت عنق كلب مطيع .. وأردف

قائلا :

— لم يخيب ظنى قط .. بينى وبينه صداقة قديمة منذ أن تخرجت فى الكلية

وعملت بالبطارية .. إنه أفضل مدافع الآلاى كلها ..

— ٢٧٧ —

ونظر عمر إلى طاقم المدفع وأردف ضاحكا :

— والا إيه يا ولاد ؟

وأجاب الأومباشى مؤكدا :

— مضبوط يافندم .. حضرة الضابط متعود على ضربه من زمان ..

ونظر إبراهيم إلى المدفع متأملا .. ثم تساءل :

— كم مدفعا مثل هذا فى الخط ؟

— التروب كله موجود .. ولدينا أيضا سرية دبابات .. لقد اتخذت

دباباتها مواقع بجوارنا على الخط .. إن مواقعها جيدة .. لقد أحضرها مراد ..

أتعرفه ؟

— طبعا أعرفه ..

— إنه يحتل الموقع المجاور ..

— أهو قريب من هنا ؟

— دبابته يمين الطريق مباشرة .. أتحب أن نذهب إليه ؟

— هيا بنا ..

وسار الاثنان على أقدامهما وراء المواقع .. وعبر الطريق .. فبدت أمامهما

دبابة مراد وقد اتشحت بالظلام واستترت وراء إحدى التبات .. وقد اعتلى

مراد برجها وأخذ يحملق أمامه ..

ولم يكذب يحس بوقع الأقدام حوله حتى تلفت مستطلعا .. وبأداه إبراهيم

بالتحية قائلا :

— مساء الخير يا مراد ..

— من ؟

— أنا إبراهيم ..

— أهلا إبراهيم .. ماذا أتى بك إلى هنا فى هذه الليلة السوداء ؟

— أشار ككم في سوادها ..
— وكيف حالهم في البيت ؟
— بخير .. يسألون عليك .. كيف حالك ؟
— الحمد لله .. الذى لا يحمد على مكروه سواه ..
ونظر إلى الساعة فى قلق وأردف قائلاً :
— ماذا آخر هؤلاء الكلاب ؟ .. لماذا لا يهجمون ويريجونا .. لقد أوشكت
أن أغفل بضع مرات .. إن العساكر ..
ولم يتم كلمته .. فقد قطع عليه الحديث صوت دوى مجاور أصم آذانهم ..
وتلاه دوى متلاحق من الخط كله .. وقال مراد فى عصبية وحدة :
— الظاهر أنهم بدعوا الهجوم ..
وتطلع أمامه فى قلق .. محاولاً أن يخترق الظلمات ليرى القوات المتقدمة ..
ولكنه لم يبصر شيئاً ..
وتساءل فى دهشة :
— لماذا إذن كل هذا الضرب ؟
وأجابه المدفعجى من داخل الدبابة :
— الظاهر أن طلقة خرجت خطأ من أجد المواقع .. فتبعه الخط كله ..
وصاح مراد فى حنق :
— هؤلاء الحيوانات .. سيضيعون الذخيرة على الفاضى .. ويكشفون عن
مواقعنا بحماقتهم ..
وهبط من الدبابة وقفز إلى عربة جيب وقفت على مقربة من الدبابة ..
وقال :
— عن إذنبكم يا جماعة .. سأرى هؤلاء الحمقى .. حتى لا يعودوا إلى
بعزقة الذخيرة بلا سبب .

ثم التفت إلى عمر قائلاً :

— وأنت يا عمر .. نبه على عساكرك ألا يضربوا بمثل هذا الطيش .

وأجاب عمر :

— لا تخف علينا .. نحن لا نضرب إلا في المليون .. عندما يصبح العدو على

مرمى حجر منا .. أو في قبضة يدينا ..

ورد عليه مراد :

— وحياة والدك بلاش قنزحة .. اذهب ونبه على عساكرك كلنا في الهوى

سوا ..

وانطلق مراد بعريته .. وعاد عمر إلى موقعه مصطحباً إبراهيم ..

وعندما اقتربا من المدفع تساءل عمر :

— ألدك شيء تفعله ؟

— أبدا .. لقد خرجت — كما قلت لك — بلا قصد إلا الوجود في

المعركة ..

— إذن ابق معي .. نتسلى .. حتى يبدأ الكلاب هجومهم .. سأدعك

تشاهد خير ما في المعركة .. ستشاهد سمبو وهو يدمر دباباتهم واحدة بعد

واحدة ..

واتخذ الاثنان مكانهما بجوار الطاقم وراء المدفع .. وربت عمر على مدفع

في إعجاب وهو يقول :

— يا سلام عليك .. يا سمبو يا عترة ..

ثم التفت إلى إبراهيم قائلاً :

— أتعرف كيف تستعمله ؟

وهز إبراهيم رأسه مجيباً :

— طبعاً لأ ..

— إن استعماله من أسهل ما يمكن .. هل ضربت بندقية ؟ .

— أجل ..

— إنه شبيه جدا بالبندقية العادية .. نضع الطلقة في مؤخرته .. هنا في هذه

الفتحة ..

واستمر عمر يشرح كيفية استعمال المدفع .. وإبراهيم يقلب البصر بينه

وبين الأفق المعتم .. لعل هناك طلائع عدو ..

وعندما انتهى عمر من شرحه قال :

— ما رأيك .. أظن المسألة سهلة جدا ..

ووافق إبراهيم .. دون أن يتأكد أن المسألة سهلة جدا كما قال عمر .. فقد

كان كل ما التقطه كلمات متقطعة عن التنشين .. والضرب ..

ولم يشعر بأنه قد خرج لتلقى دروس في المدفعية .. وكانت حالة التوتر

والقلق التي تسود الخط كله لا تسمح له بتركيز ذهنه في شرح عمر ..

واستمر عمر في حديثه قائلا :

— المسألة لا تحتاج إلا إلى أعصاب .. لا أكثر ولا أقل .. صوب المدفع إلى

الدبابة .. واصمت ودعها تقترب منك .. وتقترب وتقترب .. لا تقلق ولا

تجزع .. اتركها حتى آخر لحظة .. عندما تحس أن مدفعها كاد يلامس

رأسك .. ثم اطلق .. ستصرعها في الحال كما تصرع الثور عندما تضربه في

جبهته بين عينيه .. رأيت .. أن المسألة في غاية السهولة ..

وأبتسم إبراهيم وتساءل في دهشة :

— في غاية السهولة .. أن تنتظر حتى يلامس مدفعها رأسك ؟ ..

— المسألة — كما قلت — مسألة أعصاب ..

— ومسألة ثقة في النفس .. وفي المدفع .. وفي كل شيء .. هب أن الطلقة

كذبت أو أن المدفع عطل .. ماذا تفعلون ؟ .

— ٢٨١ —

— يرحمنا الله ! .

ونظر عمر إلى المدفع الأسود الطويل العنق .. وربت عنقه وهو يقول
محذرا :

— خذ بالك يا سمبو .. إياك أن تفعلها ؟ .

وخيم الصمت .. وكفت مدافع الميدان عن دويها .. وساد الخطوط
سكون خائق .. أشبه بسكون ما قبل العاصفة ..

الفصل الثامن والعشرون :

الوجه الضاحك

طال الصمت في الخطوط .. ومر الوقت دون أن يبدو للعدو المنتظر أثر ..
أو يسمع له صوت ..
وأصاب الجنود والضباط حمول واسترخاء ..
وجلس إبراهيم وراء المدفع .. منكمشا في معطفه وبجواره عمر .. ومراد
الذي ترك موقعه .. وأقبل يقطع الوقت معهما .. وأحس إبراهيم أن الصقيع
قد جمد أطرافه .. وأن النوم قد بدأ يتقل أجفانه .. والصداع يدق رأسه ..
وانتهى كل ما يمكن أن يقال بين ثلاثهما .. وأفرغ مراد كل ما في جعبته
من التهريج .. ولم يعد لدى عمر ما يقوله عن سمبو ودروس المدفعية ..
وبدأ إبراهيم يلوم نفسه على هذا الحمق الذي انتهى به إلى جلسة في صقيع
الليل وسط الرمال .. بلا معارك ولا حرب ولا ضرب ..
لعن الله ضميره الحى .. إنه سبب كل هذا ..
ولعن الله الفتاة المجنونة .. إنها هى التى أثارت ضميره بخيلها وهذيانها ..
ولولاها لكان الآن مضطجعا في فراشه أو مسترخيا أمام المدفأة .. يتطلع إلى
ليلي .
وتذكر دموعها الصامتة المنحدرة على خديها .. ونظراتها الجزعة التى
ودعته بها .
وأحس بلهفة إلى أن يضمها إلى صدره ..

و .. فجأة ..

أيقظه من أحلامه .. صوت دوى شديد رج جسده .. ثم صياح جندي
بأعلى صوته :

— ها هم .. لقد ظهوروا ..

ونفض الدوى ما حط على جسده من استرخاء التعب .. وأطارت صرخة
الاقتراب ما أثقل جفنيه من تخدير النوم .. وأحس بأعصابه تتوتر ومشاعره
ترهف .. واحمى من ذهنه شبح ليلي والمدفأة والدموع والوداع .. وشعر بكل
حواسه تتركز في عينيه تتطلعان إلى الفراغ الذي أخذت الظلمات تنقشع عنه
وتسرب منه ضوء باهت رمادى خليط من الظلمة والضياء .. وبدت في أفقه
هياكل سوداء برزت حدودها العليا في خط الأفق ولاحت كأنها كوديات
حشيش .. تناثرت في الأفق الرمادى ..

وقفز مراد في عنف واندفع يعدو إلى دبابته .. وهو يصيح :

— ظهوروا أخيرا .. الكلاب أولاد الكلاب ..

ورفع عمر المنظار إلى عينيه وأخذ يرقب النقط السوداء في الأفق الشاحب
وبدأ هادئا إلا من صدر يعلو ويهبط بطريقة واضحة ..
وظهرت بين طقم المدفع حركة عصبية .. قفز أحدهم هناك وتحرك
الآخر هنا .. وأمسك الثالث بالدخيرة ..

وألقى عمر عليهم نظرة السوداء تقترب .. ويجد السكون من حوله
مخيما .. قاسية رادعة وقال من بين أسنانه :

— وبعدين ؟ .. حانهبل ؟ جرى لك إيه .. منك له ؟ .. اثبت .. لسه

بدرى ..

وهذا الطقم .. هدوءا سطحيا .. وأخذت العين كلها تتركز في النقط
السوداء الشبيهة بكوديات الحشيش وهي تتضخم رويدا رويدا ..
وبدأ القلق يتسرب إلى نفس إبراهيم .. وهو يرى النقط والصمت

مطبقا .. إلا من أصوات أنفاس تتلاحق .. وطققة أو خريشة نتيجة لحركات الجند العصبية .. وتملكته دهشة من طريقة بدء المعركة .. هذا التسلل العجيب والسكينة التامة لا ينم أبدا عن معركة . أو قتال .. أنه مجرد لقاء أو مصافحة .. لا أكثر ولا أقل .

وضاق إبراهيم بالسكون وبالحملة في النقط السوداء المتضخمة .. لماذا لا يضرب أحد الطرفين .. لماذا لا يثيرون ضجيجا وصراخا .. ولماذا كف هذا الدوى الذى أذن ببدء المعركة .. ونظر إلى عمر فوجده قابعا في موضعه .. رافعا المنظار إلى عينيه ولا أثر به لانفعال أو تأثر إلا هذا الصدر الصاعد الهابط ..

وتساءل إبراهيم :

— ماذا وجدت ؟

ومد يده بالمنظار إلى إبراهيم .. ورفع إبراهيم المنظار إلى عينيه ولم يبد له في أول الأمر شيء .. ثم ضبط المنظار على عينيه فبدت له النقط السوداء شيئا أضخم وأضح التفاصيل محدد المعالم ..

وهتف إبراهيم :

— دبابات ..

وأم عمر حديثه محمدا النوع :

— شيرمان ..

— كيف عرفت ؟

— برجها العالى .. وجسدها الضيق الملفوف .. إني أستطيع أن أميزها جيدا من بين عشرات غيرها .. إنها أضخم كثيرا من اللوكس .. وأعلى من الدبابة تشرشل .. ولكنها أكثر .. وبرجها يبدو ملفوفا كالزلطة .. هل ميزتها ؟

— ٢٨٥ —

— لا أميز شيئاً .. أنها دبابة .. وخلاص .
ثم بدأ محركاً النظارة على طول الأفق قائلاً :
— واحدة .. اثنين .. ثلاثة .. أربعة .. خمسة .
ولم يعد أكثر من ذلك فقد قطع عليه حديثه .. دوى شديد أصم الآذان .
وتلفت حوله فإذا بعمود من الغبار والدخان يتصاعد .. وإذا بفجوة من
الرمال قد بدت على مدى البصر من موقعهم ..
وقال عمر وهو يحاول أن يبدو أكثر هدوءاً :
— بدأ الجد ..
وحدثت الحركة العصبية بين الطقم .. أمسك واحد بالمدفع .. وأمسك
آخر الذخيرة .. وقام ثالث ثم قعد ..
وصاح عمر صيحته التقليدية :
— اثبت ..
وتوالى الضرب .. وسمع صوت ضجيج الدبابات واضحا للأسماع وعمر
يرقب في صمت .. وتزايد القلق بإبراهيم وهمس بعمر :
— أستظل صامتين هكذا ؟
— أجل ..
— هذا شيء مزعج ..
— ألم أقل لك أن المسألة تحتاج إلى أعصاب وهدوء .. ومع ذلك فقد
أحس عمر أن شيئاً لا بد أن يعمل .. ولم يكده يسأله الأباشي :
— هل نحضر مزيداً من الذخيرة ؟
حتى هز رأسه موافقاً ..
كانت الذخيرة بمجوار المدفع .. ولكن أحضار المزيد منها لا يضر .. بل قد
ينفع وقت الحاجة .. وهو يشغل الطقم عن السكون والترقب .

وهبط الجنود من التبة يتبادلون نقل الذخيرة من عربة المدفع .. ونقلت
دفعه .. ثم ثانية .. وثالثة ..
وفي الدفعة الرابعة سمع دوى شديد .. أشد من كل ما سمع من قبل ..
وتلاه انفجارات تخللها صراخ .. وملاً الجو دخان وغبار ..
وأحس إبراهيم بأمعائه تتلوى في باطنه ..
شيء ما قد حدث ..
ومخلوق ما قد أصيب .. على مقربة منه ..
وقفز عمر يهبط من التبة ووراءه إبراهيم ..
وانقشع الدخان .. وهبط الغبار .. وعلى الضوء الرمادى .. بدت عربة
الذخيرة سوداء ممزقة كأنها قطعة ورق محترقة .. وعلى مقربة منها بدت كتل
سوداء مزقتها الشظايا .. وبدا جلدها المحترق .. رماديا كطفية السيجارة ..
وصعق إبراهيم ..
لم يصدق أبدا أن الأمر يمكن أن يحدث بمثل هذه السرعة والسهولة .
لم يكن حتى هذه اللحظة قد داخله إحساس جدى بحقيقة المعركة ..
وحقيقة ما يمكن أن يحدث حوله .. وله .
وأحس بغثيان .. ولم يدر ماذا يفعل ولا ماذا يقول ..
وكان عمر أسبق منه إلى النطق ..
تأوه في ألم .. كما يتأوه الحيوان الجريح .. ورفع يده يطبق بها على رأسه في
شدة ويصيح :

— خسارة .. خسارة ..

ثم يحدث نفسه :

— كانت الذخيرة عندنا كافية .. كان يجب ألا أتركهم يذهبون إلى
العربة ..

ثم يجيب نفسه :

— نصيبهم .. قدرهم .. لو لم يذهبوا سقطت القذيفة عليهم في المدفع ..
وألقى على الحطام الملقى أمامه نظرة يأس وردد :
— لا فائدة .. ربنا يرحمهم ..

ثم تحرك تجاه المدفع قائلاً وهو ينظر إلى كرم الذخيرة التي نقلها الجنود ..
— لم يذهبوا سدى .. لقد أنقذوا لنا معظم الذخيرة ..
وكان ضجيج العدو قد علا .. ودباباته قد وضحت .. وقذائفه على
المواقع قد توالى ..

وكان الجندي الباقي من الطقم قد جلس وراء المدفع كالصنم .
وفي حقد ومرارة وأصرار أقرب عمر من المدفع .. ونحى العسكرى جانباً
وهو يقول :

— دعه لى ..

ثم تحسس المدفع وهو يجلس وراءه وأردف قائلاً :

— سأضرب أنا .. وناولني أنت الذخيرة ..

ثم همهم كأنما يحدث نفسه .. سأريكم .. كل رأس بدبابة .. يا أولاد
الكلاب .. وكان إبراهيم ما زال في ذهوله .. وغثيانه ..
كانت المرة الأولى التي يرى فيها منظر قتلى .. وحرقت ..
لقد اقشعر بدنه ذات مرة وهو يرى صورة الممثلة المحروقة التي سقطت بها
الطائرة في إحدى الصحف .. اقشعر من مجرد صورة الجسد المسزق
المحترق ..

فما باله .. وهو يراه رأى العين وبشكل أفضح وأبشع ..

وتمنى .. لو يغمض عينيه عن كل ما حوله ..

تمنى .. لو كان ما حوله كله كابوساً مزعجاً .. وأنه سيفتح عينيه ليجد

نفسه .. فى الدار الآمنة بجوار المدفأة .. أمام لىلى ..
ولكن الدوى المتلاحق .. والضجيج المقرب .. أكدا له يقظته .. ولم
يتركاه له فرصة الاسترسال فى أحلامه ..
وأحس أنه يجب أن يفعل شيئا .
على الأقل يعاون فى نقل الذخيرة .. بعد أن صفصف الطقم على الاثنين ..
عمر والعسكرى ..
ووقف بجوار العسكرى .. على استعداد لمناولة الذخيرة وهو ما زال يحس
بالغثيان ..
وازداد اقتراب الدبابات ..
وتوالى الضرب من الخط كله .. والدبابات مستمرة .. البعض على
الطريق .. والبعض يدور حول المواقع فى لفة واسعة .. والبعض الآخر تنائر
فى حقول الألغام ...
واستمر سيل الدبابات فى التدفق .. عطلت دبابة هنا .. ودبابة هناك
نتيجة لبعض الطلقات الطائشة البعيدة المدى .. ولكن الأغلبية العظمى كانت
مستمرة فى السير ..
وعمر ما زال رابضا فى مكانه .. يرقب فى حدة وعناد .. وقد أضحى
كله .. أعصابا مشدودة ..
وبرزت إحدى الدبابات فى الطليعة متقدمة على الطريق ..
وآتم عمر تعمير المدفع .. وبدأ التصويب ..
وأحس إبراهيم وهو يرقب عمر أن الغثيان قد ذهب .. وامحى من ذهنه كل
شئ ..

لا لىلى .. ولا مدفأة .. ولا قتلى .. ولا حرقى .. ولا شئ أبدا .. غير هذا
المخلوق الرابض أمامه .. كأنه وحش يوشك أن ينقض واستمرت الدبابة فى

الاقتراب ..

ويدا عمر على المدفع .. ونظره إلى الدبابة ..
وأحس إبراهيم بالخوف وهو يرى الدبابة توشك كما قال عمر .. أن يصدم
مدفعها رأسه .

وضغط عمر ضروسه .. وبدأ شدقه يتلاعب ..
ويهدوء أطلق المدفع ..

واستقرت الطلقة عند فتحة السائق في مقدمة الدبابة .. فانحرفت في
الطريق فجأة .. ثم توقفت .. وأخذت في الأشتعال ..
وضحك عمر .. وصاح كطفل أصاب النيشان ..

— وحشة دى ؟

وقبل أن يجيبه أحد .. حدث من الدبابة المصابة أمر مفاجئ ..
لقد استدار برجها بسرعة .. وتحرك مدفعها مصوباً في لمح البصر تجاه عمر ..
وفي ثانية برق الضوء في فوهته .. وانطلقت قذيفته ..
ولم يحس إبراهيم بشيء أكثر من ريح تمر به .. وسمع صرخة حادة . ثم أبصر ..
مكان وجه عمر الضاحك وراء المدفع .. كتلة من الدماء .. وأبصر العسكرى
الآخر يجلس القرفصاء وقد أخذت الدماء تنزف من ذراعه ..
ولم يفكر ..

لم يصبه غثيان .. ولا ضيق ولا خوف .. لقد أحس بشيء واحد .. هو أنه
يريد أن يقتل إنساناً ما ..
يريد أن يمزقه بيديه وأسنانه ..

وقفز إلى المدفع .. ودفع الجسد الدامي من ورائه ..
وحاول العسكرى أن يتحامل ليجلس وراء المدفع ودماؤه تنزف ولكن إبراهيم
دفعه قائلاً :
(طريق العودة)

— ٢٩٠ —

— استرح أنت .. وحاول أن تضمّد جرحك ..
وبلا وعى .. وجد نفسه بسهولة يفعل الحركات التى التقطها من عمر
والتي لم يخطر بباله أنه سيعيها قط ..
وفى ثانية أطلق المدفع ..
وفى هذه المرة صمّمت الدبابة نهائيا .. لم يدر فيها برج .. ولا تحرك
مدفع .. فقد أضحت عمودا من الدخان ..

الفصل التاسع والعشرون

عملية إنقاذ

أخذت دبابات العدو تتدفق على الطريق .. وحاول العسكرى مرة أخرى أن يتناول المدفع .. ولكن إبراهيم رده في أصرار وهو يقول كأنما يحدث نفسه :

— إنها مسألة بسيطة .. ليست مشكلة كما كنت أتصور ..

وقال العسكرى :

— دعنى لهم ..

— ولكن سيادتك لم تستعمل المدفع من قبل ..

— سأستعمله الآن .. وعندما أعطل سأستعين بك ..

وبدأ يرقب الدبابات .. وتذكر آخر ما نطق به عمر .. « سأريكم ..

كل رأس بدبابة » ..

وهمس في حقد وهو يصر على أسنانه :

— بل بعشر دبابات .

واقتربت الدبابة الأولى .. وأحس أعصابه تتوتر .. وحواسه ترهف ..

وبدا له كأنما يسمع قول عمر « أن المسألة تحتاج إلى أعصاب ..

وهدوء » ..

وزاد اقتراب الدبابة .. حتى صاح به العسكرى الجريح :

— اضرب يا فندم ..

وضرب إبراهيم .. وأصابته الضربة جنزير الدبابة فأطارته ..
ووقفت الدبابة ..

وصاح العسكري :

— ارفع التنشين وأضرب بسرعة .. قبل أن يصوب المدفع ..

وبسرعة ضرب إبراهيم .. فأطار البرج بمدفعه .. واشتعلت الدبابة ..
وأحس إبراهيم بفرحة غامرة ..

وانكشفت في نفسه معظم الأحاسيس .. وبرز إحساس الصياد ..
أصاب الفريسة الأولى .. وجلس يرقب الثانية ..

وتقدمت الثانية ..

وصاح العسكري :

— اخفض التنشين يا فندم .. اضرب بسرعة .. قبل أن يضرب هو ..

وضرب إبراهيم .. وأصابته الطلقة خزان البنزين فانفجر .. واشتعلت
الدبابة محدثة دويا شديدا ..

وسد الطريق .. وبدأت الدبابات تتحول خارجة ووسط حقول الأغمام ..

وبدأ البعض الآخر يستدير متراجعا .. وانهاled الضرب عليها من بقية

المدافع على طول الخط .. وتوالت الانفجارات .. وتوالت الحرائق ..

وتعال أعمدة الدخان ..

وأصبحت المعركة في الناحيتين كأنها قطعة من الجحيم ..

وزاد عدد دبابات العدو المصابة في أرض المعركة .. وبدأت الدبابات

المتبقية تستدير للتراجع ..

وتلفت إبراهيم حوله في دهشة .. وهو يحس أن كفة المعركة قد رجحت

في جانبهم .. وأن وطأة نيران العدو قد خفت .. وأنه يوشك على

الانسحاب ..

وأبصر إبراهيم الدبابات المدافعة قد برزت في الخط وبدأت في التقدم ..
لمطاردة العدو المنسحب ..

واستطاع أن يميز مراد وهو يتقدم بدباباته من وراء موقعه عن يمين الطريق ..
وملاً نفسه شعور بالراحة والسكينة .. وهو يرقب دبابة مراد تتقدم
وحولها بقية الدبابات ..

واندفع مراد في أرض المعركة ..
ولكن اندفاعه لم يطبل .. حتى فوجئ بإحدى دبابات العدو المصابة تصوب
مدفعها نحوه .. ثم تضرب دبابته ..

وأحس مراد بدبابته ترتج في عنف ثم تتوقف .. وأطل برأسه على السائق فإذا
به يغوص في بحر من الدماء .. وإذا بالمدفعجى والسائق قد أصبحا خليطاً من اللحم
والدماء والعظام .. وإذا بالنار تلتهم الدبابة وتوشك على السريان إلى خزان
البنزين ..

وأحس مراد بالمرارة ..
وبدأ له أن القدر يأبى إلا السخرية منه .. وأنه يصر .. رغم هذا الانتصار على
أن يحرق دبابته .. ويعيده إلى مواقعهم على قدميه مرة أخرى .
ولم يجد بدا من التسليم لمشيئة القدر .. فإن لم يعد على قدميه .. خير من ألا
يعود مطلقاً ..

ورفع رأسه للخروج من برج الدبابة .. ولكنه أحس بسيل من الرصاص
يكتسح أعلى البرج .. ويفرش عليه غلالة تقطع عليه الطريق إلى الهروب من
البرج ..

ولم يجد أمامه سوى فتحة النجاة في قاع الدبابة ..
فهبط إليها بسرعة قبل أن تسرى النار إلى خزان البنزين ..
وخشى أن يتعذر فتحها .. فهو لم يحاول استعمالها قط .. ولكن الغطاء لم

يستعص على قوة ذراعيه وفرط لهفته ..
وحمد الله .. ولكنه لم يكد يهبط بساقيه حتى روع .. فقد وجد الدبابة قد
غاضت في الرمل .. حتى اقترب قاعها من الأرض .. وضافت المسافة بينهما
حتى أضحى مستحيلا على مراد التسلل من أسفلها .
وأبصر إبراهيم وقفة دبابة مراد في ذهول .. ورأى النيران تقترب من
الخزان وسيل الرصاص يكتسح فوهة البرج ..
فصوب المدفع تجاه دبابة العدو ..
وبدأ يطلق ..
ولم يضرب المدفع ..
وكرر المحاولة فلم يضرب ..
والتفت إلى العسكرى يستعين به ليصلح عطل المدفع .. فإذا به قد رقد في
حالة اغماء من فرط ما نرف منه ..
وكاد إبراهيم يجن .. وهو يرقب مراد تحيط به النيران .. وهو يجلس
عاجزا ..
وتسلل إلى ذهنه خاطر شيطاني .
ماذا يحدث لو قضى على مراد ..
هل ..؟
ولكنه قفز واقفا .. كأنما لسعته عقرب ..
لعن الله هذا الشيء الخبيث الذى يتسرب إلى أذهاننا .. فيكرهنا على
التفكير فيما يثير في نفوسنا الأشمزاز ..
لابد أن ينقذ مراد بأية طريقة .
لابد أن يذهب إليه .. فقد يستطيع أن يفعل شيئا ..
وبدون وعى .. ترك المدفع وهبط التبة .. وقفز إلى العربة الجيب ..

واندفع كالمجنون تجاه الدبابة ..
وفي غمضة عين وصل إليها .. ووقف مستترا وراءها من سيل النيران الذي
يكتسح أعلى برجها .. وصرخ بصوت حاد :
— مراد ..

— نعم .
— لماذا لا تخرج .. إن الدبابة توشك أن تنفجر ..
وذهل مراد من الصوت الذي يهتف به خارج الدبابة .. وصاح مجيئا :
— لا أستطيع .. لقد حاولت الخروج من فتحة القاع .. ولكن الدبابة كما
ترى مغروزة في الرمال .. والقاع يكاد ينطبق على الأرض ..
— لماذا لا تحاول الخروج من البرج ؟
— سأقتل . ألا ترى النيران المصوبة إليه ؟ .. اسمع .. ههل لديك
كورريك ؟

— أجل ..
— حاول أن تحفر لى من ناحيتك حفرة بين الجنزيرين .. حتى تفسح
المسافة بين القاع والأرض .. فلعلى أستطيع النفاذ منها ..
وقفز إبراهيم إلى الكريك المعلق في جانب العربة ..
ومجنون أخذ يزج الرمال أسفل مؤخرة الدبابة بين الجنزيرين ..
وصاح مراد :
— بسرعة .. أنى أكاد أختنق ..
وزاد إبراهيم من جهده .. حتى أحس أن أصابعه قد دميت وأن ذراعيه قد
تصلبتا ..

وعاد مراد يصيح .. وقد اختنق صوته :
— بسرعة يا إبراهيم .. لقد وصل اللهب إلى ..

— حالا يا مراد ..

وبدأت الحفرة تتسع أسفل مراد شيئاً فشيئاً ..
ودفع فيها قدميه .. ثم ثنى جسده وأخذ يجره بعنف وقد حشر بين الرمال
والقاع .. حتى استطاع أن يخرج من وراء الدبابة ..
ونظر إليه إبراهيم فرعا .. وهو يجد أمامه شيئاً أشبه بالفحمة السوداء منه
بالكائنات الحية ..

لقد كان منظر مراد مروعا .. وقد أضاء الحريق شعره وألهب وجهه ..
وحرقت ثيابه وأطرافه ..
وجلس إبراهيم على مقعد القيادة .. وارتمى مراد بجواره في إعياء شديد ..
وانطلقت العربية ..
وأحست دبابة العدو .. بالصيد المهارب .. فحولت نيرانها من فوهة البرج
إلى العربية .

ولم تسر العربية برهة .. حتى اهتزت عجلة القيادة وتأرجحت العربية
وكادت تنقلب ..

وندت صرخة من شفتى إبراهيم .. وهو يحس بطرقة في جانبه .. وشعر
بسخونه السائل اللزج الأحمر يسيل على ضلوعه ..
ودار الكون به .. وغيمت سحابة على عينيه .. ولم يعد يبصر شيئاً ..
أو يحس بشيء ..

وقفز مراد من موضعه ممسكاً بعجلة القيادة .. وصاح بإبراهيم :

— ما بك ؟

وتأوه إبراهيم :

— لا شيء .. إني متعب فقط ..

وجره مراد إلى المقعد الخلفى .. وتسلم قيادة العربة .. وعاود الانطلاق
بجنون وسط الرصاص المتطاير .. حتى خف سبل الرصاص .. ثم توقف ..
وساد من حوله السكون إلا من صوت احتكاك العجلات بالأرض ..
وصدى الدوى البعيد ..

الفصل الثلاثون

ومعى حمل

مرت ساعات الليل الباقية بليلى ونهى .. فى وحشة مخيفة مروعة .. ودوى
المعركة القرية يرج البيت .. ويخلع قلوب سكانه ..
وجلست ليلى مغمضة العينين شاردة الذهن .. تصارع أفكارها
القائمة .. وهواجسها السوداء .. لا ينجيها من الصراع إلا دقائق الساعة ..
بين آونة وأخرى ..
وقبعت نهى أمامها .. محمقة العينين مرهفة السمع .. ترتجف من كل
دقة .. وتتنفض مع كل دوى ..
وكلما هزت الريح الباب أو رج الدوى النوافذ .. همت بالوقوف فى
جزع ..
حتى بدأ الخيط الأبيض يتسلل من النافذة الزجاجية .. وبدت المرثيات
باهتة من خلالها ..
وتسللت نهى لتجلس فى مقرها المختار .. وراء النافذة .. ومضى الوقت
وهى تمحلق فى الهياكل المبهمة المترائية وراء زجاج النافذة .. والتى أخذ الضوء
المتسلل فى الظلمات يحدد تفاصيلها رويدا رويدا ..
وأخذت تمحلق شاردة .. فى صفى التخيل الذى يحدد طريق العودة ..
وتتطلع إلى الربوة التى تكدست فى أفقها سحب قائمة تحجب السماء وتقطع
الطريق على كل شعاع يحاول التسرب مؤذنا بالشروق ..

ولم تكن نهي ترقب شروفا ..
ولا كانت تطمع من طريق العودة .. في أكثر من أن يعيد الغائب إليها ..
ومر الوقت .. وليلى في رقدتها اليائسة مغمضة العينين .. مرهفة
الحواس .. مشدودة الأعصاب .. ونهى ترقب من وراء النافذة ..
مشدوهة .. مأخوذة ..
وسمعت من بعيد صوت عربية .. ولم تمض برهة حتى لاحت العربية الجيب
مندفعة من وراء الربوة ..
ومدت نهي عنقها ملصقة وجهها بالزجاج ترقب العربية القادمة .. وهي
تحس كأن دق المدافع قد انتقل إلى صدرها ..
ووقفت العربية أمام البيت .. وزاد التصاق نهي بالنافذة ..
وانفرجت كتل السحب القائمة في الأفق عن شعاع رفيع يتسلل ليصبغ
حواف السحب بجمرة قانية .. مؤذنا بشروق جديد ..
وأبصرت نهي على الشعاع المتسلل شبها يهبط من العربية .. ثم ينحني
داخلها ليرفع جسدا آخر بين يديه ..
ويتقدم الشبحان ومن ورائهما الأفق الأحمر .. لا يبدو منهما غير الخطوط
الخارجية المحددة لجسديهما .
وقفزت نهي صارخة كالمسوعة .. واندفعت إلى الباب ..
وفتحت ليلي عينها في فزع .. ونهضت مندفعة ورائها بساقها الجبسه
وهي تصرخ متسائلة :
— ماذا حدث ؟
وفي صوت مرير أجاب مراد وهو يتجه بحمله نحو الأريكة :
— انتصرنا .. أبدنا اليهود ..
وانحني ليضع حمله على الأريكة وهو يقول في صوت مختق :

— ولم أعد هذه المرة على قدمي فقط .. ولكن عدت .. ومعى حمل ..
وارتمى على المقعد فى إعياء وأأس .. وقال فى لهجته التى تشبه الأئبن .
— لقد أنقذ حياىى ثم مات .. إبنى لا أستحق .. لقد كان خيرا منى .
ووضع مراد كفيه على وجهه ثم اندفع فى بكاء مرير كالأطفال ..
ووقفت لىلى تنقل البصر بين الأئبن .. وقد بدا على وجهها الدهول .. لم
تنطق .. ولم تبك ..
لقد تحركت بطريقة آليه .. تجاه الجسد المسجى على الأريكة .. ومدت
يدها تتحسس .. وائتابها قشعريرة .. عندما أحست بلزوجة الدماء
الساخنة ..
كانت فى كابوس مزعج .. لا شك فى هذا ..
أجل .. هذا مجرد حلم .. لا بد أن تفيق منه .. فهى لا تستطيع احتماله ..
أجل يجب أن تستيقظ ..
ومدت يدها مرة أخرى تتحسس وجهه .. ومست طاقتى أنفه ..
وسمعت أنين نهبى وقد ركعت بجوار الجسد تمسح رأسها فى صدره ..
ووصل إلى أذنبها نشيج مراد كالأطفال ..
إنها حقيقة .. أجل .. حقيقة ..
لقد مات إبراهيم .. مات ..
ولم تستطيع أن تتحمل .. وأحست أن الأرض تميد بها والدنيا تلف
وتدور .. وخرت مغشيا عليها ..

الخاتمة

بعد بضعة أيام .. فى إحدى حجرات مستشفى الجمعية الخيرية
بالعجوزة .. كان مراد يرقد فى إحدى الحجرات وقد أغلقت النوافذ وساد
السكون .. وبدا راقدا على فراشه وقد أحاطت الأربطة وجهه وعنقه
وأطرافه ..

ووقفت ليلى ترقبه فى صمت .. وقد جلست أمه على مقعد بجواره ..
وأمسك الطبيب كفه ثم ربتها قائلا :
— أنت الآن بخير .. سنرفع عنك الضمادات بعد بضعة أيام وتعود كما أنت
.. لقد غيرت جلدك كالشعابين ..

وتضاحك مراد :
— لعل جلدى الجديد يكون أفضل ..
— طبعا .. لقد أجرينا لك عملية تجميل .. الحمد لله أن النار لم تصل إلى
جسدك ..

وتنهدت أمه رافعة كفيها إلى السماء قائلة :

— الحمد لله ..

ورددت ليلى :

— الحمد لله ..

وعندما خرج الطبيب قالت ليلى :

— سأتركك قليلا يا مراد .. حتى أذهب إلى البيت .. خذى بالك منه

يا نينة حتى أعود ..

ورد مراد :

— لقد تعبت يا ليلي .. لماذا لا تستريحين الليلة في البيت ..

وأجابت ليلي مؤكدة :

— لن أغيب أكثر من ساعة ..

وخرجت ليلي ..

وكان الليل قد أقبل بعد نهار صحو دافئ .. ما زال دقوه يسرى في أطراف

الليل ..

وأوقفت ليلي .. أول تاكسى مرياب المستشفى .. وبعد لحظة كانت العربة

تقطع بها شوارع القاهرة وهي تجلس في ركن منها منكمشة شاردة ..

ووقفت العربة أخيرا ..

ليس أمام البيت ..

ولكن أمام مقابر الشهداء في الغفير ..

ودلفت ليلي في ضمت من البوابة الضخمة .. ولاحت المقابر فسيحة تتخللها

الأشجار المغروسة حديثا .. ومن ورائها بدت مآذن مقابر الخلفاء وقبابهم .

وقادها الحارس إلى مقبرة أنيقة وسط المقابر الرخامية الجديدة المنتشرة في أنحاء

الفناء لتذرف عليها دموعها خفية في ظلمات الليل ..

* * *

وفي مكان آخر .. بعيدا عن هذا المكان جلست مخلوقة أخرى .. نحيلة

عجفاء .. على قبر آخر .. لنفس الشهيد أقل فخامة وأكثر تواضعا على شاطئ

البحر في الغريش بين صفى النخيل .. جلست نهى على الربوة .. التي تشرق من

خلفها الشمس ! .. والتي يمتد وراءها طريق العودة .. وعلى الربوة .. وضعت نهى

حجرا .. وعليه خوذة نفس الخوذة .. التي سلمتها له عندما خرج إلى المعركة قاتلة

له .. خذها .. إنك ذاهب لقتال ..

ولم تجلس نهبى إلى القبر الذى صنعتة خفية .. ولا ذرفت عليه دمعة .. ولا
صعدت آهة ..
وإنما كانت تجلس إليه .. فى أمل .. وثقة وأصرار .. لتحدد به طريق
العودة .. إلى الوطن .. الضائع .. والأرض المسلوبة .. ولتؤكد به .. أن
دماء العرب لا تراق سدى .. وأن الحق لا يضيع .. وأن الأوطان لا تسرق ..
وأن يوما ما .. مهما طال به الزمن ستعود الأرض المسلوبة إلى أهلها ..
ويسود طريق العودة .. سلام .. وأمن ومحبة ..

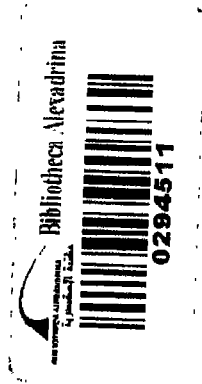
محتويات الكتاب

صفحة		
٥	: خطابيا	الفصل الأول
١٤	: طريق العودة	الفصل الثاني
٢٤	: إحساس بالاستقرار	الفصل الثالث
٣٢	: امرأة واجب	الفصل الرابع
٤١	: كان لي	الفصل الخامس
٥١	: إني أعرفه جيدا	الفصل السادس
٦٠	: حياة بلا حساب	الفصل السابع
٧٠	: هزة مفاجئة	الفصل الثامن
٨٠	: بركان خامد	الفصل التاسع
٩٠	: استدعاء على عجل	الفصل العاشر
١٠٢	: عملية انتحارية	الفصل الحادى عشر
١١٣	: فراش خال	الفصل الثانى عشر
١٢٤	: عودة مريرة	الفصل الثالث عشر
١٣٥	: انتصار الحطام	الفصل الرابع عشر
١٤٥	: ومض البرق	الفصل الخامس عشر
١٥٦	: ثورة مظلوم	الفصل السادس عشر
١٦٦	: مزيد من الصبر	الفصل السابع عشر
١٧٧	: شر التجربة	الفصل الثامن عشر
١٨٧	: دخان المدفأة	الفصل التاسع عشر
١٩٨	: اللهب والوقود	الفصل العشرون
٢١٠	: الحقيقة الثالثة	الفصل الحادى والعشرون
٢٢١	: بلا نهاية	الفصل الثانى والعشرون
٢٣٤	: الخيط القاتم	الفصل الثالث والعشرون
٢٤٣	: كيف ودعتك ؟	الفصل الرابع والعشرون
٢٥١	: حساب خاص	الفصل الخامس والعشرون
٢٦١	: دوى الصوت	الفصل السادس والعشرون
٢٧١	: قبل العاصفة	الفصل السابع والعشرون
٢٨٢	: الوجه الضاحك	الفصل الثامن والعشرون
٢٩١	: عملية إنقاذ	الفصل التاسع والعشرون
٢٩٨	: ومعى حمل	الفصل الثلاثون
٣٠١	:	الخاتمة

رقم الإيداع ٧٧٤٩ / ٨٦ - الترقيم الدولى ٥ - ٠٢٧٤ - ١١ - ٩٧٧



مكتبة مصر
٣ شارع كامل صدقي - الفيحاء



وزارة الصحة
مركز معلومات الصحة العامة

To: www.al-mostafa.com